الكلام الموثوق

في

تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق

حضرة الشيخ محمد ادريس الكاندهلوي

شيخ التفسير والحديث بالجامعة الأشرفية في لاهور باكستان

المتوفى سنة ١٣٩٤ هـ

تحقيق

محمد عبد الله فهمي (محمد المحمدي)

عضو هيئة التدريس بكلية الدعوة الإسلامية جامعة الأزهر

تقديم

الأستاذ الدكتور جمال فاروق الدقاق

عميد كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف سابقًا

مكتبة الغانم

الكلام الموثوق

في

تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق

محفوظة جميع الحقوق

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2022/7/3605)

227.51

الكاندهلوي، محمد ادريس بن محمد إسماعيل بن الحاج محمد إسحاق بن المولوي محمد أبو القاسم.

الكلام الموثوق في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق/ محمد ادريس بن محمد إسماعيل بن الحاج محمد إسحاق بن المولوي محمد أبو القاسم الكاندهلوي (1317 ـ 1394هـ)؛ تحقيق محمد عبد الله فهمي.

عمان: مكتبة الغانم للنشر والتوزيع، 2022.

(228) ص.

ر. إ.: 2022/7/3605.

الواصفات: / خلق القرآن/ / دفع المطاعن عن القرآن/ / علوم القرآن/ / العقيدة الإسلامية/ .

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الطبعة الأولى: 1443هـ ـ 2022م

ردمك: ISBN 978-9923-789-10-0

مكتبة الغانم للنشر والتوزيع

جوال: 00962799170301

Alghanemlibrary@gmail.com

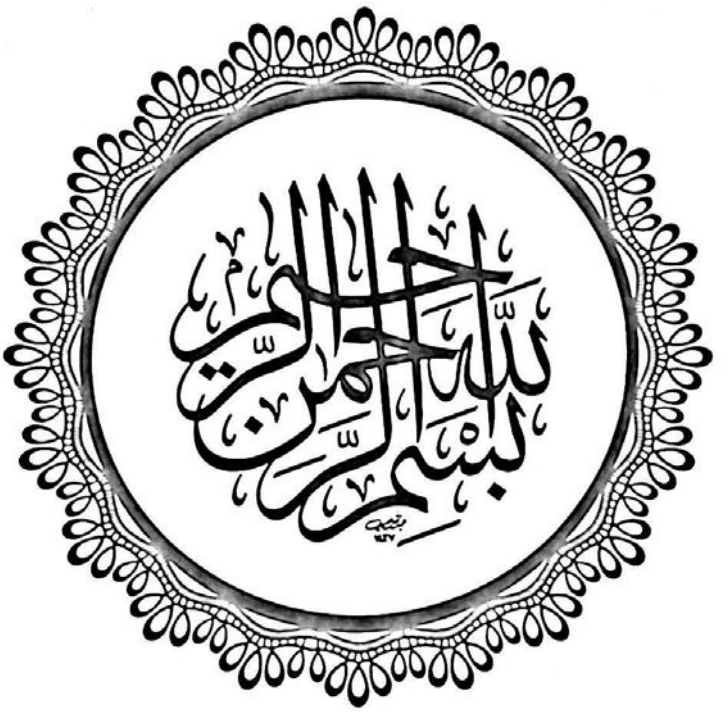
بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الأستاذ الدكتور
جمال فاروق جبريل محمود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، تقدَّست عن الأشباه ذاتُه، وتنزَّهت عن مشابهة الأمثال صفاتُه، وصلَّى الله وسلَّم على حبيبه ومصطفاه سيِّد ولد آدم أجمعين، سيِّدنا محمَّدٍ المنزَّل عليه القرآن العظيم ليكون للعالمين نذيرًا، وعلى آله وصحبه والتَّابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

وبعد فإنَّ مسألة الكلام الإلهيِّ من المسائل الَّتي زلَّت فيها أقدام خلقٍ كثيرين، وضلَّت فيها أفهامُ وعقولُ بعض الفرق الإسلاميَّة، وكثُر فيها الجدال والنزاع بين الطوائف تعصُّبا للآراء، وتمسُّكًا بالأقوال المتباينة التي منها ما هو مقبولٌ، ومنها ما هو مردودٌ شاذٌّ، وما هو جحدٌ للضَّرورة ومكابرةٌ للبداهة والعقل؛ مثل ما نُقل عن متأخِّري الحنابلة مِن القول بِقِدَمِ الحروف والأصوات والجِلْد والغُلَاف ...إلخ.

وإنَّ مجمل أقوال الفرق الإسلاميَّة في صفة الكلام يتمثَّل في هذه الأقوال الأربعة؛ فريقان اتَّفقوا على قِدَم صفة الكلام وهم الأشاعرة والحنابلة، ولكنَّهم اختلفوا في إثبات الحروف والأصوات فنفاها الأشاعرة وأثبتها الحنابلة. وفريقان اتَّفقوا على حدوث الصِّفة وهم المعتزلة والكَرَّاميَّة، ولكنَّهم اختلفوا في قيامها بذاته تعالى فأثبت ذلك الكرَّاميَّة حيث يُجَوِّزُون قيامَ الحوادث بذاته تعالى، ونفاها المعتزلة.

وأعدل الآراء والمذاهب في ذلك إنَّما يُمثِّله الأشاعرة؛ وهو أنَّ كلامَه تعالى صفةٌ قديمةٌ منزَّهة عن شوائب الحدوث، ولذلك نفوا عنه الحرف والصَّوت وما إلى ذلك، وسمُّوه كلامًا نفسيًّا، قال «اللقاني» ﷺ:

ونـــزِّه الـقـــرآنَ أي كـــلامـــه عـــن الحـــدوث واحـذر انتقـامـــه

وهذا الَّذي ذهبوا إليه ليس تقريرًا للعقيدة بشأن صفة الكلام، إنَّما هو في مَعْرِض الحوار والرَّدِّ على المعتزلة؛ حيث حصروا الكلام في الحروف والأصوات.

وقال أهل السُّنَّة مِن الأشاعرة: إنَّ الكلام هو المعنى القائم بنفس المُتكلِّم، والحروف والأصوات دالَّةٌ عليه؛ إذن فمذهب أهل السُّنَّة في حقيقته ردٌّ على المعتزلة، وليست خوضًا في حقيقة الصِّفة الإلهيَّة. قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. فالله تعالى كما لا يُحاط عِلْمًا بذاته، كذلك لا يُحَاط عِلْمًا بصفاته، ومِنْها صفة الكلام.

ولذلك فحقيقة الخلاف مع المعتزلة ترجع إلى تسمية ما ليس بحرفٍ ولا صوتٍ كلامًا؛ فَهُم لا يقولون به، ولا يثبتون إلَّا الكلام اللفظي وهو حادثٌ، فيرجع معنى كونه تعالى مُتكلِّمًا عندهم إلى أنَّه خالقٌ الكلامَ في غيره.

وأمَّا ما أوَّل به «عضُد الدِّين الإيجي» معنى الكلام النَّفسي عند «الأشعريِّ»، وأنَّه محمولٌ على المعنى القائم بالغير، الَّذي يقابل العين دون المدلول، فيكون الكلام النَّفسيُّ شاملا للفظ والمعنى جميعًا قائمًا بذات الله، إلى أنْ قال: (وما يلزم مِن أنَّ الحروف والأصوات مترتِّبةٌ متعاقبةٌ فجواب ذلك - كما قال- إنَّه في التَّلفُّظ

بسبب عدم مساعدة الآلة) فكلُّ ذلك اجتهادٌ منه، ومخالفٌ لما تقرَّر في المذهب الأشعريِّ، وفي الوقت ذاتُه لا دليل عليه مِن كتابٍ ولا سُنَّةٍ، وفيه إثباتٌ للحرف والصوت، وهو ما ينفيه الأشاعرة. وأيضا اختار «الشَّهْرِسْتَاني» ذلك، وكلاهما قريبٌ ممَّا ذهب إليه الحنابلة مع وجود اختلافٍ بينهم لا يَمَسُّ جوهر المسألة.

إلَّا أنَّ المشكلة تكمن في وجود ألفاظٍ وحروفٍ قائمةٍ بذاته تعالى، غير مؤلَّفةٍ من الحروف المنطوقة أو المُخيَّلة، وهذا غير متعقَّلٍ ولا مقبولٍ في الفهم.

ولذلك فإنَّ كلام الأشاعرة في نفي الحروف والأصوات واضحٌ جدًّا، وذلك لأنها حادثةٌ ومترتِّبةٌ ومتعاقبةٌ، وهذا أمارة حدوثها، أمَّا زَعْم أنَّها إذا قامت بذاته تعالى فليس هناك ترتيبٌ ولا تعاقبٌ ولا تأليفٌ فهذا غير معقولٍ، ولا دليل عليه، بل الإجماع على خلافه.

وتحقيق القول في ذلك أنَّ الأشاعرة ينزِّهون كلام الله تعالى عن الحروف والأصوات لأنَّها حادثةٌ، أمَّا القول بأنَّ هناك حروفًا قدسيَّةً نورانيَّةً، وكلماتٍ علويَّةً قديمةً قائمةً بذاته تعالى، فذلك لا دليل عليه.

وكذلك ما زعمه «المُلَّا علي القاري» مِن أنَّ السَّلف يقولون: إنَّ الله تعالى يتكلَّم بحرفٍ وصوتٍ يليقان به تعالى، ولا يشبهان حرف العبد وصوته، فهذا لا نعرفه عن السَّلَف، ولَم يُرْوَ عن أحدٍ منهم حرفٌ واحدٌ في أنَّ الله يتكلَّم بحرفٍ وصوتٍ، ولم يثبت ذلك بالكتاب ولا بالسُّنَّة ولا بأقوال الصَّحابة. وكلامه مخالفٌ أيضًا لكلام إمامه «أبي حنيفة» ﷺ؛ حيث قال: والله يتكلَّم بلا آلةٍ ولا حروفٍ، والحروف مخلوقةٌ، وكلام الله غير مخلوقٍ.

بل إنَّ المعروف عن السَّلف ﷺ ترك الخوض في ذلك، وترك التَّعمُّق فيه، والاقتصار على القول بأنَّ القرآن كلام الله، وأنَّه غير مخلوقٍ، ثُمَّ السُّكوت عمَّا وراء ذلك.

هذا، وإنَّ الأخَ الفاضل الدكتور/ محمد المحمدي أعرِفه بتمكُّنه العِلْميِّ وتدقيقه في المسائل الخاصَّة بالتُّراث الإسلاميِّ، وكذلك اعتنائه بالمَنهج الأزهريِّ ومكوِّناته القائمة على: عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، واتِّباع المذاهب الفقهيَّة، وسلوك طريق السَّادة الصُّوفيَّة، فأرجو له التَّوفيق والسَّداد في إخراج هذا الكتاب؛ حيث إنَّه كتابٌ شاملٌ لهذه القضيَّة مِن حيث بيان معنى الصِّفة، واختلاف الفرق الإسلاميَّة حول القضايا الشَّائكة والأمور الغامضة المُتعلِّقة بها، وتجلية وتبسيط المُراد منها، وقد تعمَّق مؤلِّفه الشَّيخ مُحمَّد إدريس وخاض خوضًا كبيرًا في عمق المسألة، وتحليل ردود الفِرَق على بعضها.

فأسأل الله التَّوفيق للمُحقِّق والمُدقِّق الدكتور: محمد المحمدي، المُدرِّس بكلِّيَّة الدَّعوة الإسلاميَّة بالقاهرة ـ جامعة الأزهر، والرَّحمة والبركة للمؤلِّف الشَّيخ مُحمَّد إدريس، وأنْ يتغمَّده الله بواسع فضله ورضاه ومغفرته له ولجميع المسلمين، إنَّه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

وصلَّى الله وسلَّم على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصَحْبه

وكتبه

جمال فاروق الدقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقدِّمة المُحقِّق

بسم الله وحده، والصَّلاة والسَّلام على مَن لا نبيَّ بعده، وبعد..

فإنَّ البحث في عقائد الإسلام مِنْ أشرف البحوث العلميةً، وذلك لأنَّها أساس الدِّين، ومباحثه تتعلَّق بذات الله سبحانه وتعالى، وذات أنبيائه، مِنْ حيث ما يجب وما يجوز وما يستحيل على تلك الذَّوات الشَّريفة. وقبل ذلك وبعده مباحث خادمة ومباحث تتفرع عن ذينك الأصلين الكبيرين.

والبحث عن الواجب لذات الله تعالى يتضمَّن البحث في الصِّفات الإلهيَّة، ومبحث الصِّفات كان مثار خلافٍ كبيرٍ بين الفرق الإسلاميَّة، وقد تطرَّف كثيرٌ منها؛ ففريقٌ بالغ في نفي الصِّفات، وفريقٌ بالغ في إثباتها، وتوسَّط أهل السُّنَّة (الأشاعرة والماتريديَّة) توسُّطًا راعى الحقَّ والتزم به.

ومِن جملة مباحث الصِّفات مبحث صفة الكلام، وتعلَّق بها البحث في القرآن الكريم هل قديمٌ أو حادثٌ؟ مخلوقٌ أو غير مخلوقٍ؟ وقد طال البحث في هذه الصِّفة، واشتدَّ الخلاف بين الفرق الإسلاميَّة؛ حتى إنَّ البعض يرى أنَّ علم العقيدة سُمِّيَ علم الكلام بسبب كثرة البحث في صفة الكلام.

وقد كانت مباحث الصِّفات فتنةً للمسلمين، وبسببها حصل تراشقٌ بألفاظ الكفر والبدعة، بل وتعدَّى ذلك إلى وقوع الأذيَّة لبعض العلماء، ما بين هجرٍ وضربٍ وطردٍ

وإسالةٍ للدِّماء. أمَّا مبحث صفة الكلام فقد تسبَّب في السَّجن والموت وسفك الدِّماء. وتعدَّى البحث في هذه الصِّفة مجال القاعات العلميَّة وصفحات الكتب إلى ساحات الحُكَّام ومجالسهم، وبعد أنْ كان العلماء في هذه الفرق يتسلَّحون بالدَّليل نقليًّا كان أو عقليًّا، جنح فريقٌ منهم إلى الاستقواء بالحُكَّام وبطشهم الشَّديد.

ولمَّا صُدم العلماء بهذه الفتنة العمياء عادوا مرةً أخرى إلى السَّاحات العلميَّة وبطون الكتب للبحث في هذه المسألة، وكُتبت في سبيل ذلك كتبٌ ورسائلُ كثيرة، ومِن جملة ذلك هذا الكتاب: (الكلام الموثوق في تحقيق أنَّ القرآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ) للإمام العالم العلَّامة (مولانا مُحَمَّد إدريس الكَانْدَهْلَوي) شيخ التَّفسير والحديث بالجامعة الأشرفيَّة.

وهذا الكتاب وإنْ كان صغيرًا في حجمه، لكنَّه جمع فأوعى، واستطاع مؤلِّفه أنْ يجمع شَتات مسائل هذا المبحث الكلاميِّ، وأنْ يُحْسِن عرضها ومناقشتها، واستعان على ذلك بعشرات الكتب.

* * *

*** المصادر التي رجع إليها المؤلِّف:**

١. الإبانة عن أصول الدِّيانة لأبي الحسن الأشعري.

٢. إحياء علوم الدِّين لأبي حامد الغزالي، وشرحه إتحاف السَّادة المُتَّقين للمرتضى الزَّبيدي.

٣. إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري للشِّهاب القسْطَلَّاني.

٤. الإرشاد إلى قواطع الأدلَّة في أصول الاعتقاد، لإمام الحرمين الجويني.

٥. استحالة المعيَّة بالذَّات للشيخ الخضر الشَّنقيطي.

٦. الأسماء والصِّفات للبيهقي، وحاشيته للقطب القسْطَلَّاني.

٧. إشارات المرام من عبارات الإمام للبيَّاضي.

٨. أصول الدِّين، لعبد القاهر البغدادي.

٩. أصول الدِّين، للبزدوي.

١٠. الاعتصام للشَّاطبي.

١١. الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرَّشاد للبيهقي.

١٢. الإنصاف فيما يجب اعتقاده لأبي بكر الباقلاني.

١٣. إيضاح الكلام فيما جرى للعز بن عبد السَّلام في مسألة الكلام. لمُحَمَّد ابن عبد العزيز بن عبد السَّلام.

١٤. البداية والنِّهاية لابن كثير.

١٥. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.

١٦. تاريخ دمشق لابن عساكر.

١٧. تأويلات أهل السُّنَّة، لأبي منصور الماتريدي.

١٨. تبيين كذب المفتري فيما نَسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري لابن عساكر.

١٩. تفسير آية التَّكليم، نسبه المؤلف لابن تيميَّة.

٢٠. التَّمهيد في بيان التَّوحيد لأبي شكور السَّالمي.

٢١. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

٢٢. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن قيِّم الجوزية.

٢٣. الحَيدة والاعتذار في الرَّد على مَن قال بخلق القرآن لعبد العزيز الكناني.

٢٤. درء تعارض العقل والنقل لابن تيميَّة.

٢٥. الرَّد على الجهميَّة والزنادقة لأحمد بن حنبل

٢٦. رسالة في القُرْآن، نسبها المؤلف لابن تيميَّة.

٢٧. رشحات الأقلام شرح كفاية الغلام للشَّيخ عبد الغني النابلسي.

٢٨. رُوح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي.

٢٩. السُّنة المنسوب لعبدالله بن أحمد بن حنبل.

٣٠. السَّيف الصَّقيل في الرد على ابن زَفيل للتَّقِيِّ السُّبْكي وحاشيته للشَّيخ مُحمَّد زاهد الكوثري.

٣١. شرح الطَّحاويَّة لابن أبي العزِّ الحنفي.

٣٢. شرح العقائد النَّسفيَّة للسَّعد التفتازاني.

٣٣. شرح العقيدة الأصفهانيَّة لابن تيميَّة.

٣٤. شرح العقيدة السَّفارينيَّة للسَّفاريني الحنبلي.

٣٥. شرح المقاصد في علم الكلام للسَّعد التفتازاني.

٣٦. شرح بحر العلوم على مُسلَّم الثبوت.

٣٧. شرح تجريد الاعتقاد، والتَّجريد للطوسي.

٣٨. الصَّواعق المرسلة على الجهميَّة والمُعطِّلة لابن القيِّم.

٣٩. ضوء المعالي لبدء الأمالي، للملا علي القاري.

٤٠. طبقات الشافعيَّة الكبرى للتَّاج السُّبكي.

٤١. العقائد العضديَّة للعضد الإيجي، وشرح العقائد العضديَّة للجلال الدَّوانِي، وحواشي الكلنبوي، والخلخالي، والمرجاني على شرح الجلال.

٤٢. الفتاوى الكبرى لابن تيمية.

٤٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.

٤٤. الفتوحات الرَّبانيَّة على الأذكار النَّواويَّة لابن عِلَّان الصِّدِّيقي.

٤٥. الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل لابن حزم.

٤٦. الفقه الأكبر لأبي حنيفة النُّعمان، وشرحه للملا علي القاري.

٤٧. الكشَّاف عن حقائق غوامض التَّنزيل للزَّمْخَشري مع حاشية الجرجاني.

٤٨. مجموع الفتاوى لابن تيميَّة.

٤٩. مجموعة الرَّسائل والمسائل لابن تيميَّة.

٥٠. المُسامرة للكمال ابن أبي شريف في شرح المسايرة للكمال ابن الهمام في علم الكلام مع حاشية زين الدين قاسم قطلوبغا.

٥١. معالم أصول الدِّين للفخر الرازي.

٥٢. مقالات الكوثري للشَّيخ مُحمَّد زاهد الكوثري.

٥٣. منهاج السُّنَّة لابن تيميَّة.

٥٤. المواقف للعضد الإيجي، وشرحها للجرجاني.

٥٥. نظم الفرائد وجمع الفوائد لشيخ زاده.

٥٦. نهاية الإقدام في علم الكلام للشَّهرستاني.

٥٧. نهاية العقول في دراية الأصول للفخر الرَّازي.

٥٨. وصيَّة الإمام أبي حنيفة النُّعمان.

٥٩. اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، للشَّيخ عبد الوهاب الشَّعراني.

كلُّ هذه الكتب رجع إليها مؤلِّفنا في هذا الكتاب صغير الحجم، ولم يكن ينقل منها نَقل مَن يريد تكثير الصَّفحات، بل نَقْل الفاحص المدقِّق، العالم بما يأخُذ وبما يَدَع.

* * *

* وصف الكتاب:

تمَّ تأليف الكتاب في ربيعٍ الثَّاني سنة ١٣٨٩هـ، الموافق يونيو ١٩٦٩م. ثم طُبع في حياة المؤلِّف على نفقة المكتبة العثمانيَّة بالجامعة الأشرفيَّة، وقد وقفنا على نسخةٍ من الطَّبعة الأولى للكتاب (٧٦ صفحة)، وهي طباعة حجريَّة، يَصْعُب على الطَّلبة اليوم قراءتُها وفكُّ عباراتها.

* * *

* عملي في الكتاب:

١. نَسْخُ الكتاب، وتقسيمُه إلى فقراتٍ، وضبطُ ما يُشكِل مِن ألفاظه، وإضافة إلى ذلك ضبطت بالشَّكْل جميع الحروف المُشدَّدة والمُنوَّنة.

٢. حافظت على العناوين التي وضعها المؤلِّف، ولم أُضف إلَّا عنوانًا واحدًا وضعته بين القوسين [].

٣. قام المؤلِّف بتوثيق نقوله مِن الكتب التي رجع إليها مِن خلال المطبوعات المتوفرة عنده؛ فقمت بالبحث عن الطبعات التي رجع إليها قدر الإمكان، وقد وفَّقني الله تعالى للوقوف على بعضها.

٤. قمت بتوثيق النُّقول في الهامش إمَّا من نفس الطَّبَعات التي رجع إليها المؤلِّف، أو مِن الطَّبعات التي توفَّرت بين يديَّ.

٥. حدَّدت بداية النُّقول ونهايتها بالقوسين ()، وما زاده المصنف على النُّقول وضعته بين القوسين [].

٦. ترجمت لجميع الأعلام الواردة في الكتاب، ما عدا الأنبياء ومشاهير الصَّحابة.

٧. أضاف المصنِّف بعض التعليقات في الهامش، وحتى لا تختلط بتعليقاتي، ختمت تعليقات المؤلِّف بكلمة [المصنف] بين قوسين.

٨. ترجمت للمصنِّف ترجمةً ضافيةً، وهي على طولها فإنَّها موجزةٌ في ضوء المعلومات التي توفَّرت لديَّ.

٩. لم أعلِّق إلَّا نادرًا على الكتاب، وذلك لسببين: الأوَّل: جهد المؤلِّف الكبير في توضيح المبحث وإفهامه للقارئ. والثَّاني: تركيز الجهد في إعادة طبع الكتاب على الصورة التي أرادها مؤلِّفها، مع خدمته ببعض الخدمات العلميَّة التي تساعد طالب العلم في عصرنا.

٩. صنعت خلاصة للكتاب، وزدت عليه بعض المعلومات التي تتمم الفائدة،

ووضعتها بعد ترجمة المؤلف لتساعد طلبة العلم من المبتدئين أمثالي في فهم هذا المبحث الكلامي الدقيق.

وفي النِّهاية لا أزعم أنِّي قد بلغت الغاية في خدمة الكتاب، بيد أنِّي قد بذلت جهدًا كبيرا في ظلِّ ضيق وقتي وكثرة مشاغلي وأعبائي، وقد حرصت على تقديم الكتاب كما أراده مؤلفه رحمه الله ونفعنا الله بعلومه في الدراين، آمين.

وفي الختام أتوجَّه بالشكر للأستاذ «فؤاد الغانم» الذي دفع إليَّ بالكتاب عن طريق الشَّيخ «عبد الفتاح رضا الأزهري»، وقد أعاناني كثيرًا في هذا فإليهما أتوجَّه بالشُّكر والثَّناء. كما أشكر شيخي الأستاذ الدُّكتور «جمال فاروق الدَّقَّاق» عميد كلية الدَّعوة الإسلاميَّة السَّابق على مراجعته الكتاب والتَّقديم له. ولهم أُطلق ألسنتي بالدُّعاء أنْ يباركَ الله لهم، وأنْ يجزيَهم خير الجزاء، اللهم آمين.

ولا غالب إلا الله

وكتبه

مُحَمَّد عبدالله فهمي عبد العزيز

المالكي الأزهري (مُحَمَّد المُحَمَّدي)

ترجمة المُصنِّف[1]

* اسمه ونسبه:

هو الشَّيخ مُحمَّد إدريس بن مُحمَّد إسماعيل بن الحاج مُحمَّد إسحاق بن المولوي مُحمَّد أبو القاسم بن المفتي إلهي بخش، الصِّدِّيقي الفاروقي نسبًا، البوفالي مولدًا، الكَانْدَهْلَوِي موطنًا، الحنفي مذهبًا، الأشعري اعتقادًا، الجشتي أو النَّقشبنديُّ المُجدِّدي سلوكًا وتصوفًا.

الأنساب: ألحقتُ بنسب الشَّيخ جملةً من الأنساب، وهذا شرحها:

الصِّدِّيقي الفاروقي: ينتهي نَسَب الشَّيخ مِن جهة أبيه إلى سيِّدنا أبي بكر الصِّدِّيق، ومِن جهة أُمِّه إلى سيِّدنا الفاروق عمر بن الخطَّاب.

البوفالي: ولد الشَّيخ في «بوفال»، وتنطق أيضا «بوبال» أو «بهوبال»، وهي عاصمة ولاية «ماديا براديش» بالهند.

الكَانْدَهْلَوِي: استوطن الشَّيخ مدينة «كاندهله»، هي بلدة تقع في ضلع مُظفَّر

---

(١) استفدت في الترجمة من الكتب الآتية: مقدمة تحقيق كتاب سلك الدرر شرح تائية القضاء والقدر، طبع مكتبة الغانم، مقدمة تحقيق كتاب منحة المغيث شرح ألفية العراقي في الحديث، مقال: محمد إدريس الكاندهلوي أحد أعلام اللغة العربية في الهند، منشور بمجلة ثقافة الهند، مجلد ٦٤ عدد ٢، سنة ٢٠١٣. وبحث منشور على مدونة:

http // :azamlaharpuri.blogspot.com.

نگر التابعة للولاية الهندية أتر برديش. قريبة من «دلهي» عاصمة الهند بمسافة ٤٠ ميلا. وهذه المدينة ينتسب لها جملة من العلماء الكبار، منهم الشَّيخ مُحمَّد إلياس الكَانْدَهْلَوِي (١٣٠٣هـ ـ ١٣٦٤هـ) مؤسس جماعة التبليغ، وابنه الشَّيخ مُحمَّد يوسف الكَانْدَهْلَوِي (١٣٣٥هـ ـ ١٣٨٤هـ) مؤلف كتاب «حياة الصحابة»، والشَّيخ مُحمَّد أشفاق الرحمن الكَانْدَهْلَوِي الشَّيخ المفسر المحدث (١٣٠٩هـ ـ ١٣٧٧هـ). والشَّيخ مُحمَّد زكريا الكَانْدَهْلَوِي المُحدِّث (١٣١٥ ـ ١٤٠٢هـ).

الحنفي: نسبة إلى اتباعه مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان (٨٠هـ ـ ١٥٠هـ).

الأشعري: نسبة إلى اتباعه المذهب العقدي للإمام أبي الحسن الأشعري (٢٦٠هـ ـ ٣٢٤هـ). وقد نص الشَّيخ في مقدِّمة كتابنا على هذه النِّسبة.

الجشتي: صرح الشَّيخ بذلك في مقدمة تفسيره: «معارف القرآن».

والطريقة الجشتية أسسها الشَّيخ معين الدين الجشتي (٥٣٧هـ ـ ٦٣٣هـ)، نسبة إلى بلدة «جشت» في خراسان من فارس، وتوفي في بلدة «اجمير» من الهند.

النَّقشبندي: النقشبندية سميت بذلك نسبة إلى مؤسسها الشَّيخ مُحمَّد بهاء الدين نقشبند (٧١٧ ـ ٧٩١هـ) ولد في قرية «قصر العارفان» تبعد بحوالي ٤ أميال عن بخارى مسقط رأس الإمام البخاري.

المُجدِّدي: وهي طريقة متفرعة عن النقشبندية، ومؤسسها الشَّيخ أحمد السَّرهندي الفاروقي (٩٧١هـ ـ ١٠٣٤هـ)، صاحب «المكتوبات»، وقد عُرف الشَّيخ بلقب «مجدد الألف الثاني» والنسبة إلى هذا اللقب.

وهذه النِّسبة والسَّابقة عليها نَصَّ عليها الدُّكتور ساجد عبد الرَّحمن الصِّدِّيقي،

محقِّق كتاب «منحة المغيث شرح ألفية العراقي في الحديث» لمؤلفنا المذكور.

* * *

* أسرته:

كان الشَّيخ مُحمَّد إدريس الكَانْدَهْلَوِي ينتمي إلى أسرة علمية عريقة، وكان من أجداده العالم الكبير والمؤلف العظيم سماحة المفتي الشَّيخ إلهي بخش (١١٦٢ ـ ١٢٤٥هـ) الذي أضاف إلى «مثنوي مولانا روم» تكملة قيمة. وكان أيضًا من أجداده العلماء الأجلاء والأتقياء من أمثال الشَّيخ مظفر حسين (١٢٢٠هـ ـ ١٢٨٣هـ) والشَّيخ كمال الدين (المتوفى ١٢٤١هـ) والشَّيخ الطبيب شيخ الإسلام، والشَّيخ الطبيب مُحمَّد أشرف الجهنجهانوي.

وكان والده مولانا الحافظ مُحمَّد إسماعيل الكَانْدَهْلَوِي (ت ١٣٦١هـ) مديرًا في مصلحة الغابات في مدينة «بوفال». فلما ولد الشَّيخ مُحمَّد إدريس استقال الوالد من منصبه، وعاد إلى «كاندهلة»، واشتغل هناك بإملاء الحديث حتى وفاته، ومن كتبه: «الفارق بين المُنقاد والمارق».

وكان للشَّيخ محمد إسماعيل ستة أبناء وأربع بنات، وكلهم علماء وحفاظ القرآن الكريم. وكان الشَّيخ مُحمَّد إدريس الكَانْدَهْلَوِي ثاني أبنائه وأكثرهم علما وفضلا.

* * *

* مولده:

ولد الشَّيخ في ١٢ أو ٢٢/ ربيع الثاني عام ١٣١٧هـ. وقيل: في ١٢/ ربيع الأول. الموافق ٢٠/ ٨/ ١٨٩٩م.

* أولاده:

كان للشيخ ستة أبناء وبنتان. والأبناء كلهم كانوا علماء وحفاظا، وهم الشَّيخ الحافظ مُحمَّد نعمان، والشَّيخ الحافظ مُحمَّد مالك، والشَّيخ الحافظ مُحمَّد ميان، والشَّيخ المقرئ مُحمَّد عثمان، والشَّيخ المقرئ مُحمَّد عمران، والشَّيخ المقرئ مُحمَّد أحمد. والبنتان هما عائشة وصادقة.

* * *

* نشأته العلمية:

بدأ رحلته العلمية من القرآن الكريم وحفظه عن ظهر القلب حين بلغ التاسع من عمره. ثم أخذه والده إلى الشَّيخ أشرف علي التهانوي (١٢٨٠هـ ـ ١٣٦٢هـ) المعروف في الهند بحكيم الأمة؛ فأخذ والده إليه في «تهانه بهون» وقال له: (أيها المولوي أشرف علي! أنا جئت به لألحقه بزاويتك وأسلمه إليك)، فقال له الشَّيخ التهانوي: (لا تقل أيها الحافظ إسماعيل: جئت به لإلحاقه بالزاوية؛ بل قل: جئت به لإلحاقه بمدرسة الزاوية). فتم إلحاقه بـ «المدرسة الأشرفية». وقرأ الدروس الابتدائية من النحو والصرف على الشَّيخ التهانوي، ثم بدأ دراسته بصورة منتظمة في المدرسة التابعة للزاوية. واستفاد من الشَّيخ عبدالله الكنكوهي مؤلف كتاب «تيسير المنطق».

ولأن المدرسة الأشرفية كانت توفر التعليم الابتدائي فقط؛ فارتحل الشَّيخ إلى «سهارنفور» سنة ١٣٣٣هـ بصحبة شيخه التهانوي، والتحق بمدرسة «مظاهر العلوم»، وسلمه إلى المحدث الكبير الشَّيخ خليل أحمد السهارنفوري (١٢٦٩هـ ـ ١٣٤٦هـ). فقرأ كتب الحديث والتفسير والفقه والعلوم الأخرى المتداولة من المقررات الدراسية،

عليه وعلى كبار العلماء الآخرين، من بينهم الشَّيخ الحافظ عبد اللطيف (المتوفى ١٣٧٣هـ) والشَّيخ ثابت علي، والشَّيخ ظفر أحمد التهانوي. وتخرج منها بعد تكميل المقررات فيها، وكان بالغا من عمره ١٩ سنة آنذاك. ومن الكتب التي درسها: «مشكاة المصابيح»، و«مختصر المعاني»، و«الهداية»، و«صحيح البخاري»، و«صحيح مسلم»، و«سنن أبي داود».

ثم التحق بالجامعة الإسلامية «دارالعلوم ديوبند» سنة ١٣٣٦هـ، ودرس على العلامة أنور شاه الكشميري (١٢٩٢هـ ـ ١٣٥٢هـ) والعلامة شبير أحمد العثماني (١٣٠٥هـ ـ ١٣٦٩هـ) والشَّيخ أصغر حسين الديوبندي (١٢٦٨هـ ـ ١٣٣٩هـ) والمفتي عزيز الرحمن العثماني الديوبندي (١٢٧٥هـ ـ ١٣٤٧هـ) والعلامة مُحمَّد رسول خان الهزاروي (ت ١٣٩٠هـ)، وغيرهم. وتلقى منهم دروس الحديث النبوي، فالتحق بـ «دورة الحديث»، وتخرج فيها في ١٣٣٧هـ.

* * *

*** جهوده في التدريس:**

فضل الشَّيخ مُحمَّد إدريس هذه المهنة المباركة على المهن الأخرى، ومارسها طيلة حياته إلى جانب انشغاله بشؤون دينية أخرى من الكتابة والخطابة والرد على الفرق الباطلة. يمكن تقسيم أدواره التدريسية إلى أربعة أدوار:

[١] في الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند:

انطلقت فعالياته التدريسية بعد التخرج من دارالعلوم ديوبند، من «المدرسة الأمينية» سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩٢١م؛ ولكنه بقي فيها سنة واحدة. ثم أتى في سنة ١٣٣٨هـ/

١٩٢٢م مدرسا إلى دارالعلوم بديوبند على دعوة من رئيسها الشَّيخ مُحمَّد أحمد (١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م ـ ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م) ابن حجة الإسلام الشَّيخ مُحمَّد قاسم النانوتوي، ونائبه الشَّيخ حبيب الرحمن العثماني (المتوفى ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م). وتولى منصب شيخ التفسير عام ١٩٢٤م، وظل هكذا حتى سنة ١٩٢٩م.

[٢] في حيدرآباد:

انتقل إلى حيدرآباد سنة (١٣٤٧هـ١٩٢٩م) ومكث فيها نحو تسع أو عشر سنوات، استغلها في التأليف فألف كتابه الشهير «التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح». واستفاد جيدا من المكتبة الآصفية، فانتفع الشَّيخ بها وبالمخطوطات الصعبة المنال التي لا توجد إلا فيها، منها مخطوطة الحافظ فضل الله التوربشتي الحنفي (ت٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م) «الميسر في شرح مصابيح السنة» التي كانت لا توجد في الهند إلا نسخة واحدة في المكتبة الآصفية.

وفي سنة ١٩٣٦م قُدِّمت إليه دعوة للقدوم إلى «الجامعة الإسلامية تعليم الدين» دابهيل، بمديرية سورت، غوجرات، وكذلك في سنة ١٩٣٧م؛ ولكنه رفضها وأحب البقاء في حيدرآباد. غير أن العلامة شبير أحمد العثماني حين تولى منصب الرئيس العام لدارالعلوم ديوبند، وجَّه هو ورئيس الجامعة المقرئ مُحمَّد طيب (١٣١٥هـ١٨٩٧م ـ ١٤٠٣هـ١٩٨٣م) إليه دعوة للتدريس فيها، فوافق.

[٣] في دار العلوم ديوبند مرة ثانية:

انتقل إلى «دار العلوم ديوبند» في الأول من ذي القعدة ١٣٥٨هـ ١٣ ديسمبر ١٩٣٩م، وفضَّل الشَّيخ «دارالعلوم ديوبند» وكان راتبه ٧٠ روبية على «حيدر آباد»

والراتب فيها ٢٥٠ روبية. وتسلم فيها منصب شيخ التفسير، وبقي فيها حوالي عشر سنوات، واستقال من منصبه في رجب ١٣٦٨هـ مايو ١٩٤٩م.

[٤] في الجامعة الأشرفية لاهور:

بعد الاستقالة توجه إلى «كاندهله»، وفي ذي الحجة ١٣٦٨هـ أكتوبر ١٩٤٩م جاءت إليه رسالة من وزارة التعليم لولاية بهاولبور تفيد أنه تم تعيين العلامة شبير أحمد العثماني رئيسا للجامعة العباسية، وتم تعيين مولانا الشَّيخ مُحمَّد إدريس الكَانْدَهْلَوِي شيخا لها. فقبل الشَّيخ وهاجر إلى باكستان في ١٢/ صفر عام ١٣٦٩هـ، ٤/ ١٢/ ١٩٤٩م.

وصل الشَّيخ الكَانْدَهْلَوِي مع عائلته إلى كراتشي في ١/ ربيع الأول ١٣٦٩هـ ٢١/ ١٢/ ١٩٤٩م، وتولى منصب شيخ الجامعة العباسية، ومكث فيها نحو سنة ونصف، واستقال من منصبه في ٤/ ذي القعدة ١٣٧٠هـ ٦/ ٨/ ١٩٥١م. ثم انتقل إلى «الجامعة الأشرفية» بلاهور ليشغل منصب شيخ الحديث بدعوة من المفتي مُحمَّد حسن مؤسسها ومديرها. وحدث ذلك عام ١٩٥١م واستمر فيها حتى وفاته في رجب ١٣٩٤هـ/ يوليو ١٩٧٤م.

* * *

* أبرز شيوخه:

١- الشَّيخ العلامة أشرف علي التهانوي: ولد الشَّيخ يوم الأربعاء ٥/ ربيع الثاني ١٢٨٠هـ المصادف ١٠/ ٩/ ١٨٦٣م في بلدة «تهانه بهون» في مديرية «مظفر نكر» بولاية «أترابراديش». وكان فاروقي النسب. وتوفي في ١٦ رجب ١٣٦٢هـ الموافق ١٤/ ٧/

١٩٤٣م. وصلى عليه بالناس الشَّيخ ظفر أحمد العثماني.

٢- الشَّيخ المحدث خليل أحمد السهانفوري: ولد الشَّيخ خليل أحمد بن الشاه مجيد علي بن الشاه أحمد علي أواخر صفر ١٢٦٩هـ الموافق ديسمبر ١٨٥٢م في «نانوته». وتوفي في ١٥/ ربيع الثاني ١٣٤٦هـ في المدينة المنورة، وحصلت له سعادة الدفن بجوار سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه.

٣- الشَّيخ الحافظ عبد اللطيف السهارنفوري: ولد الشَّيخ عبد اللطيف عام ١٢٩٨هـ في قرية «بور قاضي» بمديرية «مظفرنغر» بولاية «أترابراديش». توفي الشَّيخ في اليوم الثاني من ذي الحجة ١٣٧٣هـ، ودفن في مقبرة «حاجي شاه».

٤- الشَّيخ ظفر أحمد العثماني التهانوي: ولد الشَّيخ ظفر أحمد بن لطيف أحمد بن نهال أحمد في ١٣/ ربيع الأول ١٣١٠هـ في بلدة «ديوبند»، يصل نسبه إلى سيدنا عثمان بن عفان. توفي في يوم الأحد في ٢٣/ ذي القعدة ١٣٩٤هـ الموافق ٨/ ١٢/ ١٩٧٤م، وصلى عليه المفتي الأعظم مُحمَّد شفيع الديوبندي.

٥- العلامة مُحمَّد أنور شاه الكشميري: ولد في ٢٧/ شوال١٢٩٢هـ الموافق ١٦/ ١٠/ ١٨٧٥م، وتوفي في ديوبند لليلة خلت من صفر سنة ١٣٥٢هـ.

٦- العلامة شبير أحمد العثماني: ولد عام ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م في بجنور. وتوفي في ٢١/ صفر ١٣٦٩هـ١٣/ ١٢/ ١٩٤٩م في «بهاول بور»، ودفن في «كراتشي».

٧- الشَّيخ الحافظ مُحمَّد أحمد بن الإمام مُحمَّد قاسم النانوتوي، توفي رحمه الله تعالى في ٣/ جمادى الأولى ١٣٤٧هـ الموافق ١٩/ ٩/ ١٩٢٨م في محطة نظام آباد حين يريد العودة من حيدرآباد ودفن في مقبرة «خطه صالحين».

٨- المفتي عزيز الرحمن بن الشَّيخ فضل الرحمن الديوبندي، ولد في ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م في ديوبند. وتوفي ليلة ١٧ جمادى الآخرة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م بديوبند، وصلى عليه بالناس الشَّيخ أصغر حسين، ودفن في مقبرة القاسمية.

٩- الشَّيخ السيد أصغر حسين بن الشاه مُحمَّد حسن الديوبندي، ولد في ديوبند عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م. وتوفي يوم الاثنين ٢٢/ محرم ١٣٤٦هـ الموافق ٩/ ١٢/ ١٩٤٤م بمدينة «راندير» بولاية غوجرات.

* * *

* أبرز تلاميذه:

١ ـ الشَّيخ مُحمَّد يوسف البنوري (١٣٢٦هـ ـ ١٣٩٧هـ/ ١٩٠٦م ـ ١٩٧٧م).

٢ ـ المفتي عتيق الرحمن العثماني (١٣١٩هـ ـ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٣ ـ الشَّيخ سعيد أحمد الأكبرآبادي (١٣٢٥ ـ ١٤٠٥هـ/ ١٩٠٧ ـ ١٩٨٥م).

٤ ـ الشَّيخ السيد مُحمَّد ميان الديوبندي (١٣٢١ ـ ١٣٩٥هـ/ ١٩٠٣ ـ ١٩٧٥م).

٥ ـ الشَّيخ معراج الحق رئيس جامعة ديوبند بالنيابة.

٦ ـ المفتي نذير أحمد الجالندهري.

٧ ـ الشَّيخ مُحمَّد نعيم الديوبندي.

٨ ـ المولوي الطبيب أنيس أحمد الصديقي.

٩ ـ القاضي زين العابدين الميروتي.

١٠ ـ الشَّيخ مُحمَّد سالم رئيس دار العلوم (وقف) بديوبند.

١١ ـ الشَّيخ السيد أسعد المدني.

١٢ ـ الشَّيخ نصير أحمد شيخ الحديث ورئيس هيئة التدريس السابق بدار العلوم بديوبند.

١٣ ـ المقرئ رحيم بخش الباني بتي.

١٤ ـ الشَّيخ مُحمَّد مالك الكَانْدَهْلَوِي (١٩٢٥م ـ ١٩٨٨م/ ١٤٠٩هـ) شيخ الحديث في الجامعة الأشرفية بلاهور.

١٥ ـ القاضي سجاد حسين الرئيس العام للمدرسة العربية بـ«فتح بوري».

* * *

* خلقه وعاداته:

كان الشَّيخ الكَانْدَهْلَوِي متواضعا للغاية، كما كان نموذجا لإباء النَّفس والإخلاص وغيرة الدين، وأشد التزاما بالشريعة الغراء فكان لايرى من المنكرات شيئا إلا وينهى عنه وينكره.

كان يحب العلماء والطلاب حبا شديدا ويكرمهم، ويلقى كلَّ أحد ببشر وطلاقة، ويتحدث إليه بصوت خفي لين. وكان شعاره في الحياة: «الفقر فخري». وكان واصلا لرحمه، ويتردد على الأقرباء والأحباء من حين لآخر ويذهب معه بالهدايا، ويؤكد أبناءه على ألايذهبوا إلى أحد بدون هدية؛ لأنها تزيد من الحب.

كان من أعماله الروتينية وعاداته المستمرة النهوض من النوم للتهجد. وحين يُؤذَّن يخرج للصلاة إلى المسجد ويبقى فيه حوالي نصف ساعة بعد الانتهاء من الصلاة،

ثم يعود إلى المنزل ويأخذ في مطالعة كتب المنهج الدراسي، ويستعد لإلقاء الدروس ويعتبر ذلك من الضروري، رغم تدريسه نفس الكتاب منذ سنوات، ويشدد على ذلك ولايستحسن من يدرِّس بدون مطالعة ويفتخر بذلك. وكان يتلو القرآن الكريم عامة بدون النظر إليه في غير رمضان ويقرأه في التراويح ويكمله في الليلة السابعة والعشرين.

وكانت غرفته متواضعة؛ فلم يكن فيها أثاث ولا كرسي ومكتب. نعم، كانت هناك عدة دواليب عادية مليئة بالكتب، وفرشت الأرض ببساط اعتيادي ويجلس عليه وأمامه منضدة، يضع عليها الكتب خلال المطالعة والتاليف، ويترك الكتب مفتوحة ومتناثرة أياما عديدة، ويصيبها الغبار؛ ولكنه لايسمح لأحد من أسرته بتنظيفها كي لايتخلل نظامه وترتيبه بشأن المطالعة والكتابة.

وكان متسما بصفة القناعة بما رزقه الله، ومن صور ذلك أنه مارس التدريس لمدة ٢٣ عاما من ١٩٥١م إلى ١٩٧٤م في «الجامعة الأشرفية» لاهور، وظل يتقاضى الراتب الذي بدأ به تدريسه فيها، رغم إلحاح الشَّيخ عبيدالله مدير الجامعة ومجلسها الاستشاري مرارا على الإضافة إليه ولكنه امتنع عنه وقال: حسبي الله، ولا أريد المزيد منه.

* * *

* صلته بالبلاد العربية:

وفقه الله تعالى لحج بيت الله الحرام أربع مرات:

١ ـ سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣٢م، واصطحب زوجته وابناه مُحمَّد مالك ومُحمَّد نعمان.

٢ ـ سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٤م. وبعد الحج زار بلاد الشام ولبنان وفلسطين، ومكث في دمشق لمدة سنة أشهر، وأقام هناك في الجامع الأموي. وظل يلتقي خلالها بأصحاب

العلم والفضل والمكانة ويشترك في الحلقات العلمية. وكان من أولئك العلماء الشَّيخ بهجة البيطار. والمهمة التي أدَّاها خلال بقائه هناك طبع أربعة مجلدات من تأليفه الهام «التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح».

٣ ـ سنة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م. وفي هذه المرة قابل عدة علماء من مكة المكرمة وأثَّر في نفوسهم بغزارة علمه وحسن خلقه، ومنهم العالم الكبير السيد علوي المالكي (١٣٢٨ ـ ١٣٩١هـ)، والشَّيخ حسن المشاط (١٣١٧ ـ ١٣٩٩هـ). وكان يقيم دائما في «المدرسة الصولتية» بمكة المكرمة، ويلاقيه فيها العلماء من مكة وغيرها من المدن والدول الأخرى وخاصة من الهند.

٤ ـ سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م بعد انفصال باكستان من الهند.

* * *

*** مؤلفاته العلمية:**

كان الشَّيخ رحمه الله صاحب جهاد علمي طويل، وأضاف إلى التدريس والوعظ التصنيف باللغتين العربية والأوردية.

*** من كتبه العربية:**

١. أحسن الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام.

٢. الباقيات الصالحات شرح حديث إنما الأعمال بالنيات.

٣. تحفة الإخوان بشرح حديث شعب الإيمان.

٤. تحفة القاري في حل مشكلات البخاري.

٥. تشطير لامية امرئ القيس.

٦. التعليق الصبيح في شرح مشكاة المصابيح.

٧. التعليقات العربية شرح على المقامات الحريرية.

٨. جلاء العينين في تحقيق رفع اليدين.

٩. الجمال للرجال.

١٠. دلائل الفرقان على مذهب النعمان.

١١. سلك الدرر شرح تائية القضاء والقدر.

١٢. الفتح السماوي بتوضيح تفسير البيضاوي ـ في ٢٢ مجلدًا، مخطوط.

١٣. قصيدة أسماء النبي الكريم.

١٤. قصيدة تائية القضاء والقدر.

١٥. قصيدة رائية الحمد والثناء والمناجاة والدعاء.

١٦. قصيدة لامية المعراج.

١٧. قصيدة ميمية المديح والثناء.

١٨. قصيدة ميمية ولامية.

١٩. الكلام الموثوق في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق، كتابنا.

٢٠. مقدمة البخاري.

٢١. مقدمة التفسير.

٢٢. مقدمة الحديث.

٢٣. منحة المغيث شرح ألفية العراقي في الحديث.

* باللغة الأردية:

م	اسم الكتاب	م	اسم الكتاب
١	إثبات حدوث العالم	٢	إثبات صانع عالم
٣	أحسن البيان في مسألة الكفر والإيمان	٤	اسلام اور اشتراكيت.
٥	أحسن الحديث في إبطال التثليث: وألحق به قصيدتين للشيخ أحمد علي المليجي المصري بعد ترجمتهما إلى الأردية وهما: السؤال العجيب في الرد على أهل الصليب، والجنون فنون.		
٦	اسلام اور مرزائيت كا أصولي اختلاف	٧	اسلام اور نصرانيت
٨	اصول اسلام	٩	اعجاز القرآن
١٠	اوراد مباركه	١١	بشاير النبيين
١٢	بيام اسلام	١٣	حجيت حديث
١٤	حدوثِ ماده وروح	١٥	خلافت راشده
١٦	دستور إسلام	١٧	دعاوي مرزا
١٨	الدين القيم	١٩	سبيل الرشاد
٢٠	سيرت المصطفى	٢١	شرائط مفسر ومترجم
٢٢	شرائط نبوت	٢٣	شرح حديث افتراق أمتي
٢٤	عقائد اسلام	٢٥	عقل ـ اس كي فضيلت
٢٦	عقل أور إسلام	٢٧	علم الكلام

٢٨	فتح الغفور شرح منظومة القبور	٢٩	القول الحكم
٣٠	كلمة الله في حيات روح الله	٣١	محاسن إسلام
٣٢	مسك الختام	٣٣	معارف القرآن
٣٤	مقاصد بعثت	٣٥	نبوت كبرى
٣٦	نهاية الإدراك في حقيقة التوحيد والإشراك	٣٧	نظام اسلام
٣٨	لطائف الحكم في أسرار نزول عيسى بن مريم		

❊ ❊ ❊

❊ وفاته:

استأثرت به رحمة الله بعد صلاة الفجر في الثامن من شهر رجب عام ١٣٩٤هـ، ٢٨/ ٧/ ١٩٧٤م. أمطرالله عليه شآبيب رحمته. وصلى عليه ابنه الأكبر الشَّيخ مُحمَّد مالك، وشارك في الجنازة جم غفير، يبلغ عدده زهاء خمسة وعشرين ألفا.

وقد رثاه شيخه وصديقه الشَّيخ ظفر أحمد العثماني، منها قوله:

تبًّا لِدُنيَا لا يدوم نعيمها ... وجميع ما فيها لَدَيْنَا فانِ

إدريس لا تَبْعُد فذكرك خالدٌ ... والذِّكر للإنسان عُمْرٌ ثانِ

قد كنت أرجو أن تكون خليفةً ... لدراسة الآثار والقرآن

لكن رحلت إلى الجنان بسرعة ... وتركت أهلك في البكا لزمان

❁ ❁ ❁

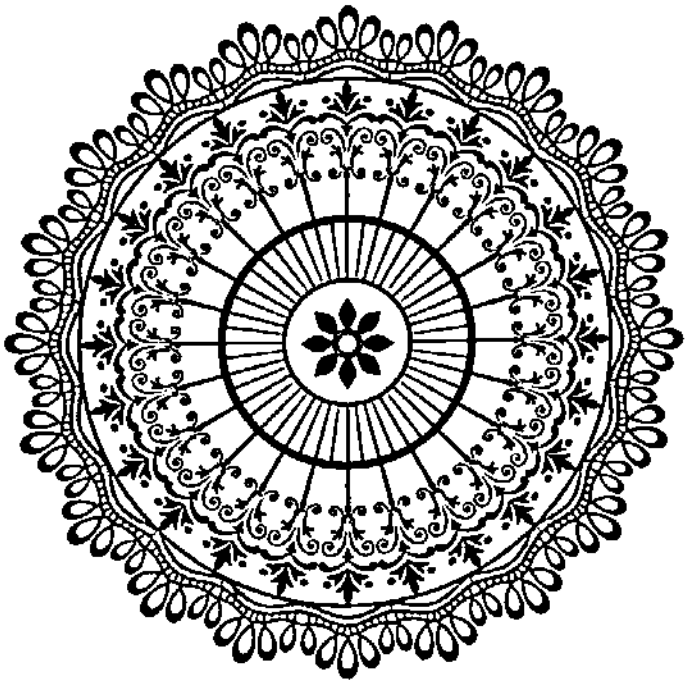

تلخيص الكلام في صفة الكلام

صفة الكلام مِن صفات المعاني عند أهل السُّنَّة، وهي مع صفة السَّمع والبصر صفاتٌ اختُلف في دليل ثبوتها؛ فقيل: عقليٌّ. وقيل: نقليٌّ. والرَّاجح أنَّ المعتمد في ثبوتها الدَّليل النقَّليُّ. وصفة الكلام في الشَّاهد تقتضي جملةً مِن الأعضاء، ودخول الهواء في التَّجاويف بصورةٍ مخصوصةٍ، وحروفٍ وأصواتٍ، ونحو ذلك.

ولذلك لمَّا وردت النُّصوص بإثبات الصِّفة لله تعالى، اتَّفق المسلمون على كون الله متكلِّمًا، ولكِنْ وقع الخلاف في جملةٍ مِن المسائل:

١ ـ ما معنى الكلام في حقِّ الله تعالى؟ وهل كلام الله بحرفٍ وصوتٍ أو لا؟

٢ ـ هل كلام الله (ومنه القرآن) قديمٌ أو حادثٌ؟

٣ ـ هل سمع سيِّدُنا «مُوسَى» كلام الله تعالى؟ وكيف يسمع المؤمنون كلام الله في الآخرة؟

هذه جملةٌ مِن الأسئلة الرَّئيسة، ويتعلَّق بها جملةٌ مِن الأسئلة الفرعيَّة يأتي جوابها في ضمن جواب الأسئلة السَّابقة، ولكن قبل الإجابة أقوم بتعريف الكلام وبيان أضربه.

* تعريف الكلام وأضربه:

الكاف واللام والميم كجذرٍ لُغويٍّ تتكوَّن منه كلماتٌ تدور معانيها على أصلين:

الأوَّل يدُلُّ على نُطْقٍ مُفْهِمٍ، والآخَر على جِراحٍ[1]. وما يهمُّنا هنا الأصل الأوَّل.

إذن الكلام في أصل اللُّغة عبارةٌ عن أصواتٍ متتابعةٍ لمعنىً مفهومٍ[2].

ولكن لماذا يصدر الكلام مِن المُتكلِّم؟ الكلام إظهار ما في الباطن على الظَّاهر لِمَن يشهد ذلك بنحوٍ مِن أنحاء الإظهار[3].

وهذا التعَّريف يفيدنا ما يلي:

١ ـ الكلام يعبِّر عن معاني موجودةٍ في نفس المُتكلِّم، ولذلك نحن أمام نوعين مِن الكلام هما أضرب الكلام: الكلام اللَّفظيُّ المُكوَّن مِن حروفٍ وأصواتٍ، والكلام النَّفسيُّ.

وهنا ثار خلاف بين العلماء هل الكلام يُطلَق بالحقيقة على الكلام اللَّفظي أو الكلام النَّفسيِّ؟ فقيل: حقيقةٌ في الكلام اللَّفظيِّ مجازٌ في غيره، ونصره المُعْتَزِلَة. وقيل: حقيقةٌ في الكلام النَّفسيِّ مجازٌ في غيره، وهو أحد رأيي «الأَشْعَرِيِّ» واختاره «السُّبْكيُّ». وقيل: حقيقةٌ فيهما معًا، وهو الرَّأي الآخَر عن «الأَشْعَرِيِّ»، ونقله «الفَخْر الرَّازيُّ» عن المُحقِّقين[4].

٢ ـ لا يُعتبر الكلام اللفظي الطَّريق الوحيد لإظهار الكلام النَّفسيِّ في الحادث، بل تُوجَد طُرقٌ أخرى سمِّيت الدَّوالُّ الأربع، وهي: الخطوط، والعقود، والنُّصُب،

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ١٣١.

(٢) المصباح المنير ٢/ ٥٣٩.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف ص٢٨٣.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص٢٨٣، تاج العروس ٣٣/ ٣٧٠.

والإشارات[1]. والمقصود بالخطوط الكلام المكتوب، وبالعقود عقد أصابع اليد للدَّلالة على عددٍ. والنُّصُب العلامات الموضوعة للدَّلالة على معنىً مقصودٍ كعلامات الحدود وقياس المسافات وإشارات المرور. والإشارات كالإشارة بالرَّأس أو باليد أو بالأصبع. ويمكن أنْ يضاف إلى ذلك لسان الحال وهي الانطباعات المرسومة على الأَوجُه أو الأجسام أو الَّذي يوحي به حالُ مَن أمامك. وفَهْمُ هذه النُّقطة مهمٌّ جدًّا في معرفة الكلام النَّفسيّ وصور التَّعبير عنه.

ويمكن تعريف الكلام النَّفسيُّ في الحادث بأنَّه كلُّ ما يحصل في النَّفس مِن حيثُ ما يدلُّ عليه بعبارةٍ أو إشارةٍ أو كتابةٍ فهو كلام النَّفس سواءٌ كان عِلْمًا، أو إرادةً، أو إذعانًا، أو خبرًا، أو استخبارًا، أو غير ذلك[2].

ولذلك فإنَّ الكلام في اللُّغة يُطلَق على الدَّوالِّ الأربع، وعلى ما يُفهم مِن حال الشَّيء، وعلى التَّكلُّم، وعلى التَّكليم كذلك، وعلى ما في النَّفس مِن المعاني التي يُعبَّر بها، وعلى اللَّفظ المُركَّب أفاد أم لا، ويُطلَق على الخِطاب، وعلى جِنس ما يُتكلَّم به مِن كلمةٍ ولو كانت على حرفٍ كواو العطف، أو أكثر مِن كلمةٍ مهملةٍ أو لا[3]. وهذا الكلام كلُّه مُهِمٌّ فكُنْ مِنْه على ذُكْرٍ.

*** أوَّلا: معنى الكلام في حقِّ الله تعالى، وهل هو مركَّبٌ مِن حرفٍ وصوتٍ:**

اختلف العلماء على أربعة مذاهب:

الأوَّل: مذهب الحنابلة: ذهب محقِّقو الحَنَابِلَة إلى أنَّ الله يتكلَّم بحرفٍ وصوتٍ

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ٢/ ١٣٧٥.

(٢) الكليات للكفوي، ص٧٤٢.

(٣) تاج العروس ٣٣/ ٣٧٠.

قديمين يليقان بالله ﷻ، ولا يُشْبِهان حرف العبد وصوته، فهم يثبتون الحرف والصوت مع اعتقاد التَّنزيه وعدم التَّشبيه.

بينما يرى متأخِّرو الحَنَابِلَة والحَشْوِيَّة أنَّ كلام الله حروفٌ وأصواتٌ، وهذه الحروف والأصوات قديمةٌ، وقائمةٌ بذات الله تعالى، مع ترتُّب بعضها على بعضٍ، وكون الحرف الثَّاني مِن كلِّ كلمةٍ مسبوقًا بالحرف المُتقدِّم عليه، وكلُّ هذا ثابتٌ في الأزَل، والمَسموع مِن أصوات القُرَّاء والمَرئيُّ مِن سطور المصحف قديمٌ، وهو نفس كلام الله القائم بذات الله تعالى.

وبلفظٍ آخَر فكلام الله عندهم هو الحروف المُؤلَّفة والأصوات المُقطَّعة، وأنَّه حالٌّ في الألسِنَة والصُّدور والمصاحف، وأنَّه مع هذا قديمٌ غير مخلوقٍ.

الثَّاني: مذهب الكرَّاميَّة: كلام الله عندهم مركَّبٌ مِن حروفٍ وأصواتٍ حادثةٍ قائمةٍ بذات الله تعالى.

الثَّالث: مذهب المُعْتَزِلَة: الله متكلِّمٌ، ولكِنْ بمعنى أنَّه خَلَقَ الكلامَ في غيره، وهو مُكَوَّنٌ مِن حروفٍ وأصواتٍ، ولا يقوم شيءٌ مِنْه بالله تعالى. وكلام الله يحُلُّ في سطور المُصحف عند «الجُبَّائي»، والكلمات المكتوبة هي أجسامُ كلام الله عند «النَّجَّار».

الرّابع: مذهب أهل السُّنَّة: تُطْلق صفة الكلام على نوعين مِن الكلام: الأوَّل: القائم بذات الله تعالى وهو الكلام النَّفسيُّ، ليس مُكَوَّنًا مِن حروفٍ وأصواتٍ، ولا يُوجَد فيه ترتيبٌ ولا تعاقبٌ، ولا تقديمٌ ولا تأخيرٌ. الثَّاني: عباراتٌ ودلالاتٌ على كلام الله تعالى كالقرآن والتَّوراة والإنجيل والزَّبور، وهو الذي نقرؤه بألسنتنا، ونكتبه بأيدينا، وهو مركَّبٌ مِن حروفٍ وأصواتٍ حادثةٍ.

وكلام «الإمام أحمد بن حنبل» و«ابن حزمٍ» في هذه المسألة قريبٌ مِن كلام أهل السُّنَّة، والمعروف عن «أحمد بن حنبل» أنَّ القرآن مِن عِلْم الله، وعِلْمُ الله قديمٌ غير حادثٍ، وغير مخلوقٍ. ولم يتكلَّم فيما وراء ذلك.

و«للعَضُد الإيجي» كلامٌ يُفْهَم مِن ظاهره أنَّه يجعل مذهبَ «الأَشْعِرِيَّ» مثلَ مذهب عامَّة الحَنَابِلَة، ولكنْ يمكن تأويل كلامه بأنَّه يجعل الكلام النَّفسيَّ ألفاظا غيبيَّةً قائمةً بذات الله تعالى ليس فيها ترتُّبٌ ولا تعاقبٌ زمانيٌّ. فيكون كلام الله تعالى هو مجموع اللَّفظ النَّفسيِّ والمعنى، أو هو المعنى القائم بالله الشَّامل للدَّالِّ والمدلول.

ونُسِب كذلك إلى «الشَّهْرِسْتاني» أنَّه يقول بِقِدَم الحروف والألفاظ، ويمكن تأويلُ كلامِه أنَّه يقول بِقِدَم الحروف والألفاظ القائمة بذات الله تعالى؛ فأَشْبَه قولُه قولَ محقِّقي الحَنَابِلَة.

وإذا كان كلام الله القديم لا يحُلُّ في المُصحف فما معنى تعظيم المُصحف سواءٌ في القراءة أو في الكتابة أو في المَسِّ والحَمْل، وغيرها مِن الأحكام المُشدَّدة في التَّعامل مع المصحف؟ والجواب أنَّا نُعَظِّمُه لأنَّه دالٌّ على كلام الله القديم، وليس معنى تعظيمه أنَّه يحُل فيه القديم. كما أنَّنا نُعظِّم المسجد توقيرًا له، لا لأنَّ الله حلَّ فيه. وكذلك نُعظِّم الكعبة المُكرَّمة ونُقدِّرُها، لا لأنَّها قديمةٌ، ولا أنَّ القديم حلَّ فيها.

* تحقيق الخلاف:

اتفق الحَنَابِلَة والكرَّاميَّة على أنَّ كلام الله مركَّبٌ مِن حروفٍ وأصواتٍ قائمةٍ بذات الله تعالى، ولكنَّ الحروف والأصوات قديمةٌ عند الحَنَابِلَة، حادثةٌ عند الكرَّاميَّة، وغالى متأخِّرو الحَنَابِلَة فقالوا بِقِدَم الألفاظ والحروف الصَّادرة مِن القارئ والكاتب.

واتفق المُعْتَزِلَة وأهل السُّنَّة على حدوث الكلام اللَّفظيّ (العبارات والدَّلالات على كلام الله)، ولكنَّهم اختلفوا في الكلام النَّفسيّ، فأثبته أهل السُّنَّة ونفاه المُعْتَزِلَة.

* ثانيًا: القرآن مخلوقٌ أو غير مخلوقٍ:

بناءً على ما سبق فإنَّ الحَنَابِلَة يَرَون القرآن مُركَّبًا مِن حروفٍ وأصواتٍ قديمةٍ، بينما يرى متأخِّرُوهم أنَّ المَسموع مِن أصوات القُرَّاء والمَرئيَّ مِن أسطر المُصحف نفس كلام الله تعالى. وبالتَّالي فالقرآن على القولين قديمٌ غيرُ مخلوقٍ.

وأمَّا الكرَّاميَّة فالقرآن عندهم حادثٌ مخلوقٌ، بل الحروف والأصوات القائمة بالله حادثةٌ.

وأمَّا المُعْتَزِلَة فقالوا بحدوث القرآن وأنَّه مخلوقٌ، والمَقصد عندهم ما بين دَفَّتي المُصحف؛ إذ لا يوجد إلَّا هو عندهم.

وأمَّا أهل السُّنَّة فالقرآن بمعنى الصِّفة القائمة بذات الله تعالى قديمٌ غير مخلوقٍ، وأمَّا بمعنى الألفاظ المَرقومة بين دفَّتي المُصحف الدَّالَّة على كلام الله تعالى فحادثةٌ.

* ثالثًا: سماع كلام الله تعالى:

يرى أهل السُّنَّة أنَّ كلامَ الله ﷻ قديمٌ، ولكنَّ إسماعَه وإظهارَه لِمَن شاء مِن الملائكة والرُّسُل والنَّاسِ يومَ القيامة وفي الجنَّة حادثٌ، فالإسماع لِمَن شاء ومتى شاء حادثٌ.

وقد نزل القرآن على رسول الله ﷺ نزول إعلامٍ وإفهامٍ، لا نزول حركةٍ وانتقالٍ؛ لأنَّ الصفة القديمة كالعِلْم والكلام لا تُفارق المَوصوف. وسيِّدنا جبريل وسيِّدنا موسى عند المَاتُرِيدِيِّ لم يسمع أحدٌ منهما كلام الله النَّفسيّ، وإنَّما سمِع صوتًا دالًّا على كلام

الله تعالى. أمَّا الأَشْعَرِيُّ فيرى أنَّ سيِّدَنا «مُوسَى» سمِع الكلام النَّفسيَّ مِن غير صوتٍ وحرفٍ، فكما يجوز رُؤْيَة ما ليس بجِسْمٍ، كذلك يمكن سماعُ ما ليس بصوتٍ بطريق خَرْق العادة.

هذا خلاصة المَبحث الكلامي، وباقي الكتاب أدلَّةٌ لِمَذهب أهل السُّنَّة على أنَّ القرآنَ كلامُ الله قديمٌ غيرُ مخلوقٍ، وأدِلَّةٌ على كون كلام الله القديم لا يتَّصف بالحروف والأصوات، وأدلَّةٌ لمذهب الحَنَابِلَة في إثبات الحرف والصَّوت في الكلام القديم والجواب عنه، وأدلَّةُ الجهميَّة والمُعْتَزِلَة والرَّد عليها، وختام الكتاب فيه ذِكْر مُلخَّص أحداث فتنة «الإمام أحمد بن حنبل».

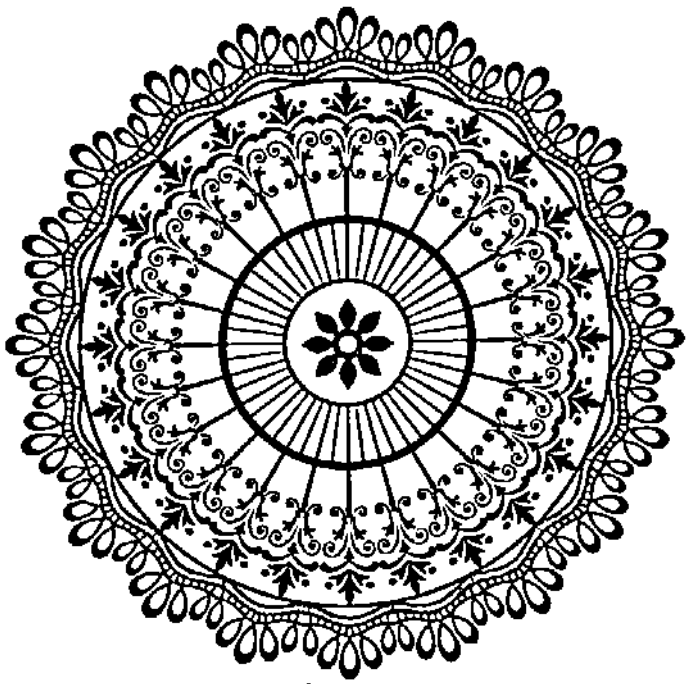

مقدمة المصنف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله الَّذِي تجلَّى لعباده في كلامه وجعل كلامَه علةَ الإيجاد لخلقه وأنامِه

وأبرزَها من ظُلْمة العدم وبِقُوَّة الكُمون إلى نور الوجود ومِنَصَّة الشُّهود بالكاف والنون

وأنزل لهم من نور ذاته قرآنًا عربيًّا غيرَ ذي عوج، وجعله مُعْجِزَةً باقيةً على ممر الدُّهور ساطعةَ البراهين والحُجَج، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا مُحمَّد النَّبيِّ الأُمِّيِّ المبعوث بالنُّور الأَبْلَج، الدَّاعي للأنام إلى الحقِّ الأَبْهج، والهادي لهم إلى الطَّريق الأَنْهَج، وعلى آله وأصحابه ومَن سلك سواء السبيل وانْتَهَج.

أمَّا بَعْدُ؛ فيقول العبد الضعيف **مُحمَّد إدريس الكَانْدَهْلَوِي، الصِّدِّيقي نسبًا، والحنفي مَذْهَبا، والأَشْعَرِي مشربًا**، كان الله له، وكان هو لله[1]، وجعل هَمَّه وهواه فيما يحبُّه ويرضاه، آمين.

إنَّ مسألة الكلام من أصول العقائد الدِّينيَّة، ومُهِمَّات المباحث الكلامية، فكم من

---

(١) عبارات (كان الله له، وكان هو لله) مما جرت عادة المصنف أن يبدأ بها أغلب كتبه، فبدأ بها في كتب: «منحة المغيث شرح ألفية العراقي في الحديث»، و«التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح»، و«تحفة القاري بحل مشكلات البخاري»، و«مقدمة البخاري»، و«تحفة الإخوان بشرح حديث شعب الإيمان، و«الكلام الموثوق في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق» وهو كتابنا هذا.

عالِمٍ فيها زلَّ؟ وكم من مُدَّعي العقل قد ضلَّ؟ وكم من قائمٍ بالحق قد طُلَّ؟ وبالجملة قد طَمَّ الخطب فيها وجَلَّ. وهي وإن كانت مكتوبةً في كتب المتقدِّمين، مزْبورةً في زُبُر المتأخِّرين، مشروحةً في شروح الشَّارحين، محفوظةً في صدور العالمين، مقروءةً على ألسنة المُتكَلِّمين، مسمورةً في أسمار المُحَدِّثينَ، مفسَّرةً في أسفار المفسِّرين، لكنِّي بحول الله وقوته وتأييده ومعونته أريد أن أُتحفَ الأحباب والأصحاب بلُبِّ اللُّباب، وزُبدةِ ما ذكره أولو الألباب في هذا الباب، وأُنقِّحَ ما ينبغي تنقيحُه، وأُوضِّحَ ما يجب توضيحُه، وأُحرِّرَ ما يليق أن يُحرَّر، وأَعرِضَه بترتيبٍ غريبٍ وأسلوبٍ مبتكرٍ، وأوقفَ البادِيَ والعاكفَ على المحصَّل المنخول وأَحسنِ المواقف، وأَشرحَ مقاصد أهل السُّنَّة، وما مضى عليه صدر هذه الأُمَّة؛ من الصحابة، والتابعين، والأئمة المجتهدين، رضي الله تعالى عنهم وعنَّا معهم أجمعين، وسمَّيتُه:

الكلام الموثوق
في
تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق

فأقول وبالله التَّوفيق، وبيده أزمَّة التَّحقيق، وهو الهادي إلى الحقِّ وسواء السَّبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قد أجمع جميعُ الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، على أَنَّه تعالى متكلِّمٌ، وتواترَ ذلك عنهم، فإنَّهم كانوا يقولون: إنَّ الله تعالى أمر بكذا، ونهى عن كذا، أو أخبر عن كذا، والكلُّ من أقسام الكلام. وقد اتَّفقوا على أنَّه سبحانه هو المِلك الحقُّ القاهر فوق عباده، وكلُّهم منسلكون في أوامره وزواجره، مقهورون تحت تصرُّفه وقهره، فيجب كونُه مُتكلِّمًا، والكلامُ صِفَةٌ له تعالى، وراءَ صِفَة العلم وصفةِ الإرادة كما لا يخفى. ولا خلاف بين أهل الملَّة في كونه تعالى متكلِّمًا، لكنهَّم اختلفوا في تحقيق معنى كلامِه وحدوثِه وقدمِه، وذلك لأنَّه رأوا ها هنا قياسين متعارضين في النَّتيجة:

أحدهما:

الصغرى إنَّ كلامَ الله صِفَةٌ له

الكبرى وكلُّ ما هو صِفَةٌ له فهو قديمٌ

النتيجة فكلام الله تعالى قديمٌ

وثانيهما:

الصغرى إنَّ كلام الله مُؤَلَّف من حروفٍ وأصواتٍ مُتَرَتِّبةٍ متعاقبةٍ في الوجود

الكبرى وكلُّ ما هو كذلك فهو حادثٌ

النتيجة فكلام الله حادثٌ

فهذان قياسان متعارضا النَّتيجة؛ لأنَّ المنافاة بين النَّتيجتين ظاهرةٌ، فافترق المسلمون إلى أربع فرقٍ، ومَنَع كلُّ طائفةٍ بعضَ المقدِّمات، واضطروا إلى القَدْح في أحد القياسين، ضرورةَ امتناع حقِّيَّة النَّقيضين.

فالحَنَابِلَة منعوا كبرى القياس الثَّاني، وهي: (أنَّ كل ما هو مُؤَلَّف من حروفٍ وأصواتٍ مترتبةٍ فهو حادثٌ)، وذهبوا إلى أنَّ كلامَه تعالى حروفٌ وأصواتٌ، وأنَّها قديمةٌ قائمةٌ بذاته تعالى، حتَّى قال بعضهم بقِدَم الجِلد والغُلاف.

قال المحقِّق الدَّواني[1]: (فما بالُهم لَم يقولوا بقِدَم الكاتِب والمُجَلِّد والغَلاَّف ـ أي صانع الغُلاف؟)[2]، فهؤلاء صحَّحوا القياس الأوَّل، ومنعوا كبرى القياس الثَّاني. ومُحصَّل قول الحَنَابِلَة أنَّ كلامه تعالى حروفٌ وأصواتٌ قديمةٌ قائمةٌ بذات الحقِّ سبحانه من الأزل، وأنَّ المسموعَ من أصواتِ القُرَّاء، والمرئيَّ من أَسْطُر الكِتَاب، نفسُ كلام الله تعالى.

والمُعْتَزِلَة منعوا صغرى القياس الأوَّل (وهي أنَّ كلام الله صِفَة له)، وذهبوا إلى أنَّ

---

(١) هو مولانا جلال الدين محمد بن أسعد الصديقي الدَّوانِي الكازروني الشافعي القاضي. تقدم في العلوم سيما العقليات، وأخذ عنه أهل تلك النواحي، وارتحلوا إليه من الروم وخراسان وما وراء النهر. من تصانيفه الكثيرة: «شرح هياكل النور» للسهروردي في الحكمة، و«الأربعون السلطانية في الأحكام الربانية»، و«شرح التهذيب» للتفتازاني في المنطق، و«شرح عقائد الإيمان» لعضد الدين الإيجي، و«تعليقة على الأنوار لعمل الأبرار» للأردبيلي في الفقه الشافعي، توفي سنة ٩٢٨هـ.

(٢) حواشي الكلنبوي والخلخالي والمرجاني على شرح الدواني على العقائد العضدية، ٢/ ٢٣١، مطبعة دار سعادت، ١٣١٦هـ.

كلامَه تعالى مُؤَلَّف من أصواتٍ وحروفٍ، وهو قائمٌ بغيره تعالى، وأنَّ معنى كونِه تعالى متكلِّمًا عندهم أنَّه خالقٌ الكلامَ في غيره، ومُوجِدٌ لتلك الحروفِ والأصواتِ في الجسم كاللَّوح المحفوظ، أو لجبريل، أو النَّبيِّ ﷺ، أو غيرهم كشجرة موسى عليه السلام. فهم منعوا أنَّ المُؤَلَّف من الحروف والأصوات صِفَةُ الله تعالى. والمُعْتَزِلَة لمَّا لم يمكنهم إنكارُ كلام الله أصلًا ورأسًا، اضطروا إلى إثبات كلامٍ حادثٍ قائمٍ بالغير، وقالوا: إنَّ كلامَه تعالى حروفٌ وأصواتٌ يخلُقها في غيره؛ كاللَّوح المحفوظ، أو جبريل، أو الرسول. وهو حادثٌ عندهم خلافًا للحنابلة.

وهذا الَّذِي قالته المُعْتَزِلَة لا ننكره نحن معاشرَ أهل السُّنَّة من الأَشَاعِرَة والمَاتُرِيدِيَّة، بل نقول به، ونُسَمِّيه كلامًا لفظيًّا، ونعترف بحدوثِهِ، وعدمِ قيامه بذاته تعالى، ولكنَّا نُثبت وراءَ ذلك، وهو المعنى القائمُ بالنَّفْسِ، ونقول: هو الكلام حقيقةً، وهو قديمٌ قائمٌ بذاته، والكلام اللَّفْظيُّ عبارةٌ عنه. وقد تختلف العباراتُ بالأزمنة والأمكنة والأقوام، ولا يختلف ذلك المعنى النَّفْسِي القائمُ بالنَّفْسِ باختلافات الدَّلالات والعبارات.

والكرَّاميَّة لمَّا رأوا أنَّ ما ذهب إليه المُعْتَزِلَة من كون كلامه تعالى صِفَة لغيره، وأنَّ معنى كونِه تعالى متكلِّمًا كونُه خالقًا للكلام في غيره مخالفٌ للعرف واللُّغة؛ فإنَّ المتكلِّمَ ـ على قاعدة اللُّغة في سائر المشتقَّات؛ كالمتحرِّك، والأسود ـ مَنْ قام به الكلام، لا مَنْ أوجده في غيره؛ لأنَّ معنى التَّكلُّمِ لغةً: هو الاتِّصافُ بالكلام، لا خلقُه وإيجادُه في غيره. فهؤلاء منعوا كبرى القياس الأوَّل، وذهبوا إلى أنَّ كلامَه تعالى صِفَة له، مُؤَلَّفةٌ من الحروف والأصوات، وسلَّموا أنَّها حادثةٌ، لكنَّهم زعموا أنَّها قائمةٌ بذاته تعالى لتجويزهم قيامَ الحوادث بذاته تعالى، ومنعوا أنَّ كلَّ ما هو

صِفَة له فهو قديمٌ؛ فقد قالوا بصحَّة القياس الثَّاني، وقدحوا في كبرى القياس الأوَّل؛ فالكرَّاميَّة وافقوا الحَنَابِلَة في أنَّ كلامَه تعالى صوتٌ وحرفٌ، ولكنْ سمُّوا ذلك قولا له، وسلَّموا أنَّه حادثٌ، وقالوا: إنَّه قائمٌ بذاته، لتجويزهم قيام الحوادث بذاته تعالى. وهذا باطلٌ؛ لأنَّ القديمَ لا يُتَصوَّر عليه تغيُّر.

وبالجملة يلزم على مَذْهَب الكرَّاميَّة كونُه تعالى مَحَلًّا للحوادث، وعلى مَذْهَب المُعْتَزِلَة إطلاقُ المشتقِّ بدون قيام مَبدأ الاشتقاق؛ لأنَّ الكلمات المُؤَلَّفة لم تَقُم به تعالى، وإن كان علمُه بها قائمًا بذاته تعالى، وعلى مَذْهَب الحَنَابِلَة الحَشْوِيَّة قِدَمُ الحروف والأصوات مع بَداهة تعاقُبها وتجدُّد ذاتها.

وأهلُ السُّنَّة من الأَشَاعِرَة والمَاتُرِيدِيَّة ذهبوا إلى صحَّة القياس الأوَّل، ومنعوا صغرى القياس الثَّاني، وهي: (أنَّ كلامَ الله مركَّبٌ من حروفٍ وأصواتٍ مترتِّبةٍ متعاقبةٍ في الوجود)، وقالوا: إنَّ كلامَه تعالى ليس من جنس الأصوات والحروف. بل قالوا: إنَّ كلامَه تعالى معنى واحدٌ بسيطٌ قائمٌ بذاته تعالى قديمٌ. فهم منعوا أنَّ كلامَه تعالى مُؤَلَّفٌ من الحروف والأصوات، بل قالوا: إنَّ كلام الله ليس بحرفٍ ولا صوتٍ ليس بعِبْريٍّ ولا عَرَبيٍّ، وإنَّما العِبْرِيُّ والعَرَبيُّ ممَّا هو دلالات على كلام الله تعالى. وأثبتوا الكلامَ النَّفْسِيَّ؛ أي كلامَ النَّفْسِ الَّذِي ليس بصوتٍ ولا حرفٍ، فإنَّ الإنسانَ يُسَمَّى متكلِّمًا باعتبارين: أحدهما: بالصَّوت وبحرفٍ الَّذِين يقالان على المعنى المراد. والآخر باعتبار كلام النَّفْسِ الَّذِي ليس بحرفٍ ولا صوتٍ، وهذا ممَّا لا سبيل إلى إنكاره كما سيأتي. فأهلُ السُّنَّة يُثبتون في حقِّ الله تعالى كلامَ النَّفْسِ الَّذِي ليس بحرفٍ ولا صوتٍ، قائمًا بذاته سبحانه، والمُعْتَزِلَة ينكرونه.

وتحقيقُ الخلاف بيننا وبين المُعْتَزِلَة يرجع إلى إثبات الكلام النَّفْسِي ونفيه،

وإلَّا فنحن لا نقول بقِدَم الألفاظ والحروف، وهم لا يقولون بحدوث الكلام النَّفْسِي.

وأوَّلَ القاضي عضُد الدِّين صاحبُ «المواقف»[1] قولَ «الإمام الأَشْعَرِيِّ»[2]: «إنَّ الكلامَ هو المعنى النَّفْسِيُّ»، بحَمْل المعنى على القائم بالغير، فيُقابل العينَ دُونَ المدلول، وذهب إلى أنَّ مَذْهَبَ «الأَشْعَرِيِّ» أنَّ الألفاظَ أيضًا قديمةٌ.

ولصاحب «المواقف» في ذلك مقالةٌ مفردةٌ، ومحصولُها كما قال «السَّيِّد السَّند» في «شرح المواقف»[3]: (إنَّ لفظ المعنى يُطْلَق تارةً على مدلول اللَّفظ، وأُخرى على

---

(١) هو قاضي القضاة أبو الفضل عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار بن أحمد الإيجي الشيرازي. ولد بـ «إيج» بعد سنة ٦٨٠هـ، كان إماما في المعقولات، عارفا بالأصلين والمعاني والبيان والنحو، مشاركا في الفقه. من مصنفاته: «المواقف» في علم الكلام، و«شرح مختصر ابن الحاجب» في أصول الفقه، و«الفوائد الغياثية» في المعاني والبيان، و«العقائد العضدية»، و«الرسالة العضدية» في علم الوضع، و«جواهر الكلام» مختصر المواقف، توفي سنة ٧٥٦هـ. وكتاب «المواقف» من أجل كتب علم الكلام، اعتني به الفضلاء من أهل العلم، فشرحه: السيد الشريف الجرجاني، وشمس الدين الكرماني، وسيف الدين الأبهري، وغيرهم الكثير.

(٢) هو الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، صاحب الكتب، والتصانيف في الرد على الملحدة، وغيرهم من المعتزلة، والرافضة، والجهمية، والخوارج، وسائر أصناف المبتدعة. ولد سنة ٢٦٠هـ وتوفي في حدود سنة ٣٣٠هـ.

(٣) هو السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي السيد الزين الحسيني الجرجاني الحنفي، ولد سنة ٧٤٠هـ، من كتبه: «شرح فرائض الحنفية السراجية»، و«شرح الوقاية»، و«شرح المواقف»، و«شرح المفتاح» للسكاكي، و«شرح التذكرة» للنصير الطوسي، و«حاشية على تفسير البيضاوي»، و«حاشية على التجريد» لنصير الدين الطوسي، و«حاشية على المطالع»، و«حاشية على شرح الشمسية»، و«حاشية على شرح طوالع الأنوار»، وغيرها الكثير، توفي سنة ٨١٦هـ. =

الأَمْر القائم بالغير. فالشَّيخ «الأَشْعَرِي» لمَّا قال: «الكلام هو المعنى النَّفْسِي» فَهِم مِنْه الأصحابُ أنَّ مرادَه مدلولُ اللفظ وحده، وهو القديم عنده، وأمَّا العبارات فإنَّما تُسمَّى كلامًا مجازًا لدلالتها على ما هو كلامٌ حقيقيٌّ؛ حتَّى صرَّحوا بأنَّ الألفاظَ حادثةٌ على مَذْهَبه أيضًا، لكنَّها ليست كلامَه حقيقةً. وهذا الَّذِي فهموه من كلام الشَّيخ له لوازمُ كثيرةٌ فاسدةٌ؛ كَعَدَم إكفار مَنْ أنكر كلاميَّةَ ما بين دفَّتي المُصْحَف، مع أنَّه عُلِم مِن الدِّين بالضَّرورة كونُه كلامَ الله حقيقةً، وكَعَدَم المعارضة والتَّحدِّي بكلام الله الحقيقيِّ، وكَعَدَم كون المقروءِ والمحفوظِ كلامَه حقيقةً، إلى غير ذلك ممَّا لا يخفى على المتفطِّن في الأحكام الدِّينيَّة. فوَجَبَ حَمْلُ كلام الشَّيخ على أنَّه أراد به المعنى الثَّاني، فيكون الكلام النَّفْسِي عنده شاملًا للفظ والمعنى جميعًا، قائمًا بذات الله تعالى، وهو مكتوبٌ في المصاحف، مقروءٌ بالأَلْسُن، محفوظٌ في الصُّدُور، وهو غيرُ الكتابةِ والقراءةِ والحفظِ الحادثةِ. وما يقال: إنَّ الحروف والألفاظ مترتِّبةٌ متعاقبةٌ؛ فجوابه أنَّ ذلك التَّرتيب إنَّما هو في التَّلَفُّظ بسبب عدم مساعدة الآلة، فالتلفظ حادثٌ، والأدلَّة الدَّالَّة على الحدوث يجب حَمْلها على حدوثه، دُونَ حدوث الملفوظ، جمعًا بين الأدلَّة، وهذا الَّذِي ذكرناه وإنْ كان مخالفًا لما عليه متأخِّرو أصحابنا، إلَّا أنَّه بعد التَّأمُّل تعرف حَقِّيَّته. تمَّ كلامه.

قال السَّيِّد السَّنَد: هذا المَحْمَل لكلام «الشَّيخ»[1] ممَّا اختاره «عبد الكريم

= والشريف الجرجاني حجة في علوم المعقولات كافة، وعلم الكلام، وعلوم اللغة والتفسير، وكانت بينه وبين السعد التفتازاني مباحثات ومناقشات في الساحات العلمية وفي بطون الكتب، ومنها مناظرة مشهورة في حضرة تيمور لنك، وشرحه على «المواقف» بديع ومعتمد.

(١) الشيخ إذا أطلق في كتب علم الكلام فالمقصود به الإمام أبو الحسن الأشعري.

الشَّهْرِسْتَانِيُّ»، في كتابه المُسَمَّى بـ«نهاية الإقدام»[1]، ولا شُبْهة في أنَّه أقرب إلى الأحكام الظَّاهريَّة المنسوبة إلى قواعد المِلَّة). كذا في «شرح المواقف» ج٨ ص١٠٣ طبع مصر[2].

واعتَرَض عليه بعضُ أهل العلم بأنَّ هذا الَّذِي قاله صاحب «المواقف» عينُ مَذْهَب الحَنَابِلَة، غيرَ أنَّه ضَمَّ إليه المعنى أيضًا، فلا يكون للأَشْعَرِيِّ مَذْهَبٌ غيرَ مَذْهَب الحَنَابِلَة. كذا في «نظم الفرائد» ص١٤ [3]، وبالجملة مُحَصَّلُ تأويلِ صاحب «المواقف» بحسب الظَّاهر إرجاعُ مَذْهَبِ «الأَشْعَرِي» إلى مَذْهَبِ الحَنَابِلَة.

والجواب: إنَّ هذا ليس بصحيحٍ؛ فإنَّ صاحب «المواقف» لا يقول بقِدَم النَّظْمِ المُؤَلَّفِ المقروءِ بالألسنة الكونيَّة، كما زعمت الحَنَابِلَة؛ فإنَّه بديهيُّ الاستحالة للقطع بأنَّه لا يمكن التَّلفُّظ بالسِّين من (بسم الله) إلَّا بعد التَّلفُّظ بالباء، والمتأخِّرُ حادثٌ. بل يقول بقِدَم اللَّفْظ القائم بذاته تعالى، وهو اللَّفظ النَّفْسِيُّ الغيبيُّ، وهو قائمٌ بذات الباري تعالى، وهو ليس بمُرَتَّب الأجزاء كالقائم بنفس الحافظ للقُرْآن، ليس فيها ترتُّبٌ في الوجود وتعاقبٌ فيه، حتَّى يكون وجودُ بعضها مشروطًا بانقضاء البعض، كما في

---

(١) هو أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني الأشعري. ولد سنة ٤٦٧هـ، كان إماما مبرزا فقيها، من كتبه: «نهاية الإقدام في علم الكلام»، و«الملل والنحل»، و«المناهج والبينات». توفي سنة ٥٤٨هـ. وكتاب «نهاية الإقدام في علم الكلام» قسمه الشهرستاني على عشرين قاعدة جمع فيها مسائل الكلام.

(٢) شرح المواقف للجرجاني مع حاشيتي السيالكوتي والفناري، ٨/ ١٠٣ ـ ١٠٤، مطبعة السعادة ـ مصر، ط١ على نفقة الحاج محمد أفندي التونسي، ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م.

(٣) نظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل التي وقع فيها الاختلاف بين المتريدية والأشعرية في العقائد مع ذكر أدلة الفريقين، للعلامة عبد الرحيم بن علي المشهور بشيخ زاده، المطبعة الأدبية ـ مصر، ط١، ١٣٠٧هـ. ورقم الصفحة المثبت في صلب الكتاب من تصحيحي؛ إذ الرقم في الأصل: ١٢٤، وهو خطأ.

القراءة، فإنَّه لا يمكننا أنْ نتلفَّظ ببعض الحروف ما لم نفرُغ من بعضها لعدم قدرة اللِّسان على التَّلفُّظ بجميع حروف القُرْآن دَفْعةً، بخلاف وجودها في ذات الباري؛ فإنَّ وجود جميعها هناك معًا لازمٌ لذاته، دائمٌ بدوامه، فلا يلزم حدوثُ شيءٍ منها، فاللَّفظ الغيبيُّ القائم بذات الله تعالى مقروءٌ قديمٌ لمعناه، واللَّفظ القائم بألسنتنا مقروءٌ حادثٌ، فالمقصود بنفي التَّرتيب في حقِّه تعالى نفيُ التَّرتيب الزَّماني الَّذِي يقتضي وجودَ بعض الحروف بعد انقضاء البعض، لا نفيَ التَّرتيب الوضعيِّ؛ إذ لا يتحقَّق الكلمة والكلام بدون التَّرتيب بين الحروف.

وقد ظهر بهذا الكلام أنَّ مَذْهَب «الأَشْعَرِي» ليس كمَذْهَب الحَنَابِلَة كما فُهِمَ وزُعِمَ، فإنَّ مرادَ «الأَشْعَرِي» بالمعنى النَّفْسِيِّ هو المعنى القائم بالله تعالى، الشَّامل للدَّال ومدلوله باعتبار وجودهما العلميِّ، كما نَصَّ عليه «أحمدُ»[1] في رَدِّه على «ابن أبي دؤاد»[2]. كما ذُكر في كتاب «السُّنَّة»[3] وغيره، فلا يكون للفظ الخارجيِّ دخلٌ

---

(١) هو الإمام أحمد بن حنبل، شهرته تغني عن تعريفه، ولد سنة ١٦١ وتوفي سنة ٢٤١.

(٢) هو القاضي أبو عبدالله أحمد بن أبي دؤاد الأيادي. اعتنق مذهب الجهمية، وحمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن، ولد سنة ١٦١هـ، وتوفي سنة ٢٤٠هـ.

(٣) هو كتاب السُّنَّة، ويُسَمَّى أيضًا: الرَّدَّ على الجهميَّة، منسوبٌ لعبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل، وقد اختلف أهل السُّنَّة في نسبة هذا الكتاب للمؤلِّف المذكور، ومَن أثبت النِّسبة يدَّعي أنَّ الكتاب تم تحريفه بعد المؤلِّف؛ وذلك لأنَّ في الكتاب إثبات التجسيم والكيفية والجهة والحد لله تعالى، وفي الكتاب نصوص صريحة في التشبيه والتجسيم، ففيه إثبات الصدر والذراعين لله تعالى، وإثبات الجلوس لله على عرش من ذهب، وأنه وضع رجليه على الكرسي، وأنه قرب داود ﷺ حتى مس بعضه وأخذ بقدمه، وأن الله كتب التوراة لموسى ﷺ بيده وهو مسند ظهره إلى الصخرة، وأن السماء ممتلئ بالله ﷻ، وأن أسباب الزلازل أن الله يبدي بعضه للأرض فتتزلزل، أن الله ينزل كل عشية ما بين المغرب والعصر ينظر لأعمال بني آدم، وأن الله لما=

أصلا في القِدَم.

ولذا قال العَلَّامَة الألوسيُّ[1]: (المراد به مجموع اللفظ النَّفْسِيِّ والمعنى، كما يقتضيه ظاهر التَّشبيه بالقائم بنفس الحافظ، ولا شكَّ أنَّه لا ترتُّبَ فيه، أي لا تعاقُب فيه في الوجود العلميِّ، وإنَّما يحصل في التَّلفُّظ الخارجيِّ لِضرورة عدم مساعدة الآلة، فالملفوظ بالتَّلفُّظ الخارجيِّ الَّذِي هو صورة حادثٌ، لا اللَّفظ النَّفْسِيُّ، وتُحْمَل الأدلَّة الَّتي تدلُّ على الحدوث على حدوث الملفوظ بالتَّلفُّظ الخارجيِّ، وعلى هذا لا ورود للاعتراض أصلًا)[2]. كذا في «روح المعاني» ص١٤ ج١.

وقال العَلَّامَة التَّفتازاني[3]: (هذا [أي كونُ اللفظ قائمًا بذاته تعالى] جيِّدٌ لمن

= تجلى للجبل بسط كفه ووضع إبهامه على خنصره، وغير ذلك من المنكرات. وتحسينا للظن من العلماء بابن الإمام أحمد حنبل ذهب بعضهم إلى أن الكتاب قد تم تحريفه في لاحق، أو أن الكتاب لا يثبت نسبته للمصنف، وفي الكتاب طعن شديد وفاحش في الإمام أبي حنيفة، ونسبة أقوال شنيعة للإمام أبي حنيفة لا تصح.

(١) هو السيد الشريف شهاب الدين أبو الفضل وأبو الثناء محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي، شيخ علماء العراق في عصره، نسبته إلى جزيرة آلوس في وسط نهر الفرات، ولد ببغداد، وتقلد الإفتاء فيها سنة ١٢٤٨هـ وعزل، فانقطع للعلم. ثم سافر إلى الموصل، فالآستانة، ومر بماردين وسيواس، وأكرمه السلطان عبد المجيد، وعاد إلى بغداد، وعكف على التأليف إلى أن توفي. له تصانيف كثيرة أشهرها تفسيره المعروف، ولد سنة ١٢١٧هـ وتوفي سنة ١٢٧٠هـ.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي، ١/ ١٤، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ط٢، بدون تاريخ.

(٣) هو العلامة الكبير سعد الملة والدين مسعود بن عمر التفتازاني، ولد سنة ٧١٢هـ، من تصانيفه: «شرح العقائد النسفية»، و«شرح الشمسية» في المنطق، و«شرح التصريف العزي»، و«المقاصد في أصول الدين» وشرحها، و«التلويح في أصول فقه الحنفية»، و«حاشية على شرح العضد=

يَتعقَّل لفظًا قائمًا بذاته تعالى، غيرَ مُؤَلَّفٍ من الحروف المنطوقة أو المخيَّلة، المشروطِ وجود بعض الحروف بانقضاء بعضها)[1].

والمعنى أنَّ هذا الكلامَ إنَّما يستقيم إذا تُصُوِّر تصوُّرًا صحيحًا لفظًا قائمًا بنفس الباري تعالى، غير مُرتَّب الأجزاء، ولا مُؤَلَّفٌ من حروفٍ منطوقةٍ أو مخيَّلةٍ أو منقوشةٍ، والفرق بأنَّ وجود الحروف على هذا الوجه في ذاته تعالى بالوجود العينيِّ، وفي نَفْس الحافظ بالوجود الظِّلِّيِّ الخياليِّ لا يضرُّنا؛ إذ الغرض مُجرَّدُ التَّصوير والتَّفهيم لا إثباتُه بطريق التَّمثيل، فيَبطل ما يُتوهَّم من أنَّها إذا لم يكن فيها ترتيبٌ، لا يبقى فرقٌ بين لَمَحَ ومَلَحَ ونظائرهما.

وما ذكر العَلَّامَةُ «التَّفتازانيُّ» من أنَّ قيام الحروف بذات الله تعالى ليس بمعقولٍ، وإن كانت غيرَ مُرتَّبةٍ، فإنَّ المرادَ أنَّ كيفيَّة قيامها به تعالى غيرُ معقولةٍ لنا، فلا كلامَ فيه، وأنَّ إراداته لا يُجَوِّزُ ذلك عقلا، ففيه كلامٌ؛ إذ لا دليلَ على استحالة قيام الحروف القُدُسيَّة القديمة بذاته تعالى، والله ﷻ أعلم.

قلت: وهكذا نُسِب إلى «الشَّهْرِسْتَانِيِّ» أنَّه قائل بقِدَم الحروف والألفاظ، وادَّعى أنَّه مَذْهَب السَّلَف. قلت: يظهر من كلامه في «نهاية الإقدام» ص٣١٣ أنه يقول بقِدَم الحروف القُدُسيَّة والكلمات الغيبيَّة الَّتي قامت بذات الحقِّ سبحانه، ولا يقول بقِدَم

= على مختصر ابن الحاجب»، و«حاشية الكشاف». انتهت إليه معرفة علوم البلاغة والمعقول بالمشرق بل بسائر الأمصار، لم يكن له نظير في معرفة هذه العلوم، مات سنة ٧٩٣هـ ولم يخلف بعده مثله.

(١) المجموعة السنية على شرح العقائد النسفية، رمضان بن محمد الحنفي، مصلح الدين بن محمد القسطلاني، أحمد بن موسى شمس الدين الخيالي، ص٣٢٢ـ٣٢٣، دار نور الصباح ـ تركيا، ط١، ٢٠١٢م.

الحروف والأصوات الَّتي قامت بألسنتنا، وصارت صفاتٌ لنا[1]. انظر من كتابه ص٣١٣ إلى ٣١٧، وانظر منه ص٣٢٤، وسيأتي الكلام عليه في تحقيق مَذْهَب الحَنَابِلَة.

قال المحقِّق الدَّوَّاني: (ولنا في تحقيق الكلام كلامٌ يتوقَّف على تمهيدِ مُقَدِّمَة، وهي أنَّ مبدأَ الكلام النَّفْسِيِّ فينا صِفَة نتمكَّن بها من نَظْم الكلمات وترتيبها على الوجه الَّذِي ينطبق على المقصود، وهذه الصِّفة ضد الخَرَس، وهي مبدأ الكلام النَّفْسِيِّ، وهي غير العلم، فإنَّها قد تتخلَّف عن العلم، فإنَّ كلام الغير معلومٌ لنا فقد تعلَّق به علمنا ولم تتعلَّق به تلك الصِّفة منَّا فليس كلامَنا، بل كلامُنا هو الكلمات الَّتي رتَّبناها في خيالنا لا غير، وما رتَّبه غيرها فهو كلام الغير. وإذا تمهَّد ذلك، فنقول:

كلام الله تعالى هو الكلمات الَّتي رتَّبها الله تعالى في علمه الأَزَلِيِّ بصِفَته الأَزَلِيَّة، الَّتي هي مبدأ تأليفها وترتيبها، وهذه الصِّفة قديمةٌ، وتلك الكلمات المُرَتَّبة أيضًا بحسب وجودِها العلميِّ أَزَلِيَّة أيضًا، بل الكلمات والكلام مطلقًا كسائر الممكنات أَزَلِيَّة بحسب وجودِها العلميِّ، وليس كلامُ الله إلَّا ما رتَّبه الله تعالى بنفسه وبذاته من غير واسطةٍ، وتلك الكلمات لا تعاقُبَ بينها في الوجود العلميِّ حتَّى يلزم حدوثُها، وإنَّما التَّعاقب بينها في الوجود الخارجيِّ، وهو بحسب هذا الوجود كلامٌ لفظيٌّ حادثٌ. ولكن يقال: إنَّه كلام الله من حيثُ انطباقُه عليه، كما يقال: إنَّ زيدًا الخارجيَّ هو زيدٌ المعلوم بعينه.

وهذا الوجه سالمٌ ممَّا يلزم المذاهبَ المنقولةَ، مثل ما يلزم على مَذْهَب المُعْتَزِلَة من كون كلام الله تعالى قائمًا بغيره، وذلك لأنَّ الكلمات المُترتِّبة في علمه تعالى قائمةٌ بذاته تعالى باعتبار وجودها العلميِّ. وعلى مَذْهَب الكرَّاميَّة من كونه تعالى مَحَلًّا للحوادث؛ لأنَّ تلك الكلمات الأَزَلِيَّة قديمةٌ لا حادثةٌ. وعلى مَذْهَب الحَنَابِلَة من قِدَم

---

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، ص: ٣١٣ ـ ٣١٧، مطبعة المثنى بغداد، بدون تاريخ.

الحروف والأصوات مع بداهة تعاقُبها وتجدُّدها، وذلك لما قلنا من أنَّه لا تعاقُب بين الكلمات المُترتِّبة في الوجود العلميِّ.

وعلى ما هو ظاهرُ كلام متقدِّمي الأَشَاعِرَة من أنَّ الألفاظَ والحروفَ ليست كلامَ الله تعالى بل معانيها، وذلك لما قلنا من كون كلام الله تعالى هو الكلمات المُترتِّبة في العلم الأَزَلِيّ، وأمَّا هذه الكلمات المُترتِّبة في الكلام اللَّفْظيِّ فهي دلالاتٌ على الكلمات المُترتِّبة في العلم الأَزَلِيّ وهي الكلام حقيقةً وأصالةً، وأمَّا اللَّفْظيّ فإنَّما يسمَّى كلامًا لدلالته على الكلام النَّفْسِيِّ.

ويُطْلَق القُرْآنُ على المعنيين بالاشتراك، فكما أنَّ إطلاقَ القُرْآن على الكلام النَّفْسِيِّ القائم بذاته تعالى حقيقيٌّ، كذلك إطلاق القُرْآن على اللَّفظ المُنزَّل على مُحمَّد ﷺ حقيقيٌّ.

وعلى ما أَوَّلَ به المُصَنِّف كلامَ الشَّيخ «الأَشْعَرِي» من أنَّ الأصوات مع كونها من الأعراض السَّيَّالة قائمةٌ بذاته تعالى من غير ترتيبٍ، والتَّرتيب فينا لقصور الآلة، فإنَّه يؤدي إلى سفسطةٍ ظاهرة، وذلك لما قلنا من كون قيام الكلمات الَّتي هي كلامُه النَّفْسِيُّ بحسب وجودها العلميِّ، ولا يلزم على ذلك ما رتَّبه المُصَنِّف [أي القاضي عضد الدِّين] على مُتقدِّمي الأَشَاعِرَة من المحذورات ـ الثلاثة المذكورة ـ فإنَّ المتحدَّى به حينئذٍ يكون كلامَ الله تعالى، وإنكار كون ما بين الدَّفَّتين كلامَ الله تعالى يكون كإنكار كون ما بين أوراق ديوان الحافظ كلامُ الحافظ، فيكون كفرًا في حقِّ القُرْآن؛ إذ ليس معنى كون هذا المكتوب كلام الله إلَّا أنَّه جُعل ذلك الكلامُ موجودًا بالوجود اللَّفْظيِّ.

فإنَّه حين جُعل كلام الله عبارة عن الكلمات الَّتي رتَّبها الله تعالى في العلم الأَزَلِيِّ يكون المُتحدَّى به كلامَ الله حقيقةً؛ لأنَّ هذه السُّور والآيات الَّتي تَحدَّى بها النَّبيُّ ﷺ

كلامُ الله تعالى حقيقةً، ضرورةَ كونها كلماتٍ مترتِّبةٍ في علمه الأَزَليِّ، وإن كانت حين التَّحدِّي موجودةً في الخارج، وكان التَّحدِّي وطلبُ المعارضة باعتبار هذا الوجود الَّذِي صارت بحسبه كلامًا لفظيًّا، بخلاف ما زَعَمه مُتقدِّمو الأَشَاعِرَة، فإنَّ المُتحدَّى به على زعمهم لا يكون كلامَ الله حقيقةً، بل يكونُ إطلاق الكلام عليه على سبيل المجاز لدلالته على الكلام الحقيقيِّ، وعلى ما قلنا يكون ما بين الدَّفَّتين كلامَ الله حقيقةً وقطعًا، فيكون إنكارُه كفرًا؛ لأنَّ إنكارَ كونِه كلامَ الله تعالى إنكارٌ بالحقيقة لكون الكلمات المُترتِّبة الموجودة في علمه تعالى كلامًا له تعالى، فإنَّه مُتَّحدٍ بها معها بالذَّات، إلَّا أنَّه جُعل موجودًا بالوجود اللَّفْظيِّ بعد كونه موجودًا بالوجود العلميِّ، وهذا الكلام لا يخرج عن كونه كلامًا له تعالى حقيقة)[1].

انتهى كلام «المحقِّق الدَّوَّاني» مع زياداتٍ وتشريحاتٍ مأخوذةٍ من حواشيه: «حاشية الكلنبوي»[2]، و«حاشية المرجاني»[3]، و«حاشية الخلخالي»[4] رَحِمَهُمُ اللهُ. انظر

---

(١) حواشي الكلنبوي والخلخالي والمرجاني على شرح الدواني على العقائد العضدية، ٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٥.

(٢) هو أبو الفتح إسماعيل بن مصطفي الكلنبوي الرومي الحنفي، ويعرف بشيخ زاده، من آثاره: «البرهان في علم الميزان»، و«حاشية على تهذيب المنطق»، و«الآداب في المناظرة»، و«حاشية على شرح جلال الدين الدواني على العقائد العضدية»، توفي سنة ١٢٠٥هـ.

(٣) هو شهاب الدين بن بهاء الدين بن سبحان بن عبد الكريم المرجاني القازاني الحنفي. فقيه حنفي من أهل قازان (في روسيا)، عالم مشارك في أنواع من العلوم. ولد في قرية يابنجي، ودرس ببخارى وسمرقند. من تصانيفه: «الحكمة البالغة الجنية في شرح عقائد الحنفية»، و«خزانة الحواشي لإزاحة الغواشي»، و«حاشية على التوضيح شرح التنقيح»، و«ناظورة الحق في فرضية العشاء إن لم يغب الشفق»، ولد سنة ١٢٣٣هـ، وتوفي سنة ١٣٠٦هـ.

(٤) هو حسين بن حسن الحسيني الخلخالي، عالم بالكلام والتفسير. نسبته إلى خلخال (مدينة =

ص٢٤١ إلى ص٢٤٥ من «حاشية الكلنبوي» على «شرح العقائد العَضُدِيَّة»[1] «للجلال الدَّوَّاني» رَحِمَهُ اللَّهُ.

والقُرْآن مُعْجِزَةٌ باعتبار هذا الوجود اللَّفْظيِّ، وباعتبار كونه نظمًا عربيًّا، لا باعتبار وجوده القُدُسيِّ الغيبيِّ المكنون في علمه الأَزَلِيِّ القديم القائم بذاته، فإنَّ القُرْآنَ في هذه المرتبة قديمٌ صِفَة لله ﷻ. ويُشترط في المُعْجِزَة أن يكون فعلَ الله تعالى أو ما يقوم مقامه؛ فإذا تنزَّل في مرتبة الألفاظ الحقيقيَّة صار مُعْجِزَةً؛ لأنَّ كونَه لفظًا عربيًّا مجعولٌ بنصِّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] فيكون مُعْجِزَةً بلا شبهة[2]. راجع «روح المعاني» ص١٤ ج١. فافهم ذلك واستقم.

والحاصل: إنَّ القُرْآنَ مُعْجِزَةٌ باعتبار هذه المرتبة الحادثة، لا باعتبار كونه صِفَة قائمةً بذاته تعالى؛ لأنَّ المُعْجِزَةَ إنَّما يكون أمرًا حادثًا لا أمرًا قديمًا؛ لأنَّ المُعْجِزَةَ مقرونةٌ بالتَّحدِّي والمعارضة، وهذا شأن الحادث لا القديم.

والتَّحقيق في هذا المقام ما ذكره عُمْدَة المُتأَخِّرين «العَلَّامَة الأَلُوسيُّ» في مُقَدِّمَة «تفسيره» ـ وهو تحقيقٌ عجيبٌ، وتدقيقٌ غريبٌ، بل هو غاية التَّحقيق ونهاية التَّدقيق ـ

= بأذربيجان)، من كتبه: «حاشية على شرح الدواني لتهذيب المنطق»، و(حاشية على شرح العضدية»، و«المفاتيح في حل المصابيح»، و«حاشية على تفسير البيضاوي»، توفي سنة ١٠١٤هـ.

(١) العقائد العضدية كتاب من تأليف العضد الإيجي، وهي: مختصرة مفيدة، قال الدواني عنها: إن العقائد العضدية لم تدع قاعدة من أصول العقائد الدينية إلا وأتت عليها، ولم تترك من أمهاتها، ومهمات مسألة إلا وقد صرحت بها، أو أومأت إليها. والعجيب أن العضد الإيجي قضى نحبه بعد تأليفها باثني عشر يوما، وأن شرحها آخر تآليف الجلال الدواني قبل وفاته.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١/ ١٤.

وخلاصته: إنَّ الكلامَ له معنيان: كلامٌ بمعنى مبدأ التَّكلُّم، وكلامٌ بمعنى المُتكلَّم به؛ وهو الحاصل بالمصدر، وذلك لأنَّ المُتكلِّم بالكلام الظَّاهريِّ لا بُدَّ أن يُزوِّره ويدبِّره في نفسه أولًا، وذلك التَّدبير منه صِفَة باطنيَّةٌ منافيةٌ للسُّكوت، وهي مبدأ التَّكلُّم، وأمَّا ما زَوَّر ودَبَّرَ في نفسه من كلماتٍ مُخَيَّلةٍ وألفاظٍ ذهنيَّةٍ ترتيبًا ذهنيًا على وجه لو برزت وظهرت لكانت عينَ الكلام اللَّفْظيِّ لمَن رتَّبها، فهذا الكلام المرتَّب المخيَّل في الذِّهن كلامٌ بمعنى المتكلَّم به. فكذلك الكلام في حقه سبحانه تعالى له معنيان:

الأوَّل: بمعنى مبدأ التَّكلُّم في حقه ﷻ، وهو صِفَة قديمةٌ منافيةٌ للآفة الباطنيَّة الَّتي هي بمنزلة الخَرَس في التَّكلُّم الإنسانيِّ، قائمةٌ بذاته تعالى، ليست من جنس الحروف والأصوات، منزَّهةٌ عن التَّقدُّم والتَّأخُّر والإعراب والبناء، وهذا ممَّا لا خلاف فيه.

والثَّاني: الكلام بمعنى المُتكلَّم به في حقِّه ﷻ، هي كلماتٌ غيبيَّةٌ، وحروفٌ قدسيَّةٌ، وهي ألفاظٌ حُكميَّةٌ مجرَّدةٌ عن المواد مطلقًا سواءٌ كانت خياليَّةً أو رُوحانيَّةً، مُرتَّبةٌ رتبَّها الله تعالى في علمه الأزَليِّ بصِفَته الأزَليَّة، الَّتي هي مبدأ تأليفها وترتيبها، كما أنَّ كلامَنا هو الكلمات الَّتي رتَّبناها في خيالنا وزَوَّرناها في أنفسنا. والقُرْآن كلام الله بهذا المعنى الثَّاني[1].

وفيه اختلف أهل الحقِّ والمُعْتَزِلَة، فقال أهل الحقِّ: القُرْآن كلام الله غيرُ مخلوقٍ. وقالت المُعْتَزِلَة: هو مخلوق. ولم يكن اختلافهم إلَّا في هذا المعنى الثَّاني دُونَ المعنى الأوَّل الَّذِي هو صِفَة قديمةٌ للباري تعالى؛ إذ لا يُعْقَل أن يجريَ الخلاف في الكلام بالمعنى الأوَّل، فإنَّه صِفَة بسيطةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذاته تعالى، فالقُرْآن المُنزَّل على الرَّسول ﷺ يُقال له كلام الله بهذا المعنى الثَّاني، أي بمعنى المُتكلَّم به.

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١/ ١١ ـ ١٢ بتصرف من المصنف.

والكلام بالمعنى الأوَّل أمرٌ واحدٌ بسيطٌ لا تعدُّد فيه، وهو ﷻ مُتكلِّمٌ بهذا المعنى من الأزل إلى الأبد، والكلام بالمعنى الثَّاني مُرتَّبٌ ومُركَّبٌ وموصوفٌ بالكثرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]. وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. ونحو ذلك، فهذه آياتٌ بيِّناتٌ، ونصوصٌ واضحاتٌ في الكثرة والتَّعدُّد، وكيف أن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢] مباينٌ لمعنى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. ومعنى «آية الكرسيِّ» ليس معنى «آية المداينة»، ومعنى «سورة الإخلاص» ليس معنى «سورة تَبَّتْ»[1]، كما في «شرح الفقه الأكبر» «للعلامة القاري»[2][3].

فدَلَّت الآيات على تعدُّد المعاني وعدم اتِّحادها، وفيها ناسخٌ ومنسوخٌ فكيف يتحدان؟ وهذه الكلمات المُرتَّبة قائمةٌ بذاته تعالى قديمةٌ غير مخلوقة، وبينها ترتيبٌ؛

---

(١) آية الكرسي مشهورة، أولها: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وآية المداينة هي أطول آية في القرآن، أولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وسورة الإخلاص مشهورة، وسورة «تَبَّتْ» هي سورة المسد.

(٢) منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر، للملا علي بن سلطان محمد القاري، ص١٠٥، ومعه التعليق الميسر على شرح الفقه الأكبر، للشيخ وهبي سليمان غاوجي، دار البشائر الإسلامية، ط١ ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

(٣) هو الملا نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي القاري، من فقهاء الحنفية، ومن صدور العلم في عصره. صنف كتبا كثيرة، منها: «تفسير القرآن»، و«الأثمار الجنية في أسماء الحنفية»، و«الفصول المهمة»، و«شرح مشكاة المصابيح»، و«شرح مشكلات الموطأ»، و«شرح الشفاء»، و«شرح الشمائل»، و«سيرة الشيخ عبد القادر الجيلاني» وغير ذلك الكثير، توفي سنة ١٠١٤هـ.

إذ لا تكون الحروف كلمةً بدون التَّرتيبِ الوضعيِّ والهيئةِ التَّأليفيَّةِ والصُّورةِ التَّركيبيَّةِ. والكلمات لا تكون كلامًا بدون التَّرتيب، والعقل قاصرٌ عن إدراكه، كالتَّرتيب في ذهن الحافظ، فالكلمات القائمةُ بذاته تعالى لا بُدَّ أن تكون مُترتِّبةً كما يليق بشأنه، غير التَّرتيب الزَّماني المستلزم للحدوث والإمكان، إذ لا زمان فيه ولا مكان، وهي كلماتٌ قدسيَّةٌ، وحروفٌ عُلُويَّةٌ، مجرَّدةٌ عن المادَّة وشوائب الحدوث، مترتِّبةٌ من غير تعاقبٍ في الوضع الغيبيِّ العلميِّ، إذ التَّعاقب يكون في الأشياء الزَّمانيَّة ولا زمان هناك، فتلك الكلمات المُترتِّبة في العلم أيضًا أزَليَّة، والتَّرتيب العلميُّ لا يستلزم التَّعاقب بينها حتَّى يلزم حدوثها، وإنَّما التَّعاقب بينها في الوجود الخارجيِّ لا في الوجود العلميِّ.

فهذه الكلمات الأزَليَّة ليست من جنس الحروف والأصوات، منزَّهةٌ عن الإعراب والبناء، وهي مترتِّبةٌ في علمه تعالى، لكن منزَّهةٌ عن التَّقدُّم والتَّأخُّر، فالكلمات القدسيَّة والحروف العُلُوية الَّتي خرجت من الحقِّ ﷻ وبدت منه هي قديمةٌ، وأنَّها قائمةٌ بذاته تعالى، وليس ببائنةٍ ومنفصلةٍ عنه، وصدورنا وألسنتا ومصاحفنا مجالٍ ومَرَايَا للكلمات الغيبيَّة والحروف القدسيَّة، تجلَّت فيها مثل تجلِّي المعاني في الكلمات والحروف والأصوات.

فلا يقال: إنَّ الحروف والأصوات مَحَالٌّ للمعاني والمعاني حالَّةٌ فيها، وإنَّما هي مجالٍ ومَرَايَا للمعاني ليست بينهما نسبة الحالِّيَّة والمحلِّيَّة، والظَّرفيَّة والمظروفيَّة، بل بينهما نسبةُ الظَّاهريَّة والمظهريَّة، والدَّالِّيَّة والمدلوليَّة، والمعاني مبرَّأةٌ من سمات الحروف والأصوات، ومنزَّهةٌ عن الصِّفَات اللَّازمة للألفاظ والكيفيَّات المختصَّة بها، ألا ترى أنَّ الحقَّ ﷻ يتجلَّى لهم يوم القيامة في صورٍ مختلفةٍ، ويأتيهم في ظلٍّ من الغمام، مع أنَّه منزَّهٌ عن الكيف والكيفيَّات والمكان والسَّمت والجهات؟ فكذلك لا

يبعد أن يتجلَّى كلام الله الأَزَلِيُّ المنزَّه عن شوائب الحدوث والأماكن في المجالي الصورية ومَرَايَا الأكوان.

وأنت إذا أمعنتَ النَّظر في قول أهل السُّنَّة: القُرْآن كلام الله ﷻ، غير مخلوق، وهو مقروءٌ بألسنتنا، مسموعٌ بآذاننا، محفوظٌ في صدورنا، مكتوبٌ في مصاحفنا، غيرٌ حالٍ في شيءٍ منها، رأيتَه قولا بالظَّاهر ودالًا على أنَّ تنزُّل القُرْآن القديم القائم بذات الله تعالى في الألسنة والصُّدور والمصاحف غيرُ قادح في قِدَمِه، لكونه غير حالٍّ في شيءٍ منها، مع كون كلٍّ منها قرآنًا حقيقةً شرعيَّةً بلا شبهة، وهذا عين الدَّليل على أنَّ تجلِّي القديم في مظهرٍ حادثٍ لا ينافي قِدَمَه، وليس من باب الحلول ولا التَّجسيم، فثبت بهذا الكلام أنَّ الكلام لكلا معنييه قديمٌ، والحدوثُ راجعٌ إلى المجالي والمَرَايَا، (ويجب احترامُها [كما قال الشَّيخ عزُّ الدِّين ابن عبد السَّلام[1]] لدلالتها على كلامه القديم، كما يجب احترام الكعبة والأنبياء والعلماء لانتسابهم إليه:

أمـرُّ علـى الدِّيـار ديـار ليلى ... أُقَبِّـل ذا الجـدار وذا الجـدارا

ومـا حُـبُّ الدِّيـار شَـغَفْنَ قلبـي ... ولكـن حُـبُّ مَـن سَـكَن الدِّيـارا

ولذا يُقبَّل الحجر الأسود، ويَحرُم على المُحْدِث أن يَمَسَّ المُصْحَف أسطرَه وحواشيَه الَّتي لا كتابات فيها)[2]. انظر «إيضاح الكلام» ص٤.

---

(١) هو سلطان العلماء أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، من أعيان فقهاء الشافعية، بلغ رتبة الاجتهاد. ولد سنة ٥٧٧هـ، من مصنفاته: «القواعد الكبرى» في أصول الفقه، و«الغاية في اختصار النهاية» في فروع الفقه الشافعي، و«شرح السول والأمل في علمي الأصول والجدل»، و«تفسير القرآن»، توفي سنة ٦٦٠هـ.

(٢) إيضاح الكلام فيما جرى للعز بن عبد السلام في مسألة الكلام، تأليف: محمد بن عبد العزيز=

وقال السَّيِّد عبد الغني النَّابلسي[1]: (كلام الله سبحانه منزهٌ عن الحروف والأصوات، والأصوات والكلمات الَّتي نزل بها جبريل على قلوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي كلامُ الله حقيقةً؛ لأنَّ كلامَ اللهِ القديمَ ظهر فيها وتَصوَّر بصُوَرها، من غير أنْ تتغيَّر عمَّا هو عليه في ذات الله تعالى، فمَنْ أنكرها أو شيئًا أو استهزأ على حرفٍ أو صوتٍ منها فهو كافرٌ بالله العظيم، وأنَّ كلام الله تعالى النَّازل بها والمُتصوَّر بصُوَرها منزَّهٌ عنها أزلًا وأبدًا)[2]. كذا في «رشحات شرح كفاية الغلام» ص١٤.

قال الشَّيخ الأكبر قَدَّسَ اللهُ سِرَّه[3]: (لا يضاف الحدوث إلى كلام الله، إلاَّ إذا كتبه الحادث أو تلاه، ولا يضاف القِدَم إلى كلام الحادث إلَّا إنْ سَمِعَه من الله تعالى)[4]. وأيضًا قال: (ويجب الإيمان بأنَّ القُرْآنَ كلامُ الرحمن مع قَطْع حروفه في اللسان، ونَظْم

= حكاية عن أبيه العز بن عبد السلام، طبع من نسخة الشيخ محمد زاهد الكوثري، ص٤، المكتبة الأزهرية للتراث، ط١، ٢٠٠٦م.

(١) هو الشيخ الإمام عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني بن إسمعيل بن أحمد بن إبراهيم النابلسي الحنفي الدمشقي النقشبندي القادري، صاحب المصنفات التي اشتهرت شرقًا وغربًا، وتداولها الناس عجمًا وعربًا، ولد سنة ١٠٥٠هـ، توفي سنة ١١٤٣هـ.

(٢) رشحات الأقلام شرح كفاية الغلام على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، تأليف: الشيخ عبد الغني النابلسي، ص١٤ ـ ١٥ بتصرف، مطبعة التقدم ـ مصر، ط١ ١٣٢٢هـ.

(٣) هو الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبدالله الطائي الحاتمي الأندلسي، والمعروف بابن العربي، صاحب التصنيفات في التصوف وغيره، ولد سنة ٥٦٠هـ، من تصانيفه: «الفتوحات المكية»، «فصوص الحكم». توفي سنة ٦٣٨هـ.

(٤) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، للشيخ عبد الوهاب الشعراني ١/ ١٧٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، بدون تاريخ.

حروفه، فيما رُقِم باليَراع والبَنان، فحدَثَت الألواح والأقلام، وما حَدَث الكلام)[1].

وقال العارف الشَّعْرَاني[2]: (مثالُ ظهور الوحي بالألفاظ، مثالُ ظهور جبريل في صورة دِحْيَة، فكما تبدلَّت صورتُه في أعين النَّاظرين ولم تتبدَّل حقيقته الَّتي هو عليها، فكذلك الكلام الأَزَليُّ. والأَمْر للأحدث يتمثَّل بلسان العربيِّ تارةً، وبلسان العِبْرِيِّ تارةً، وبلسان السُّرياني أُخرى، وهو في ذاته أمرٌ واحدٌ أزليٌّ)[3]. وقال: (وسمعت سيِّدي عليًّا الخوَّاص[4]، يقول: ما دام القُرْآن في القلب فلا حرف ولا صوت، فإذا نطق به القارئ نطق بصوتٍ وحرفٍ، وكذا إذا كتبه لا يكتبه إلا بصوتٍ وحرفٍ. وسمعته أيضًا يقول في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٣٩] فكما أنَّ الظمآنَ يحسِب السرابَ ماءً وليس هو بماءٍ، وكذلك حكم مَنْ يسمع كلام الله يحسِب كلامَه تعالى بصوتٍ وحرفٍ وليس هو في نفس الأَمْر بصوتٍ ولا حرفٍ. وكما أنَّ الظمآن إذا جاء السَّراب لم يجدْه ماءً كما كان يراه، كذلك

---

(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، للشيخ عبد الوهاب الشعراني ١/ ١٧٣.

(٢) هو الشيخ الإمام أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحَنَفي الشعراني، نشأ بساقية أبي شعرة وإليها نسبته: ولد سنة ٨٩٨هـ. له تصانيف، منها: «الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر»، و«لطائف المنن» يعرف بالمنن الكبرى، و«لواقح الأنوار في طبقات الأخيار» يعرف بطبقات الشعراني الكبرى، و«لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية»، توفي سنة ٩٧٣هـ.

(٣) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، للشيخ عبد الوهاب الشعراني ١/ ١٧٠.

(٤) هو الشيخ علي الخواص البرلسي، أحد العارفين بالله، وأستاذ الشيخ عبد الوهاب الشعراني الذي أكثر اعتماده في مؤلفاته على كلامه. كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك كان يتكلم على الكتاب والسنة وأحوال القوم، ومقاماتهم بكلام نفيس عال. أخذ التصوف عن الشيخ إبراهيم المتبولي والشيخ بركات الخياط، توفي سنة ٩٣٠هـ.

مَن سَمِعَ كلام الله بصوتٍ وحرفٍ إذا كُشف عنه الغطاء لم يجدْه بصوتٍ ولا حرفٍ كما سَمِعه)[1]. انتهى كلامُه مُلَخَّصًا، كذا في «اليواقيت والجواهر»[2] ص٩٥ ج١.

وحاصله كما أنَّ الظمآنَ يحسِب السَّراب ماءً وليس هو بماءٍ، كذلك يحسِب «جَهْم بن صفوان»[3] كلامَ الله متَّسمًا بسمات الحدوث والإمكان، وليس هو في نفس الأَمْر كذلك، وكما أنَّ الظمآنَ إذا جاء السَّراب لم يجدْه كما كان يحسِبه، كذلك مَن سَمِعَ كلامَ الله وَكُشِف عنه الغطاء لم يجدْه كما كان يظنُّه حادثًا، بل يجدْه منزَّهًا عن سمات الحدوث وشوائبه، ألَا ترى أنَّ القُرْآنَ إذا تلاه القارئ بلسانه فله نغماتٌ وألحانٌ، وإذا كان في قلبه فله شأنٌ، ولا يُقاس أحدُهما على الآخر؛ إذ قد جعل الله لكل موطنٍ حُكْمًا على حدةٍ، لم يُجْعَل لغيره، فهذان موطنان في المخلوق لم يَجُز قياس أحدهما على الآخر، فكيف يجوز قياس الحضرة الإلهيَّة المتعاليَّة عن الزَّمان والمكان على موطن الحدوث والإمكان؟

❁ ❁ ❁

---

(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، ١/ ١٧٢.

(٢) هذا الكتاب حاول فيه الشيخ الشعراني المطابقة بين عقائد أهل الكشف، وعقائد أهل الفكر، لم يسبقه إليه أحد، وشرح فيه عقائد الشيخ محي الدين بن عربي.

(٣) جهم بن صفوان أبو محرز الراسبي مولاهم السمرقندي، الكاتب، المتكلم، أس الضلالة، ورأس الجهمية. كان صاحب ذكاء وجدال. كان ينكر الصفات، وينزه الباري عنها بزعمه. وكان هو ومقاتل بن سليمان المفسر بخراسان طرفي نقيض، هذا يبالغ في النفي والتعطيل، ومقاتل يسرف في الإثبات والتجسيم. قتله أبو مسلم الخراساني سنة ١٢٨هـ.

[إطلاقات القرآن عند الفقهاء والمتكلمين]

اعلم أنَّ القُرْآن يُطْلَق عند الفقهاء والمُتَكَلِّمِين على:

[١] اللفظ المُنزَّل على النَّبيِّ ﷺ من أَوَّل الفاتحة إلى آخر سورة النَّاس؛ فإنَّ هذه الألفاظ كلَّها مظاهرٌ وصورٌ لتلك الكلمات الغَيبيَّة القُدْسيَّة لا عَيْنُها، كما زَعَمَت الحَشْوِيَّة.

[٢] وأيضًا يُطْلَق القُرْآنُ على النُّقوش المرقومة بين دفَّتي المُصْحَف، باعتبار أنَّ تلك النُّقوش دالَّةٌ على الصِّفة القديمة القائمة بذاته تعالى، لا أنَّها عَيْنُها كما هو ظاهرٌ، وهذه الإطلاقات كلُّها حقيقةٌ لا مجازٌ، وهذا النَّظْم المخصوص منزَّلٌ من الله تعالى ومُعْجِزٌ، بهاتين الصِّفتين أي الإنزال والإعجاز يتميَّز القُرْآن عن غيره.

بيان معنى ثالث للكلام

[٣] واعلم أنَّ للكلام معنىً ثالثًا وهو التَّكلُّم والتَّكليم بمعنى المُكَلِّميَّة، وإسماع الكلام لغيره، وهو حادثٌ؛ لأنَّه إلقاء الكلام إلى المخاطَب وإسمَاعُه، ومعلومٌ أنَّ تعلُّقَ الخطاب بالمكلَّف حادثٌ يحدُث بحدوثه، وينقطع بعدمه. كما في «المسامرة»: التَّكليم بمعنى إسماع الغير الكلام حادثٌ؛ لأنَّ حاصلَه عُروضُ إضافةٍ خاصَّةٍ للكلام بإسماعه مخصوصٌ بلا واسطة، ولا شكَّ بانقضاء هذه الإضافة بانقضاء الإسماع، فلا بُدَّ أنْ يكون حادثًا[1]. انظر ص٨١ من «المسامرة بشرح المسايرة».

والحاصل أنَّ كلامَه سبحانه قديمٌ، ولكنَّ إسماعَه وإظهارَه لمَنْ شاء مِنْ ملائكته ورُسُله متى شاء حادثٌ.

وَخلاصة الكَلام: إنَّ القُرْآنَ كلامُ الله ﷻ، وهو عبارةٌ عن كلماته النَّفْسِيَّة الغيبيَّة القُدْسيَّة أنزله الله ﷻ على جبريل، بمعنى أنَّه أبرزه في صور ألفاظ القُرْآن، كلماته مرتَّبةٌ على وَفْق ترتيبه في علمه القديم، كما نُبرز نحن كلامَنا النَّفْسِيَّ المرتَّب في ذهننا بكلامنا اللَّفْظيِّ، فالقُرْآن منزَّلٌ من الله ﷻ لا يجوز نسبته إلى جبريل، ولا إلى سيِّدنا مُحمَّد رسولِ الله ﷺ، فإنَّ القُرْآنَ كلامُ الله ﷻ، والله سبحانه هو المتكلِّم، وأمَّا جبريل وسيِّدنا مُحمَّد ﷺ فهو قاريه وتاليه، وحقيقة التِّلاوة والقراءة هي التَّلفُّظ بكلام الغير.

---

(١) المسامرة للكمال ابن أبي شريف في شرح المسايرة للكمال ابن الهمام في علم الكلام، ١/ ٨١، مع حاشية زين الدين قاسم قطلوبغا، مطبعة دار السعادة ـ مصر، ط٢، ١٣٤٧هـ.

قال العَلَّامَة الألوسيُّ: (ثمَّ تلك الكلمات الغيبيَّة المرتَّبة ترتُّبًا وضعيًّا أزليًّا يُقدَّر بينهما التَّعاقب فيما لا يزال، والقُرْآن كلام الله تعالى المنزَّل بهذا المعنى فهو كلمات غيبيَّةٌ مجرَّدةٌ عن المواد، مترتِّبةٌ في علمه أزلا، غيرُ متعاقبةٍ تحقيقًا، بل تقديرًا عند تلاوة الألسنة الكونيَّة الزَّمانيَّة. ومعنى تنزيلها إظهار صورها في المواد الرُّوحانيَّة والخياليَّة والحسِّيَّة من الألفاظ المسموعة والذِّهْنيَّة والمكتوبة، ومن هنا قال السُّنِّيُّون: القُرْآنُ كلام الله تعالى غيرُ مخلوقٍ وهو مكتوبٌ في المصاحف، محفوظٌ في الصدور، مقروءٌ بالألسنة، مسموعٌ بالآذان، غيرُ حالٍّ في شيءٍ منها، وهو في جميع هذه المراتب قرآنٌ حقيقةً شرعيَّةً، معلومٌ من الدِّين بالضَّرورة. فقولهم: (غير حال) إشارةٌ إلى مرتبته النَّفْسِيَّة الأَزَلِيَّة، فإنَّه من الشُّؤن الذَّاتية، ولم تفارق الذات، ولا تفارقها أبدًا، ولكنَّ الله تعالى أظهر صُوَرها في الخيال والحسِّ، فصارت كلماتٍ مُخيَّلةً، وملفوظةً مسموعةً، ومكتوبةً مرئيَّةً، فظهر في تلك المظاهر من غير حُلُول؛ إذ هو فرع الانفصال، وليس فليس، فالقُرْآن كلامُه تعالى غيرُ مخلوق، وإنْ تنزَّل في هذه المراتب الحادثة، ولم يَخرُج عن كونه منسوبًا إليه)[1]. «روح المعاني» ص١١ ج١.

❁ ❁ ❁

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١/ ١٢.

خلاصة الأقوال في مسألة الكلام

قال العَلَّامَة القاري: (اتَّفق المسلمون على إطلاق لفظ المُتكلِّم على الله تعالى لكنَّهم اختلفوا في معناه، فذهب أهل الحقِّ [أي أهل السُّنَّة] إلى أنَّ كلامَه تعالى معنىً قائمٌ بذاته، ليس بحرفٍ ولا صوتٍ، فيُعْقَل سماعُه إذن بخَرْق العادة كما قال «الغزالي»[1]. وذهب الباقون إلى أنَّه تعالى متكلِّمٌ بالحروف والأصوات، ثمَّ اختلف هؤلاء، فذهب الحَنَابِلَة منهم ـ على ما نُقِل عنهم ـ إلى أنَّها قديمةٌ قائمةٌ بذاته تعالى. وأمَّا السَّلَف فهم لا يقولون بذلك، بل يقولون: إنَّ الله ﷻ يتكلَّم بحرفٍ وصوتٍ يليقان به، ولا يُشبهان حرفَ العبد وصوتَه. وذهب المُعْتَزِلَة إلى أنَّها حادثةٌ قائمةٌ بغير ذاته. وذهب الكرَّاميَّة إلى أنَّها حادثةٌ قائمةٌ بذات الله تعالى.

ودليل أهل الحقِّ أنَّ الحرف والصَّوت مخلوقان، وكلام الله غير مخلوق؛ لامتناع قيام الحوادث بذاته تعالى؛ إذ هو من أمارات الحدوث. نعم، القُرْآن مقروءٌ بألسنتنا، محفوظٌ في صدورنا، مكتوبٌ في مصاحفنا، كما نقول: الله مذكورٌ بألسنتنا، معبودٌ في مساجدنا، مسجودٌ له في محاريبنا، غيرُ حالٍّ فينا ولا فيها)[2]. كذا في «ضوء المعالي على بدء الأمالي» ص٢٩. وهكذا روي عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه[3].

---

(١) هو حجة الإسلام زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي الشافعي، أشهر من أن يعرَّف، ولد سنة ٤٥٠هـ توفي سنة ٥٠٥هـ.

(٢) ضوء المعالي لبدء الأمالي، للملا علي القاري، ص٢٩، تحقيق: ماهر أديب حبوش، دار اللباب.

(٣) هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، ولد سنة ٨٠هـ توفي سنة ١٥٠هـ.

قال إمام الحرمين[1]: (كلام الله تعالى مكتوبٌ في المصاحف، محفوظٌ في الصُّدور، وليس حالًّا في مصحفٍ، ولا قائمًا بقلبٍ، والكتابة قد يُعبَّر بها عن حركات الكاتب، وقد يُعبَّر عن الحروف المرسومة والأسطر المرقومة، وكلُّها حوادثٌ، ومدلول الخطوط والمفهوم منها الكلام القديم. وهذا بمثابة إطلاق القول بأنَّ كلامَ الله تعالى مكتوبٌ في المصاحف، وليس المعنى بذلك اتصالَه بالأجسام، وقيامَه بالأجرام. ولم يَصِرْ أحدٌ من المنتمين إلى التَّحقيق إلى قيام الكلام بمَحَلِّ الأسطر إلَّا «الجبَّائيَّ»[2] فيما حكينا من هَذَيَانه. ويُؤْثَر عن «النَّجَّار»[3] أنَّ الرُّقوم هي أجسامُ كلام الله تعالى، والكلام أصواتٌ عند القراءة، وأجسامٌ عند الكتابة، وكل ذلك خَبَطٌ وتخليطٌ في بُغية الحق، وتفريطٌ في دَرْك الصِّدق)[4]. كذا في «الإرشاد» ص١٣٢.

---

(١) هو إمام الحرمين ضياء الدين أبو المعالي عبد الملك بن الشيخ أبي محمد عبدالله الجويني الشافعي، المجمع على إمامته، المتفق على غزارة مادته وتفننه في العلوم من الأصول من كتبه: «نهاية المطلب في دراية المذهب»، و«الشامل» في أصول الدين، و«البرهان» في أصول الفقه، و«تلخيص التقريب»، و«الإرشاد»، و«العقيدة النظامية»، و«غياث الأمم» في الإمامة، ولد ٤١٩هـ توفي ٤٧٨هـ.

(٢) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي، أحد أئمة المعتزلة؛ كان إماما في علم الكلام، ولد سنة ٢٣٥هـ توفي سنة ٣٠٣هـ. وابنه أبو هاشم من أئمة المعتزلة، ويعرف بالجبائي أيضا.

(٣) هو أبو عبدالله الحسين بن محمد بن عبدالله النجار الرازيّ، رأس الفرقة النجارية من المعتزلة، وهم يوافقون أهل السنة في مسألة القضاء والقدر واكتساب العباد وفي الوعد والوعيد وإمامة أبي بكر، ويوافقون المعتزلة في نفي الصفات وخلق القرآن وفي الرؤية. وهم ثلاث فرق: البرغوثية، والزعفرانية، والمستدركة. له كتب منها: «البدل» في الكلام، و«المخلوق»، و«إثبات الرسل»، و«الإرجاء»، و«القضاء والقدر»، و«الثواب والعقاب»، وغير ذلك، توفي سنة ٢٢٠هـ.

(٤) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، لإمام الحرمين، ص: ١٥٢ ـ ١٥٣، تحقيق:=

قال الإمام الغزالي: (وإن عُقِل كونُ السَّموات السَّبع والعرش والكرسيِّ والأرض، وكونُ الجنَّة والنَّار مكتوبة في ورقةٍ صغيرةٍ، ومحفوظة في مقدار ذرَّةٍ من القلب، وعُقِل كونُ ذلك مرئيًّا في مقدار عدسةٍ من الحدقة في عين الإنسان، من غير أن تَحُلَّ ذات السَّموات والأرض والعرش والكرسيِّ والجنَّة والنَّار في الحَدَقَة والورقة، فلْيُعقل كون الكلام مقروءًا بالألسنة الظَّاهرة، محفوظًا في القلوب الباطنة، مكتوبًا في المصاحف بالأحبار المتنوعة، من غير حلول ذات الكلام في تلك المصاحف قطعًا؛ إذ لو حلَّت بكتاب ذات الكلام فرضًا وتقديرًا لحلَّ ذات الله تعالى بكتابة اسمه في الورق، ولَحَلَّت ذات النَّار بكتابة اسمها في الأوراق ولاحترقت، ولكَانَ من نطق بـ«النَّار» احترق فمه)[1].

والجنَّة والنَّار مكتوبتان في المصاحف، ثمَّ أحد لا يتخيَّل أنَّهما مدرجتان فيها بالذَّات، وكذا النَّبيُّ ﷺ مكتوبٌ في التَّوراة والإنجيل لا على معنى أنَّه حالٌّ فيهما، ولكن فيهما دلالة عليه، وهو مكتوبٌ ﷺ بتلك الكتابة.

وقد أوضحه المُصَنِّف في «إلجام العوام» بوجهٍ آخرَ، فقال: (اعلم أنَّ لكلِّ شيءٍ في الوجود أربع مراتب: وجودٌ في الأعيان، ووجودٌ في الأذهان، ووجودٌ في اللسان، ووجودٌ في البياض المكتوب عليه. كالنَّار مثلًا فإنَّ لها وجودًا في التَّنُّور، ووجودًا في الخيال والذِّهن، وأعني بهذا الوجود العِلْم بصورة النَّار وحقيقتها، ولها وجودٌ في اللِّسان وهي كلمةٌ دالَّةٌ عليها أعني لفظ «النَّار»، ولها وجودٌ في البياض المكتوب عليه

= د. محمد يوسف موسى، وعلي عبد المنعم عبد الحميد، مطبعة السعادة ـ مصر، ١٣٦٩هـ ١٩٥٠م.

(١) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، ١/ ٤٠٠ ـ ٤٠١، دار المنهاج للنشر والتوزيع: جدة ـ السعودية، ط١، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

بالرُّقوم، والإحراق صِفَة خاصَّةٌ، فالنَّار الَّتي هي في التَّنُّور دُونَ الَّتي في الأذهان، وفي اللسان، وفي البياض، وإلَّا لاحترق الذِّهن واللِّسان والورق.

وكذلك القِدَم وصف كلام الله تعالى، وما يُطْلَق عليه القُرْآن له وجودٌ على أربع مراتب: أُولاها وهي الأصل وجودٌ قائمٌ بذات الله تعالى، والثَّانية وجود العِلْم في أذهاننا قبل أن ننطق بلساننا، ثمَّ وجوده في لساننا بتقطُّع أصواتنا، ثمَّ وجوده في الأوراق بالكتابة.

فإذا سُئلنا عمَّا في أذهاننا من علم القُرْآن قبل النُّطق به. قلنا: علمُنا صفتنا وهي مخلوقةٌ، لكن المعلوم به قديم.

فإذا سُئلنا عن صوتنا وحركة لساننا. قلنا: ذلك صِفَة لساننا، ولساننا حادثٌ، وصفةٌ تُوجَد بعده، وما هو بعد الحادث حادثٌ بالضَّرورة، ولكنَّ منطوقَنا ومذكورَنا ومقروءَنا ومَتْلُوَّنَا بهذه الأصوات الحادثة قديمٌ.

ثمَّ قال: فهذه أربع مراتب الوجود، فكما أنَّ ما يُرى في المرآة يُسمَّى إنسانًا بالحقيقة، لكن على معنى أنَّه صورةٌ محكيَّةٌ له، فكذا ما في اللسان من الكلمة يُسَمَّى باسمه، بمعنى أنَّه دلالةٌ على ما في الذِّهن، ومَهْمَا فُهِم اشتراك لفظ القُرْآن وكُلِّ شيءٍ بين هذه الأمور الأربعة، فإذا وَرَد في الخبر أنَّ القُرْآن في قلب العبد، وأنَّه في المُصْحَف، وأنَّه في لسان القارئ، وأنَّه صِفَةٌ في ذات الله تعالى، صدق بالجميع مع الإحاطة بحقيقة المراد)[1]. انتهى المقصود من كلامه، كذا في «الإتحاف شرح الإحياء» ص١٤٨ ج٢ [2].

---

(١) إلجام العوام عن علم الكلام، لأبي حامد الغزالي، ص١٤٢ ـ ١٤٦ باختصار وتصرف من المرتضى الزبيدي، ونقله المصنف كما هو، دار المنهاج، ط١ ١٤٣٩هـ ٢٠١٧م.

(٢) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، للشيخ المرتضى الزبيدي، ٢/ ١٤٨، المطبعة الميمنية ـ مصر، ١٣١١هـ.

فالكلام الحقيقيُّ الَّذِي هو الصِّفة الأَزَليَّة ليس قائمًا بلسانٍ أو قلبٍ، أو حالًّا في مصحفٍ أو لوحٍ، لكنَّه متجلٍّ في هذه المرايا والمظاهر، ولا يخفى على أهل العلم أنَّ الظُّهور والتَّجلِّي غير الحلول.

ذكر قول الإمام أبي حنيفة النُّعمان في مسألة القُرْآن

قال الإمام الأعظم ﷺ: (وصفاته تعالى كلُّها في الأزل بخلاف صفات المخلوقين، يَعْلَم لا كعلمنا، ويَقْدِر لا كقدرتنا، ويَرَى لا كرؤيتنا، ويَسْمَع لا كسمعنا، ويَتكلَّم لا ككلامنا، ونحن نتكلَّم بالآلات ـ أي بالحَلْق واللِّسان والشَّفَة والأسنان ـ والحروف ـ أي الأصوات المعتمدة على المخارج ـ والله يتكلَّم بلا آلةٍ، ولا حروفٍ، والحروف مخلوقةٌ، وكلام الله غير مخلوق)[1]. كذا في «شرح الفقه الأكبر» ص٣٠ «للعلاَّمة القاري»[2]، وكذا في «إشارات المرام» ص١٣٨[3].

وقال الإمام الأعظم في كتاب «الوصيَّة»: نُقِرُّ بأنَّ القُرْآنَ كلامُ الله تعالى ووَحْيُه وتنزيلُه وصفتُه، لا هو ولا غيره، بل هو صِفَةٌ على التَّحقيق، مكتوبٌ في المصاحف، مقروءٌ بالأَلْسُن، محفوظٌ في الصُّدور، غير حالٍّ فيها، والحروف والحركات والكَاغِذ والكتابة والقراءة[4] كلُّها مخلوقة؛ لأنَّها أفعال العباد، وكلام الله ﷻ غيرُ مخلوق؛ لأنَّ

---

(١) الفقه الأكبر، للإمام أبي حنيفة النعمان، ص٢٤ ـ ٢٥، مكتبة الفرقان ـ الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

(٢) منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر، ص١٠٧ ـ ١٠٩.

(٣) إشارات المرام من عبارات الإمام أبي حنيفة النعمان في أصول الدين، للقاضي كمال الدين البياضي، ص٩٨، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

(٤) هذه الزيادة مذكورة في «إشارات المرام» ص١٧٤. [المصنف]. الزيادة في ص١٣٢ في الطبعة التي بين يدينا.

الكتابة والحروف والكلمات كلُّها آلةُ القُرْآن لحاجة العباد إليها، وكلام الله تعالى قائمٌ بذاته، ومعناه مفهومٌ بهذه الأشياء، فمَنْ قال بأنَّ كلامَ الله تعالى مخلوقٌ فهو كافر بالله العظيم، والله معبودٌ، ولا يزال عمَّا كان، وكلامُه مقروءٌ ومكتوبٌ، ومحفوظٌ من غير مزايلةٍ عنه)[1]. انتهى، كذا في «شرح الفقه الأكبر» «للعلاَّمة القاري»، ص٢٥ [2].

تنبيه: اعلم أنَّ ما جاء في كلام «الإمام الأعظم» وغيره من علماء الأنام من تكفير القائل بخَلْقِ القُرْآن فمحمولٌ على كفران النِّعمة، لا كفر الخروج من الملَّة[3]. كذا في «شرح الفقه الأكبر» «للعلاَّمة القاري» ص٢٧. فهو كما قال «ابن عباس» في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]: (هم كَفَرة، وليسوا كمن كفر بالله واليوم الآخر)[4]. وحاصله أنَّ المراد به كفرٌ دُونَ كفرٌ.

وقال بحر العلوم[5] في «شرح مسلَّم الثبوت» ص٤ ج٢: (الكلام الإلهيُّ صِفَة واحدةٌ، قائمةٌ بذاته، تختلف تعيُّناتُه بالمَحالِّ، وهي في حدِّ ذاتها قديمةٌ، فإذا نزل على

---

(١) وصية الإمام أبي حنيفة النعمان، ص٤٠ ـ ٤٢، تحقيق: أبو معاذ محمد بن عبد الحي عوينة، دار ابن حزم ـ بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

(٢) منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر، ص٩٤ ـ ٩٥. إشارات المرام من عبارات الإمام، ص١٤٢.

(٣) منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر، ص١٠٠.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير الطبري، ١٠/ ٣٥٦، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

(٥) هو بحر العلوم أبو العياش محمد عبد العلي بن محمد نظام الدين السهالوي الأنصاري اللكنوي الهندي: عالم بالحكمة والمنطق. له كتب منها: «تنوير المنار» في الفقه، و«شرح سلم العلوم» في المنطق، و«فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت» للبهاري، في أصول الفقه. توفي سنة ١٢٢٥هـ.

لسان جبريل كساها تعيّناتٍ، بها صارت مترتِّبةً، فإذا قرأها جبريل غيرَ قارَّة فسمعها الرَّسول انحفظت في صدره كما سُمعت مترتِّبةً، لكنْ على صِفَة القرار، فالحقيقة واحدةٌ، وظهوراتها مختلفةٌ، فطورًا تظهر بكِسْوة، وأخرى بأخرى، وظهور شيءٍ واحدٍ بتعيّناتٍ شتَّى غير منكرٍ عقلًا ولا شرعًا، فالقُرْآن المقروء وإنْ صدر بلسان الرَّسول، لكن مَنْ قال: «لم يقله الله تعالى، وليس كلامُه» فهو كافرٌ ألبتة. وهذا الَّذِي رامه الإمام الهمام أعظم الأئمة، حيث قال في «الفقه الأكبر»: القُرْآن في المصاحف مكتوبٌ، وفي القلوب محفوظٌ، وعلى الألسن مقروءٌ، وعلى النَّبيِّ ﷺ مُنَزَّلٌ، لفظنا بالقُرْآن مخلوقٌ، وكتابتنا له وقراءتنا له مخلوقٌ، والقُرْآن غير مخلوقٍ. وأراد باللَّفظ التَّلفُّظ، وهو فعلنا مخلوقٌ ألبتةً، أراد به كِسْوة التَّعيُّن الَّذِي اكتساه القُرْآن على اللسان، وهو أيضًا مخلوقٌ ولا شكَّ فيه. واللام في قوله: «القُرْآن غير مخلوق» للعهد، أي القُرْآن الَّذِي صِفَته أنَّه مكتوبٌ ومحفوظٌ ومنزَّلٌ ومقروءٌ غير مخلوقٍ في حَدِّ نفسه، وإنْ كانت تعيّناتُه الَّتي في الكتابة والقراءة والحفظ والنُّزول مخلوقةً)[1].

ثم ذكر «بحرُ العلوم» ما قاله «الإمام أبو حنيفة» في كتاب «الوَصيَّة» ـ كما تقدَّم ـ وقال: (وما قال محقِّقو الحَنَابِلَة ونقلوه عن «الإمام أحمد بن حَنْبَل» ﷺ أنَّ القُرْآن الَّذِي هو غير مخلوقٍ هو هذه الألفاظ المقروءة، مرادهم ما ذكرنا، والَّذِين جاؤوا مِنْ بعدهم لم يتعمَّقوا في تحصيل معناه، ظنُّوا أنَّ هذه الحروف بهذا التَّرتيب قديمةٌ، حتَّى

---

(١) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، للإمام بحر العلوم عبد العلي محمد بن نظام الدين السهالوي اللكنوي، ٢/ ٧، تحقيق: عبدالله محمود محمد عمر، المكتبة العلمية ـ بيروت، ط١ ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.

توجَّه الطَّعن إليهم)[1]. كذا في «فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت» ص٤ ج٢. وسيأتي شرح قول «الإمام أحمد بن حَنْبَل» فانتظره.

❁ ❁ ❁

(١) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، ٢/ ٨.

حقيقة الكلام وحدُّه ومعناه

قال إمام الحرمين قَدَّسَ اللهُ سِرَّه: (اعلم أرشدك الله تعالى أنَّ المُعْتَزِلَة ومخالفي أهل الحقِّ قد تخبَّطوا في حقيقة الكلام، فقالوا: إنَّ الكلامَ حروفٌ منتظمةٌ وأصواتٌ متقطِّعةٌ دالَّةٌ على أغراضٍ صحيحةٍ. وقال أهل الحقِّ: الكلام هو القول القائم بالنَّفْسِ الَّذِي تدلُّ عليه العبارات تارةً، وما يصطلح عليه من الإشارات تارةً أو نحوها، كرُقُومٍ تُسمَّى الكتابة. وأنكرت المُعْتَزِلَة الكلامَ القائمَ بالنَّفْسِ، وزعموا أنَّ الكلامَ هو الأصوات المتقطِّعة، والحروف المنتظمة، ونفوا كلامًا قائمًا بالنَّفْسِ، سوى العبارات الآيلة إلى الحروف والأصوات، ومن الدَّليل على إثبات كلام النَّفْسِ أنَّ قول القائل: (افعل) قد يتضمَّن استحبابًا، وقد يتضمَّن إيجابًا، وقد يقتضي إباحةً، وقد يَرِد مَورِد النَّهي؛ فإذا دلَّ على إيجابٍ يستحيل أنْ يكون هو الإيجاب بنفسه، فإنَّ صورة اللفظ في إرادة الإيجاب كصورة اللفظ في إرادة الاستحباب؛ إذ هو أصواتٌ متقطِّعةٌ، والأصوات لا تختلف في انقسام جهات الاحتمالات على قطع، فليزم المصير إلى أنَّ الإيجاب معنىً في النَّفْسِ، ثمَّ تَعْتَوِرُ عليه الدَّلالات بالعبارات وغيرها من الأمارات، وإنْ رددنا إلى إطلاق أهل اللسان عرفنا قطعًا أنَّ العرب تُطْلِق كلامَ النَّفْسِ والقولَ الدائر في الخَلَد، وتقول: (كان في نفسي كلامٌ، وزوَّرت في نفسي قولا). واشتهار ذلك يغني عن الاستشهاد عليه بنثر لناثر، أو شعر لشاعر. وقد قال «الأخطل»[1]:

---

(١) شاعر معروف من فحول الشعراء في الدولة الأموية، وكان مختصًا بالخليفة عبد الملك بن مروان، ومات سنة ٩٠هـ في خلافة الوليد. [المصنف]. =

إنَّ الـــــكلامَ لفـي الفـــــؤاد جُعِـل اللِّسـان علـى الفـؤاد دليـلا[1]

= هو أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة، من بني تغلب، شاعر، مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. اشتهر في عهد بني أمية بالشام، وأكثر من مدح ملوكهم. وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير، والفرزدق، والأخطل. نشأ على المسيحية، في أطراف الحيرة بالعراق، وتهاجى مع جرير والفرزدق، فتناقل الرواة شعره. وكان معجبا بأدبه، تيّاها، كثير العناية بشعره، ينظم القصيدة ويسقط ثلثيها ثم يظهر مختارها. وكانت إقامته طورا في دمشق مقر الخلفاء من بني أمية. له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ٩٠هـ.

(١) كثر تشغيب المخالفين على ذكر بيت الأخطل في هذا المبحث الكلامي، ومن ضمن تشغيبهم الطعن في البيت من جهة كون الشاعر نصرانيا، وهل يستدل على مبحث كلامي بقول نصراني! وهنا نقول: لقد ذكر العلماء هذا البيت الشعري لا لإثبات الكلام النفسي، فهو مثبت بغير ذلك من الأدلة في القرآن والسنة، وهنا قال المؤلف: (واشتهار ذلك يغني عن الاستشهاد عليه بنثر لناثر، أو شعر لشاعر)، وإنما هو استطراد في الاستشهاد على أن العرب قد عرفت هذا المعنى للكلام في عصور الاحتجاج اللغوي.

وبيان ذلك أن العلماء يستشهدون على القواعد اللغوية بالقرآن والسنة والشعر والنثر، ولكل مصدر من ذلك تفصيل في الاحتجاج به. أما الشعر فقد قسم العلماء الشعراء إلى أربعة طبقات:

١ ـ طبقة الجاهليين: كزُهير وطرفة وامرئ القيس وعنترة والنابغة وغيرهم.

٢ ـ طبقة المخضرمين الذين شهِدوا الجاهلية والإسلام: كحسان ولَبيد والخنساء وكعب بن زهير.

٣ ـ طبقة الإسلاميين، وهم المتقدِّمون الذين كانوا في صدر الإسلام: كجَرير والفرزدق والأخطل.

٤ ـ طبقة المولَّدين، ويقال لهم المُحدَثون، وهم مَن بعدهم إلى زماننا: كبشَّار وأبي نُواس.

فالطبقتان الأُوليان يستشهد بشعرهما إجماعًا، وأما الثالثة فالصحيحُ صحةُ الاستشهاد بكلامها، ووقع في الرابعة خلاف. وحدد البعض أن عصور الاحتجاج تنتهي سنة ١٥٠هـ. والأخطل من أهل الطبقة الثالثة، بل هو من أقدمهم، فالأخطل متوفى سنة ٩٠هـ، وجرير والفرزدق توفيا سنة=

فإنْ قال المخالف: الألفاظ المفيدة يسمِّيها العقلاءُ كلامًا على الإطلاق، ويقولون: (سمعنا كلامًا) ومَرَامُهم ما أدركوه من العبارات. قلنا: الطَّريقة المرضيَّة عندنا أنَّ العبارات تُسمَّى كلامًا على الحقيقة، والكلام القائم بالنَّفْسِ كلامٌ، وفي الجمع بينهما ما يَدْرَأ تشغيب المخالفين، ومِنْ أصحابنا مَنْ قال: الكلام الحقيقي هو القائم بالنَّفْسِ، والعبارات تُسمَّى كلامًا تجوُّزًا، كما تُسمَّى علومًا تجوُّزًا؛ إذ قد يقول القائل: (سمعتُ علمًا، وأدركتُ علومًا) وإنَّما يريد إدراك العبارات الدَّالة على العلوم، ورُبَّ مَجازٍ يشتهر اشتهار الحقائق)[1]. كذا في «الإرشاد» ص١٠٢ إلى ص١٠٨ مُلَخَّصًا ومختصرًا.

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري: (الكلام كلُّه ليس مِنْ جنس الحروف، ولا مِنْ جنس الأصوات، بل الحروف والأصوات على وجهٍ مخصوصٍ دلالاتٌ على الكلام القائم بنفس المتكلِّم). وقال عبدالله بن سعيد[2]، وأبو العبَّاس القلانسي[3]

= ١١٠هـ. فالاحتجاج بشعر الأخطل لأنه من أهل طبقة الاحتجاج، دون النظر إلى دينه.
وفي القرآن والسنة الكثير من الأدلة والشواهد على إثبات الكلام النفسي، دون الحاجة إلى شعر الأخطل، ولهذا لو لم يوجد شعر الأخطل لكان عندنا القدر الكافي من الأدلة.

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ص١٢٢ ـ ١٢٨ بتصرف واختصار من المصنف.

(٢) هو أبو محمد عبدالله بن سعيد بن كُلاَّب القطان: يقال له: «ابن كُلاَّب». قيل: لقب بها لأنه كان يجتذب الناس الى معتقده إذا ناظر عليه كما مجتذب الكلاب الشيء. له كتب، منها: «الصفات»، و«خلق الأفعال»، و«الرد على المعتزلة»، توفي سنة ٢٤٥هـ.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن خالد القلانسي الرازي، من معاصري أبي الحسن الأشعري لا من تلامذته، وهو من جملة العلماء الكبار الأثبات، واعتقاده موافق لاعتقاده في الإثبات. وهو من متكلمي أهل السنة في القرن الثالث الهجري، لا يعرف تاريخ مولده ولا وفاته.

وأصحابهما مِنْ قدماء الأَشَاعِرَة: (إنَّ كلام المخلوق حروفٌ وأصواتٌ؛ لأنَّه تكون لها مخارج الحروف والأصوات، وكلام الله ليس بحروفٍ ولا أصواتٍ؛ لأنَّه غيرُ موصوفٍ بمخارج الحروف والأصوات. وإذا قرأ القارئ منَّا كلامَ الله فقراءتُه حرفٌ وصوتٌ، ومقروؤه ليس بحروفٍ ولا أصواتٍ، وهذا القول هو اختيار أكثر أهل الحديث)[1]. كذا في «الإتحاف شرح الإحياء» ص٣٠ ج٢.

وقال الإمام أبو بكر البَاقِلَّاني[2]: (يجب أنْ يُعلَم أنَّ الكلام الحقيقيَّ هو المعنى الموجود في النَّفْسِ، لكنْ جُعِل عليه أماراتٌ تدلُّ عليه، فتارةً تكون قولًا باللسان، وما اصطلحوا عليه، وجرى عرفهم به وجُعِل لغةً لهم. وقد بيَّن تعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤] فأخبر تعالى أنَّه أرسل «موسى» ﷺ إلى بني إسرائيل بلسانٍ عِبْرانيٍّ، فأفهم كلامَ الله القائم بالنَّفْسِ بالعِبْرانيَّة. وبعث «عيسى» ﷺ بلسانٍ سُرياني، فأفهم قومَه كلامَ الله القديم بلسانهم. وبعث نبيَّنا ﷺ بلسان العرب فأفهم قومَه كلامَ الله القديم القائم بالنَّفْسِ بكلامهم. فلغة العرب غير لغة العَبْرانيَّة ولغة السُّريانيَّة، وغيرهما. لكنَّ الكلام القديم القائم بالنَّفْسِ شيءٌ واحدٌ لا يختلف ولا يتغيَّر.

وقد يُدَلُّ على الكلام القائم بالنَّفْسِ الخطوطُ المصطلح عليها بين أهل كلِّ خطٍّ، فيقوم الخطُّ في الدَّلالة مقام النُّطق باللِّسان، وقد بيَّن تعالى ذلك فقال: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ

---

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، للشيخ المرتضى الزبيدي، ٢/ ٣٠.

(٢) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني البصري، ولد سنة ٣٣٨هـ، من كتبه: «تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل»، و«نقض المطاعن على سلف الأمة»، و«إعجاز القرآن»، و«أسرار الباطنية»، و«هداية المسترشدين» في الكلام، توفي سنة ٤٠٣هـ.

عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] فقام الخطُّ مقام النُّطق لمَّا كان دلَّ على الكلام دلالة النُّطق، لكنَّ الخطوط تختلف بحكم الاصطلاح والمواضعة، وقلَّة الحروف وكثرتها، فحروف العرب وخطوطهم تخالف غيرها، وكذلك حروف الهند وخطوطهم تخالف الجميع، وعند كلِّ قومٍ رَسْمٌ خاصٌّ للحروف والخطوط لا يُفْهِمُ غيرَهم إلا أنْ يتعلَّم لغتَهم وخطوطَهم.

فصحَّ أنَّ الكلامَ الحقيقيَّ هو المعنى القائمُ بالنَّفْسِ دُونَ غيره، وإنَّما الغير دليلٌ عليه بحكم التَّواضع والاصطلاح، ويجوز أن يُسمَّى كلامًا؛ إذ هو دليلٌ على الكلام، لا أنَّه نفس الكلام الحقيقيُّ.

وكذلك قد يُدَلُّ على الكلام الحقيقيِّ القائم بالنَّفْسِ الرُّموزُ والإشاراتُ، وقد بيَّن ذلك تعالى في قصَّة «زكريا» ﷺ: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] يعني أن لا تُفْهِم الكلامَ القائمَ بنفسك باللِّسان، وإنَّما تُفْهِمَه بالرَّمز والإشارة، فَفَعَل كما أمره تعالى، فأخبر عنه، فقال: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، فأفهم أمرَه وكلامَه القائمَ بنفسه بالإشارة دُونَ نُطْق اللِّسان.

وممَّا يَدَلُّ على أنَّ حقيقةَ الكلام المعنى القائمُ بالنَّفْسِ من: الكتاب، والسُّنَّة، والأثر، وكلام العرب، ما نذكر. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]. ونحن نعلَم وكلُّ عاقلٍ أنَّ الله تعالى ما كَذَّب المنافقين في ألفاظهم، وإنما كَذَّبهم فيما تَكُنُّه ضمائرُهم وسرائرُهم، وأيضًا قوله تعالى مُخْبِرًا عن الكفَّار: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [المجادلة: ٨] فأخبر تعالى أنَّ القولَ بالنَّفْسِ قائمٌ

وإنْ لم ينطِق به اللِّسان ـ فهذا كلامٌ باطنيٌّ ـ والقول هو الكلام، والكلام هو القول. وأيضًا قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] أي ما حَدَّث به المرء نفسَه. وأيضًا قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وأيضًا قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] فأسقط حكمَ الكُفْر عن المُكْرَه على كلمة الكُفْر، وجعل الحكمَ بصدق الكلام القائم في القلب. فدلَّت هذه الآياتُ أنَّ حقيقةَ الكلام هو المعنى القائمُ بالنَّفْسِ، وله الحكمُ في الصدق والكذب دُونَ الحروف والأصوات الَّتي هي أماراتٌ ودلالاتٌ على الكلام الحقيقيِّ، ويدُلُّ عليه من جهة السُّنَّة قوله ﷺ: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه. وهذا في حقِّ المنافقين فأخبر ﷺ أنَّ الكلامَ الحقيقيَّ هو الَّذِي في القلب دُونَ نطق اللِّسان، وأنَّ الحُكْمَ للكلام الَّذِي في القلب على الحقيقة، وأنَّ قولَ اللسان مجازٌ قد يوافق قولَ القلب وقد يخالفُه. وأيضًا قوله ﷺ: يقول الله ﷻ: إذا ذكرني عبدي في نفسه. فأثبت الذِّكر للنَّفس، فالذِّكر والقول والكلام واحدٌ، ويدُلُّ على ذلك أيضًا قولُ «عمر»: زوَّرتُ في نفسي كلامًا، فأتى أبو بكر فزاد عليه. فأثبت الكلامَ في النَّفْسِ من غير نطق لسانٍ، وعمرُ كان من أجلِّ أهل اللِّسان والفصاحة، وهو أحد الفُصَحاء السَّبعة، والعربيُّ الفصيح يقول: (كان في نفسي كلام، وكان في نفسي قول، وكان في نفسي حديث)، إلى غير ذلك. وأنشد «الأخطل»:

لا تُعجِبَنَّك مِن أثيرٍ خُطْبَةٍ ... حتَّى يكونُ مع الكلامِ أَصِيلا

إنَّ الكلامَ لفي الفؤاد وإنَّما ... جُعل اللِّسان على الفُؤادِ دَلِيلا[1]

انتهى كلام «البَاقِلَّاني»، مختصرًا من كتابه «الإنصاف» ص١٠٦ إلى ص١١٠.

---

(١) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للإمام القاضي أبي بكر الباقلاني، ص١٠١ ـ ١٠٥، المكتبة الأزهرية للتراث، ط٢، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

والحاصل أنَّ الكلامَ في الحقيقة هو كلامُ النَّفْسِ، وهو المعنى القائمُ بالنَّفْسِ، والحروف والأصوات دلالاتٌ عليه، ومعرِّفاتٌ له، وهذا هو المختار عند «الإمام الغزالي»، راجع «الإتحاف شرح الإحياء»[1]، ص١٤٥ ج٢.

❁ ❁ ❁

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، للشيخ المرتضى الزبيدي، ٢/ ١٤٥.

معنى إنزال كلام الله ﷻ

قال إمام الحرمين: (كلامُ الله منزَّلٌ على الأنبياء الكرام ﷺ، وقد دلَّ على ذلك آيٌ كثيرةٌ من كتاب الله، ثمَّ ليس المعنيُّ بالإنزال حطَّ شيءٍ من علوٍّ إلى سُفْلٍ، فإنَّ الإنزال بمعنى الانتقال يتخصَّص بالأجسام والأجرام، فالمعنيُّ بالإنزال أنَّ جبريل ﷺ أدرك كلامَ الله تعالى، وهو في مقامه فوقَ سبع سموات، ثمَّ نزل إلى الأرض، فأَفْهَمَ الرَّسولَ ﷺ ما فَهِمَه عند سِدْرَة المُنتهَى من غير نقلٍ لذات الكلام، وإذا قال القائل: (نَزَلت رسالة الملِك إلى القصر) لم يُرِدْ بذلك انتقالَ أصواته، أو انتقال كلامه القائم بنفسه)[1]. كذا في «الإرشاد» ص١٣٥.

وقال العَلَّامَة القاري: (معنى كونه منزَّلا عليه أنَّه نزل عليه بواسطة الحروف المفردات والمركَّبات في الحالات المختلفات، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢] أي مُحْدَثٌ في الإنزال، وإلَّا فكلامه الأَزَلِيّ منزَّهٌ عن الانتقال)[2]. كذا في «شرح الفقه الأكبر» ص٢٤.

وقال الإمام أبو بكر البَاقِلَّاني: (يجب أن يُعلَم أنَّ كلامَ الله تعالى منزَّلٌ على قلب النَّبيِّ ﷺ نُزولَ إعلامٍ وإفهامٍ، لا نزولَ حركةٍ وانتقالٍ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾

---

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ص١٥٥.

(٢) منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر، ص٩٢ ـ ٩٣.

[الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥] فالمراد به نزولُ إعلامٍ وإفهامٍ، لا نزولُ حركةٍ وانتقالِ كلام الله القديم القائم بذاته؛ لأنَّ الصِّفةَ القديمة كالعِلْم والكلام ونحو ذلك من صفات الذَّات لا يجوز أنْ تفارق الموصوف؛ لأنَّ الصِّفةَ إذا فارقت الموصوفَ اتَّصف بضدِّها، والله تعالى منزَّهٌ عن الصِّفة وضدِّها. فجاء من ذلك أنَّ جبريلَ ﷺ عَلِم كلامَ الله وفَهِمَه، وعَلَّمه الله النَّظْمَ العربيَّ الَّذِي هو قراءتُه، وعَلَّمَ هو القراءةَ نبيَّنا ﷺ، وعَلَّمَ النَّبيُّ ﷺ أصحابَه، ولم يزَل ينقُل الخلفُ عن السَّلَف ذلك إلى أنْ اتَّصل بنا، فَصِرْنَا نقرأُ بعد أنْ لم نكن نَقْرَأ، فالقراءة أغيارٌ؛ لأنَّ قراءةَ جبريل ﷺ غيرُ قراءة نبيِّنا ﷺ، وقراءةَ نبيِّنا ﷺ غيرُ قراءة أصحابِه، وقراءةَ أصحابه غيرُ قراءة مَنْ بَعْدُ. ثُمَّ كذلك هلمَّ جرًّا إلى يومنا، لكنِ المقروءُ والمتلوُّ هو كلام الله القديم الَّذِي ليس بمخلوقٍ، ولا يُشْبِه كلامَ الخَلْق، وهذا أمرٌ واضحٌ إن شاء الله تعالى)[1]. انتهى كلام «البَاقِلَّاني» مختصرًا، انظر ص٩٦ من كتابه «الإنصاف».

وقد أخرج «الطبراني»[2] مِنْ حديث النَّوَّاس بن سمعان[3] مرفوعًا: (إذا تكلَّم الله بالوحي أخذت السَّماءُ رجفةً شديدةً من خوفٍ، فإذا سَمِعَ بذلك أهل السَّماء صَعِقُوا وخرُّوا سُجَّدًا، فيكون أوَّلهم يرفع رأسه جبريل فيكلِّمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به على الملائكة، فكلَّما مرَّ بسماءٍ سأله أهلُها: ماذا قال ربُّنا؟ قال: الحَقَّ. فينتهي به حيث أمر)[4].

---

(١) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص٩٢ ـ ٩٤ باختصار من المصنف.

(٢) هو أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني. ولد سنة ٢٦٠هـ، من كتبه: «المعجم الصغير» و«المعجم الأوسط» و«المعجم الكبير»، و«دلائل النبوة». توفي سنة ٣٦٠هـ.

(٣) هو النواس بن سمعاني الكلابي، صاحب رسول الله ﷺ، توفي سنة ٥٠هـ.

(٤) مسند الشاميين، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ١/ ٣٣٦، حديث ٥٩١، تحقيق: =

وهذا المنظوم العربيُّ يُسمَّى كتابَ الله، ويُسمَّى القُرْآنَ، نظمه الله تعالى، وهو دالٌّ على كلام الله تعالى وعبارةٌ عنه، ولا يقال: إنَّه عين الكلام القائم بذاته، وإنَّما أسمعَ اللهُ كلامَه القديمَ جبريلَ الأمينَ بهذا النَّظْم العربيِّ. ويُطْلَق اسم الإنزال على كلامِ الله تعالى بإنزال هذا المنظوم الدَّالِّ عليه، فالظَّاهر أنَّ جبريلَ ﷺ أخذَ القُرْآنَ عن الله ﷻ سماعًا، وهو أنزله على النَّبيِّ ﷺ كما سَمِعَه من الله تعالى، ولا دَخْلَ لجبريل في إنشائه وترتيبه، بل الله ﷻ أنزل كلامَه القدسيَّ في لباس هذه الحروف الَّتي نقرؤها بألسنتنا، ونكتبها في مصاحفنا، وأنزله جبريل على النَّبيِّ ﷺ في كِسْوة النَّظْم العربيِّ كما سَمِعَه من الله ﷻ، ثمَّ قرأه النَّبيُّ ﷺ على الصَّحابة كما سَمِعَه من جبريل ﷺ. والحاصل أنَّ جبريل سَمِعَ كلام الله ﷻ كيف شاء الله تعالى، ثمَّ أنزله على نبيِّه ﷺ، وقيل: إنَّ الله ﷻ أظهر القُرْآن في اللَّوح المحفوظ كتابةً، فحفظه الملَك، وأدَّاه بأيِّ نوعٍ كان من الأداء. ولا يخفى أنَّ هذا القول مخالفٌ للظَّاهر المتبادر، ومخالفٌ للأحاديث الصَّحيحة الصَّريحة، وأظنُّه قولًا من القائلين بخَلْقِ القُرْآن، فتنبَّه لذلك واستقم.

وقال الشَّيخ أبو الشَّكور السَّالمي[1]: (إنَّ الله تعالى كَلَّم جبريلَ من غير صوتٍ ولا حرفٍ، ولكنْ أسمعَ جبريلَ بالصَّوت والحرف، فيكون هذا الصَّوت والحرف مخلوقًا وليس هذا محالا، لأنَّا نقرأ كلامَ الله تعالى، وقراءتُنا مع الحروف والأصوات

= حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م.

(١) هو أبو الشكور محمد بن عبد السيد بن شعيب الكشي السالمي الحنفي، لا يعرف عنه أكثر من ذلك، له كتاب: التمهيد في بيان التوحيد، وهو: مختصر في أصول المعرفة والتوحيد. ذكر فيه: أن القول في العقل كذا، وفي الروح كذا... إلى غير ذلك. فأورد: ما يجوز كشفه، من علم الكلام.

مخلوقةٌ، والمقروءُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ)[1]. كذا في «التمهيد» ص٩٤.

وكلَّم الله ﷻ موسى ﷺ بلا حرفٍ وصوتٍ، ولكنْ سَمِعَه موسى ﷺ بحرفٍ وصوتٍ دالٍّ على كلامه سبحانه، ألَا ترى أنَّ الحقَّ ﷻ مع كونه منزَّهًا عن المكان والجهة يرانا ونحن في جهةٍ ومكانٍ، ونحن نراه تعالى ـ إن شاء الله تعالى ـ في دار الكرامة، ونحن في جهةٍ وهو مقدس عن المكان والجهة، فكذلك هو سبحانه ينظُر إلينا ويكلِّمنا في دار القرار بلا حرفٍ وصوتٍ، ونحن نسمع كلامَه تعالى بحرفٍ وصوتٍ، فالحرف والصَّوت وسيلةٌ وذريعةُ سماعنا، لا آلةً لكلامه وتكليمه ﷻ.

(١) التمهيد في بيان التوحيد (تمهيد أبو شكور السالمي)، محمد بن عبد السيد بن شعيب السالمي الكبشي، ص٩٤، مطبعة الفاروق ـ دهلي ـ الهند، طبعة حجرية.

معنى سماع كلام الله تعالى

قال إمام الحرمين: (كلام الله تعالى مسموعٌ في إطلاق المسلمين، والشَّاهد لذلك من كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. ثمَّ السَّماع لفظةٌ محتملةٌ لا يَتَّجِدُ معناها، ولا ينفرد مقتضاها، فقد يُراد بها الإدراك، وقد يُراد بها الفهم والإحاطة، وقد يُراد بها الطَّاعة والانقياد، وقد يُراد بها الإجابة. فأمَّا السَّمْع بمعنى الإدراك فمشهورٌ لا خفاءَ، وأمَّا السَّمع بمعنى الفَهْم والعلم فشائعٌ مذكورٌ غيرُ منكورٍ، ووصَفَ الله المعاندين من الكَفَرة بكونهم صُمًّا، وليس المرادُ اختلالَ حواسِّهم، لكنَّ المرادَ إعراضُهم عن دَرْك المعاني، والإحاطةِ بما أُنذروا به، وتدبُّرِ آيات الله تعالى. وإذا حكى الحاكي كلامَ غيره على وجهه، فقد يقول السَّامع لأصوات مبلِّغٍ: (قد سمعت كلامَ فلان) وهو يعني الغائبَ الَّذِي أُنهي إليه معنى كلامه. والَّذِي يجب القطع به أنَّ المسموعَ المدرَكَ في وقتنا الأصواتُ، فإذا سُمِّيَ كلامُ الله مسموعًا فالمعنيُّ به كونُه مفهومًا معلومًا عن أصواتٍ مدركةٍ ومسموعةٍ، والشَّاهد لذلك من قضايا الشَّريعة إجماعُ الأُمَّة على أنَّ الرَّبَّ تعالى خصَّص موسى وغيرَه من المصطفين من الإنس والملائكة بأنْ أسمعهم كلامَه العزيزَ من غير واسطةٍ)[1]. كذا في «الإرشاد» ص١٣٣.

قال الإمام المَاتُرِيديُّ[2]: (إنَّما خُصَّ موسى ﷺ باسم الكليم؛ لأنَّ موسى ﷺ

---

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ص١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) كذا في «الإتحاف شرح الإحياء» ص١٤٥ ج٢، وانظر ص١٨١ من «إشارات المرام». =

سَمِعَ صوتًا دالًّا على كلام الله تعالى، على وجهٍ خارقٍ للعادة بغير واسطة الكِتَاب والمَلَك، لا أنَّه ليس فيه واسطة الحرف والصَّوت)[1].

ذكره «المَاتُريدي» بمعناه في كتاب «التأويلات»، واختاره الأستاذ «أبو إسحاق الإسفراييني»[2].

وجوَّز «الأَشْعَرِي» سماعَ الكلام النَّفْسِي بغير صوتٍ، وقاس «الأَشْعَرِي» سماعَ الكلام النَّفْسِيَّ الَّذِي ليس بصوتٍ ولا حرفٍ، على رؤية ما ليس بلون، فكما عُقِلَ رؤيةُ ما ليس بجسمٍ، فلْيُعْقَل سماع ما ليس بصوتٍ، وهو لا يكون إلَّا بطريق خرق العادة. كما نبَّه عليه القاضي «أبو بكر البَاقِلَّاني»[3].

والحقُّ أنَّه لا خلاف في الجواز والإمكان، وإنَّما الخلاف فيما وقع لسيِّدنا «موسى» ﷺ، فأنكر «المَاتُريدي» سماعَ الكلام النَّفْسِي، وعند «المَاتُريدي» إنَّما سَمِعَ «موسى» ﷺ صوتًا دالًّا على كلام الله تعالى. وعند «الأَشْعَرِي» أنَّه ﷺ سَمِعَ الكلامَ النَّفْسِي، كما

= [المصنف]. وفي النسخ التي بيدي: إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣١، ٢/ ١٤٥، إشارات المرام من عبارات الإمام، ص١٥١ ـ ١٥٢. والإمام الماتريدي هو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، نسبته إلى «ماترید» بلد بسمرقند، من كتبه: «التوحيد»، و«أوهام المعتزلة»، و«الرد على القرامطة»، و«مآخذ الشرائع» في أصول الفقه، و«الجدل»، و«تأويلات القرآن»، و«تأويلات أهل السنة»، و«شرح الفقه الأكبر المنسوب للإمام أبي حنيفة» توفي سنة ٣٣٣هـ.

(١) تأويلات أهل السنة، لمحمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، ٣/ ٤٢٠، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان، ط١ ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

(٢) هو ركن الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني، عالم بالفقه والأصول. من كتبه: «الجامع» في أصول الدين، و«رسالة في أصول الفقه». توفي سنة ٤١٨هـ.

(٣) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص١٢٩ ـ ١٣٠.

قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] والحملُ على الإسناد الحقيقيّ ممكنٌ، ولا مُوجِبَ للعدول عنه. ويؤيِّد المَاتُريديَّ (ظاهرُ قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [القصص: ٣٠] فإنَّ السَّمع مخصوصٌ بإدراك ما يكون صوتًا، وإدراكُ ما ليس صوتًا يختصُّ باسم الرؤية)[1]. كذا في «المسامرة بشرح المسايرة» ص٨٠.

تتمةٌ مشتملةٌ على فائدةٍ مهمَّةٍ: وأمَّا ما روي أنَّ السبعين الَّذين اختارهم «موسى» عليه السلام سمعوا كلامَ الله، وشهدوا بذلك، فلا يلزم منه أنَّ الله كلَّمهم، وأنَّهم سمعوا كلامه؛ لأنَّ الإنسان قد يسمع كلام من لا يكلِّمه، قاله الفاكهاني. كذا في «استحالة المَعيَّة بالذَّات» للشيخ الخضر الشَّنقيطي[2].

❁ ❁ ❁

(١) المسامرة في شرح المسايرة، ١/ ٨١.

(٢) استحالة المعية بالذات وما يضاهيها من متشابه الصفات، للشيخ محمد الخضر بن مايابي الجكني الشنقيطي المدني، ص٢٨٤، المطبعة المحمودية التجارية الكبرى ـ مصر.
والمؤلف هو الشيخ محمد الخضر بن عبدالله بن أحمد ابن مايابي الجكني الشنقيطي، مفتي المالكية بالمدينة المنورة. ولد وتفقه في شنقيط، وهاجر إلى المدينة، فتولى الإفتاء بها. من كتبه: «استحالة المعية بالذات»، و«مشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التيجاني»، توفي سنة ١٣٥٣هـ.

تفصيل المذاهب في مسألة الكلام

تحرير مَذْهَب المُتَكَلِّمِين

ذهب جمهور المُتَكَلِّمِين من الأَشَاعِرَة والمَاتُرِيدِيَّة إلى أنَّ القُرْآنَ كلامُ الله قديمٌ، صِفَة من صفاته، ليس بمخلوقٍ ولا حادثٍ، وأنَّ كلامَه القديمَ لا يَتَّصِف بالحروف والأصوات، ولا شيءٌ من صفات الخَلْق، وأنَّه تعالى لا يفتقر في كلامه إلى مخارجَ وأدواتٍ، وأنَّ كلامَه القديمَ لا يحُلُّ في شيءٍ من المخلوقات.

قال صدر الإسلام البزدويُّ[1]: (إنَّ القُرْآنَ كلامُ الله تعالى، وهو مكتوبٌ في مصاحفنا، محفوظٌ في قلوبنا، مسموعٌ بآذاننا، متلُوٌّ بألسنتنا، غيرُ حالٍّ في شيءٍ منها، بل هو قائمٌ بذات الباري ﷻ، وهكذا نقول في كلام العباد: إنَّه يُكْتَب في الكَاغِذ، ويُتْلَى باللسان، ويُحْفَظ بالقلب، ويُسْمَع بالآذان.

وكِتابةُ الكلام أن يُكتَب ما يكون دالًّا على الكلام، فيصير الكلام مكتوبًا بكتابته، فكذلك يكون كلامُ الله مكتوبًا بكتابة هذا المنظوم (العربيِّ) وهذا حقيقةٌ وليس بمجازٍ؛ لأنَّ كتابةَ الكلام لا يكون إلَّا هكذا، مع أنَّ الكلامَ قائمٌ بذات المتكلِّم لا ينفصل عنه.

---

(١) هو فخر الإسلام البزدوي أبو الحسن علي بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم الحنفي، ولد سنة ٤٠٠هـ. نسبته إلى «بزدة» قلعة بقرب مدينة «نسف». من كتبه: «المبسوط»، و«كنز الوصول» في أصول الفقه، يعرف بأصول البزدوي، و«تفسير القرآن»، و«غناء الفقهاء» في الفقه، توفي سنة ٤٨٢هـ.

فأمَّا الحِفْظُ فحِفْظُ الكلام أنْ يُحفَظ ما هو دالٌّ على الكلام وهو المنظوم، فيكون بحفظه حافظًا للكلام، فإنَّه يقال: حَفِظ فلانٌ كلامَ فلانٍ، إذا حفظ شِعْرَه الَّذِي نَظَمَه، فمَنْ حَفِظ هذا المنظومَ الَّذِي نَظَمَه الله يصير بحفظه حافظًا كلامَ الله تعالى، فهذا أيضًا حقيقةٌ وليس بمجازٍ، فإنَّ حِفْظَ الكلام ليس إلَّا هذا. وأمَّا التِّلاوة فتلاوة الكلام أيضًا بتلاوة ما هو دالٌّ على الكلام وهو المنظوم الَّذِي نَظَمه المُتكلِّم، فيصير بتلاوته تاليًا كلامَه، يقال: فلانٌ تلا كلامَ فلانٍ، وقرأ كلامه إذا قرأ منظومَه الدَّالَّ على كلامه، فمَن قرأ هذا المنظومَ الدَّالَّ على كلام الله تعالى يصير به تاليًا وقارئًا كلامَ الله، وهو حقيقةً أيضًا وليس بمجازٍ؛ لأنَّ تلاوةَ الكلام تكون هكذا.

وأمَّا السَّماع فسماعُ الكلام من غير المتكلِّم أيضًا سماعُ المنظوم الدالِّ على الكلام، فإنَّ مَن سَمِعَ شِعْر إنسانٍ وخُطْبَتَه من غير المتكلِّم يقال: (سمع كلام فلان من فلان)، فإذا سَمِعَ ما هو منظومُ الله تعالى؛ وهو القُرْآنُ الدالُّ على كلامه من قارئٍ وتالٍ، ويكون سامعًا كلام الله تعالى، وهذا حقيقةٌ وليس بمجازٍ، فإنَّه لا طريق لسماع الكلام من غير المتكلِّم إلَّا هذا.

وأمَّا «موسى» ﷺ سَمِعَ كلام الله بلا واسطةِ كلامِ متكلِّمٍ غيرِ الله تعالى من غيرِ أنْ يكون ثَمَّ صوتٌ وحرفٌ، بل الله أسمعَ كلامَه القائمَ به «موسى» ﷺ بلطيفِ صُنْعه وكمالِ قدرته كما بيَّنا، فسَمِعه «موسى» وفَهِمَه بلا واسطةِ كلامِ البشر، ونحن نسمع بواسطةِ كلامِ البشر، فيقع بيننا فرق)[1].

انتهى كلام «صدر الإسلام البزودي» مُلَخَّصًا ومختصرًا من كتابه «أصول الدين»

---

(١) أصول الدين، للإمام أبي اليسر محمد البزدوي، ص٧٠ـ ٧١، تحقيق: هانز بيتر لنس، تعليق: أحمد حجازي السقا، المكتبة الأزهرية للتراث، ط١، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

ص٦٣، وهو كلام نفيسٌ جدًا، وهو في الحقيقة شرح لقول «الإمام أبي حنيفة» رَحِمَهُ اللَّهُ المذكور في «الفقه الأكبر» و«كتاب الوصية». ومَنْ أراد البسط فليراجع «شرح الفقه الأكبر» «للعلَّامة القاري»، وكتاب «إشارات المرام من عبارات الإمام» «للعلَّامة البياضي»[1]، من أجلاَّء علماء الرُّوم في القرن الحادي عشر الهجري.

وقال العَلَّامَة الألوسيُّ: (ومعنى قول «الأَشْعَرِي» «أنَّ كلامَ الله القائم بذاته، يُسمَع عند تلاوة كل تالٍ، وقراءة كل قارئ» أنَّ المسموعَ أوَّلا وبالذَّات عند التِّلاوة إنَّما هو الكلامُ اللَّفْظيُّ الَّذِي حروفه عارضةٌ بصوت القارئ بلا شك، لكنَّ الكلمات اللَّفْظيَّة صورُ الكلمات الغيبيَّة القائمةِ بذات الحقِّ، فالكلام النَّفْسِيُّ مسموعٌ بعين سماع الكلام اللَّفْظيِّ؛ لأنَّه صورته، لا من حيثُ الكلماتُ الغيبيَّةُ فإنَّها لا تُسْمع إلَّا على طريق خرق العادة)[2]. كذا في «روح المعاني»، ص١٧ ج١. وقول «الإمام أبي حنيفة»: (غير حالٍّ فيها) إشارةٌ إلى أنَّ الحروفَ الملفوظةَ المسموعةَ صُورٌ للكلمات الغيبيَّة القدسيَّة القائمة بذات الحقِّ سبحانه، لا أنَّها محَلٌّ وظرفٌ لها؛ إذ لا يمكن حلولُ القديمِ في ذات الحديث.

❁ ❁ ❁

(١) هو القاضي أحمد بن حسن بن سنان الدين البياضي، بوسنوي الأصل. ولد في إستانبول سنة ١٠٤٤هـ وأخذ عن علمائها، من كتبه: «إشارات المرام من عبارات الإمام»، و«سوانح العلوم»، و«الفقه الأبسط»، وحواش وتعليقات، توفي سنة ١٠٩٨هـ.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١/ ١٨.

بيان أنَّ كلام الله القديم لا يتَّصف بالحروف والأصوات وإقامة الدَّليل على ذلك

قال الإمام أبو بكر البَاقِلَّاني: (يجب أنْ يُعْلَمَ أنَّ كلامَ الله القديم لا يتَّصف بالحروف والأصوات ولا شيءٍ من صفات الخَلْق، وأنَّه تعالى لا يفتقر في كلامه إلى مخارجَ وأدواتٍ، بل يتقدَّس عن جميع ذلك، وأنَّ كلامَه القديمَ لا يَحُلُّ في شيءٍ من المخلوقات، والدَّليل على أنَّ كلامَه تعالى لا يتَّصف بالحروف والأصوات:

١. إنَّ الحروف متناهيةٌ ومعدودةٌ ومحصورةٌ، والقديم لا يدخله الحصر والعَدُّ، لا مُفتتحَ لوجوده، ولا نهايةَ لدوامه، كعلمه وقدرته، وكلامُ الله قديمٌ لا يدخله الحَصْرُ والعَدُّ والحَدُّ، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

٢. وأيضًا إن حروف الكلمة يقع بعضها سابقًا لبعض، وكذلك الأصوات متعاقبةٌ يتقدَّم بعضها على بعضٍ، ويتأخَّر بعضها عن بعضٍ، ومختلفة الصُّور والأشكال، ويخالف بعضها بعضًا، وكلُّ ذلك صِفَة كلام الخَلْق، لا صِفَة كلام الحقِّ الَّذِي هو قديمٌ ليس بمخلوقٍ.

٣. وأيضًا فإنَّ القول بقدم الحروف والأصوات يُوجِب القِدَم لجميع كلام

الخَلْق، وأصوات النَّاطق والصامت. فإنَّ الحروفَ الَّتي يزعمون أنَّها قديمةٌ، وأنَّها صِفَة لكلامه تعالى، لا يخلو: إمَّا أنْ تكون هذه الحروف الَّتي تجري في كلام الخَلْق أو مثلها أو ضدَّها. فإنْ قالوا: (إنَّها هي) وجب قِدَم كلام الخَلْق، وكذلك إن قالوا: (مثلها) وجب ذلك أيضًا؛ لأنَّ حدَّ المِثْلَين ما سَدَّ أحدُهما مَسَدَّ الآخر، وناب مَنابَه، وساوقه من جميع الوجوه. وإنْ قالوا: (بل هي مضادة لهذه الحروف) فقد يقولون القول من غير أن يكون له معنىً، وهذا بيِّن التَّضاد. وإنْ قالوا: (إنَّ الأصوات والحروف إذا ذكرنا الله بها أو تلونا بها كلامه قديمةٌ، وإذا ذكرنا بها غيرَ الله وأنشدنا بها شعرًا كانت محدثةً) فهذا جهلٌ عظيمٌ، وتخبُّطٌ ظاهرٌ؛ لأنَّ الشَّيءَ عندهم على هذا القول تارةً يكون مُحْدَثًا، ثمَّ يكون قديمًا، وتارةً قديمًا ثمَّ يصير مُحْدَثًا، وليس في الجهل أعظم من هذا، وكفى به ردًّا لقولهم.

٤. وأيضًا يقال لهم: إذا كان الكلام القديم أصواتًا وحروفًا، والكلام المخلوق من الشِّعْر والخُطَب أيضًا أصواتًا وحروفًا، فقد شابه الكلامُ القديمُ الكلامَ المخلوقَ، وصار القديمُ مثلَ الحادث.

٥. وأيضًا يقال لهم: خَبِّرونا عن حروف كلام الله على زعمهم أهي ثمانية وعشرون حرفًا أو أكثر أو أقل؟ فإن قالوا: (هي ثمانية وعشرون) فقد جعلوا القديمَ ممَّا يَحُلُّه الحصر والعدُّ والافتتاح والانتهاء، وهي صِفَة المخلوق لا صِفَة القديم. وإن قالوا: (أكثر) قلنا: أكثر إلى ما له حد؟ أو إلى ما لا حد له؟ فأيُّ القولين قالوا كان باطلا؛ لأن القُرْآن لا يخرُج في الكتابة والتِّلاوة على أكثر من هذه الثمانية وعشرين حرفًا، فعلى قولهم يجب أن يكون معنا بعضُ القُرْآن لا كلُّه؛ لأنَّ القُرْآن عندهم حروفٌ تزيد على هذه الحروف، ولعلَّ الَّذِي يكون معنا من القُرْآن أقلُّه لا سيَّما إنْ قالوا: إنَّ الحروف

القديمةَ لا يدخلها حصرٌ ولا عَدٌّ. وهذا قول ساقطٌ واهٍ عند كل عاقلٍ مُحَصِّلٍ، فلم يَبْقَ إلَّا أنَّ الحروف والأصوات أدواتٌ نكتب بها ونتلو بها الكلام القديم وغيرَ الكلام القديم، لا أنَّها نفس الكلام القديم، فافهم ذلك.

٦. ويدلُّ على أنَّ كلام الله القديم لا يجوز أنْ يكون حروفًا وأصواتًا، ما رُوِيَ عن «ابن عبَّاس» أنَّه قال: لما سلَّط الله بختنصر على اليهود، لمَّا قتلوا «يحيى» ﷺ، سلَّطه عليهم فقتلهم، وخرَّب بيت المقدس، وحَرَقَ التَّوراة، قال «عُزَير» ﷺ في جملة مناجاته: يا رب، سلَّطت عليهم عدوًّا من أعداءك، بَطَر رحمتك، وأَمَن مكرك، وهدم بيتك، وحرق كتابك. فأوحى الله تعالى إليه من جملة ما أوحى: إنَّ «بختنصر» إنَّما أحرق من التوراة الخطَّ والحروفَ والورقَ والدَّفترَ، ولم يحرق كلامي. فأخبر تعالى أنَّ كلامَه ليس هو الحروف الَّتي حُرِقَت، ولا أنَّه ممَّا تناله الأيدي، ولا تعتديه ولا يَبْلَى ولا يَنْعَدِم.

٧. ويؤكِّد هذا: قولُ النبي ﷺ: لو جُعِل هذا القُرْآن في إهابٍ وأُلقِيَ في النَّار لم يحترق. ولم يُرِدْ ﷺ أنَّ الجِلْدَ والمِدادَ والحروفَ المُصوَّرةَ لا تحترق، وإنَّما أراد أنَّ كلامَ الله هو القُرْآن لا يحترق بالنَّار، ولا يُتصَوَّر عليه الحرق والعدم، وإنَّما يُتَصَوَّر ذلك على الأجسام والأشكال، فأمَّا الكلام القديم فلا)[1].

هذا خلاصة كلام «الإمام البَاقِلَّاني»، ومَنْ رغب إلى الأصل فليراجع كتاب «الإنصاف» له رحمة الله عليه.

قال الإمام القُرْطُبيُّ[2]: (قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وفي فعل «عثمان» ﷺ

---

(١) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص٩٤ ـ ٩٨، ١١٢ ـ ١٣٣. بتلخيص.

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي.=

[أي في أمر «عثمان» ﷺ بتحريق المصاحف وتخريقها] ردٌّ على الحُلوليَّة والحَشْوِيَّة القائلين بقِدَم الحروف والأصوات؛ لأنَّ القديم لا تتعلَّق به قدرة قادر، فيقال لهم: ما تقولون في كلام الله القديم أيجوز أن يُذَابَ أو يُحْرَقَ أو يُمْحَى؟!)[1]. راجع «تفسير القرطبي» ص٥٥ ج١.

وَالحَاصِلُ: إنَّ كلام الله سبحانه عند جمهور المُتَكَلِّمِين وكافَّة الأَوَّلياء والعارفين، صِفَة من صفاته، قديمٌ غيرُ مخلوق، وليس من جنس الحروف والأصوات، وإنَّما هذه الحروف والكلمات دلالاتُ القُرْآن، أي الكلام النَّفْسِيُّ القائم بذاته ﷻ لحاجة العباد إليها في التَّبليغ وفَهْم معناه؛ لأنَّ معنى كلام الله إنَّما يُفْهم بها، وحقيقة الكلام هو المعنى القائم بالنَّفْسِ.

قال الحافظ القُطْبُ القَسْطَلَانِيُّ[2]: (العَجَب ممَّن ينتمي إلى أهل السُّنَّة ويتعرَّض للاقتداء بالسَّلَف الصالح منهم ويعتمد على ما ورد في الكتاب والسُّنَّة، كيف يخالف

= من كتبه: «الجامع لأحكام القرآن»، و«قمع الحرص بالزهد والقناعة»، و«الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»، و«التذكار في أفضل الأذكار»، و«التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»، و«التقريب لكتاب التمهيد»، توفي سنة ٦٧١هـ.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، ١/ ٥٥، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية ـ القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

(٢) هو الإمام قطب الدين أبو بكر محمد بن أبي العباس أحمد القيسي الشاطبي المعروف بابن القسطلاني، ولد سنة ٦١٤هـ، وتوفي سنة ٦٨٦هـ. والقسطلاني نسبة إلى قسطلينة بضم القاف وتخفيف اللام، وبعضهم ضبطه بفتح وشد اللام من إقليم إفريقيا بالمغرب. وقطب الدين القسطلاني هو غير المحدث المشهور شهاب الدين القسطلاني، ولم أقف على الكتاب الذي ذكره المصنف.

قولُه قولهم، وينتهي إلى ما لم يرد عن سادة المقتدى بهم مِن الخوض في كيفيَّة الكلام، فيزيد فيه بحرفٍ وصوتٍ ولم يَرِدْ ذلك في كتابٍ ولا سُنَّةٍ، ويَستدلُّ على إثبات المقطوع به بالمظنون مِن الأحاديث المتضادَّة المتون). انتهى. كذا في «حاشية كتاب الأسماء والصِّفَات» ص٢٠٢ [1].

(١) لم أقف على هذا الكتاب.

كلمة للإمام البَيْهَقِيّ في حَقيقة الكلام

قال الإمام البَيْهَقِيُّ[1]: (الكلام ما يَنطق به المُتكلِّم، وهو مستقِرٌّ في نفسه، كما جاء في حديث «عمر» ـ يعني في قصَّة السَّقيفة ـ: (وكنت زوَّرتُ في نفسي مقالةً). وفي رواية: (هيَّأت في نفسي كلامًا). فسمّاه كلامًا قبل التَّكلُّم به، وسمَّاه مقالةً قبل التَّلفُّظ به. ثمَّ إنْ كان المتكلِّم ذا مخارجَ سُمِعَ كلامُه ذا حروفٍ وأصواتٍ، وإنْ كان المتكلِّم غيرَ ذي مخارج سُمِعَ كلامُه غيرَ ذي حروفٍ وأصواتٍ. والباري جل ثناؤه ليس بذي مخارجَ، وكلامه ليس بحرفٍ وصوتٍ، فإذا فَهِمْناه ثمَّ تلوناه، تلوناه بحروفٍ وأصواتٍ)[2]. انتهى كلام «البَيْهَقِيّ» في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص٢٧٢. وقد نقل «الحافظ العَسْقَلَانِي»[3]

---

(١) هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، ولد سنة ٣٨٤هـ، من كتبه: «السنن الكبرى»، و«السنن الصغرى»، و«المعارف»، و«الأسماء والصفات»، و«دلائل النبوة»، و«الجامع المصنف في شعب الإيمان»، و«معرفة السنن والآثار»، و«البعث والنشور»، توفي سنة ٤٥٨هـ.

(٢) الأسماء والصفات، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ص٢٦٢، تقديم وتعليق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، بدون تاريخ.

(٣) هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن حجر الكناني العسقلاني، ولد سنة ٧٧٣هـ، من كتبه: «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة»، و«لسان الميزان»، و«الإحكام لبيان ما في القرآن من الأحكام»، و«تقريب التهذيب»، و«الإصابة في تمييز أسماء الصحابة»، و«تهذيب التهذيب»، و«تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة»، و«بلوغ المرام من أدلة الأحكام»، و«نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر»، و«القول المسدَّد في الذب عن مسند الإمام أحمد»، و«إتحاف المَهرة بأطراف العشرة»، و«فتح الباري في شرح صحيح البخاري»، و«تعريف أهل=

كلامَ «البَيْهَقِيِّ» هذا في «شرحه على البُخَارِيِّ[1]»، في باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] ص٣٧٩ ج١٣ [2].

فهذا كلامُ «البَيْهَقِيِّ» في حقيقة الكلام بين يديك. وقد قرأتَ في الأوراق الماضية كلامَ «البَاقِلَّانِيِّ» حقيقةَ الكلام تَجِدْهما سواءً لا فرق بينهما.

❁ ❁ ❁

= التقديس» ويعرف بطبقات المدلّسين، و«تبصير المنتبه في تحرير المشتبه»، و«رفع الإصر عن قضاة مصر»، و«إنباء الغمر بأنباء العمر»، و«الإعلام في من ولي مصر في الإسلام»، و«نزهة الألباب في الألقاب»، توفي سنة ٨٥٢هـ.

(١) هو حبر الإسلام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، ولد سنة ١٩٤هـ، من كتبه: «الجامع الصحيح»، لمعروف بصحيح البخاري، و«التاريخ»، و«الضعفاء»، و«خلق أفعال العباد»، و«الأدب المفرد». توفي سنة ٢٥٦هـ.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، ١٣/ ٤٥٧ـ٤٥٨، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، تصحيح: محب الدين الخطيب، دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٧٩هـ.

مَذْهَب الحَنَابِلَة والحَشْوِيَّة

قد علمتَ مَذْهَبَ المُتَكَلِّمِين والأَوْلياء والعارفين، وأمَّا مَذْهَب السَّلَف والمحقِّقين من الحَنَابِلَة أنَّ الله متكلِّمٌ، يتكلَّم بحرفٍ وصوتٍ يليقان بشأنه، ولا يُشْبِهان صوتَ مخلوقٍ ولا حرفَه بوجهٍ ألبتةَ. فهولاء يثبتون الحرفَ والصَّوتَ، مع اعتقاد التَّنْزيه وعدم التَّشبيه. وقالت عامَّة الحَنَابِلَة: إنَّ القُرْآنَ اسمٌ للنَّظم والمعنى جميعًا، ولا معنى للكلام إلَّا المنتظم من الحروف المسموعة، الدَّالَّة على المعاني المقصودة، وهو قديمٌ قائمٌ بذات الباري تعالى، وقد عُلِم بالضَّرورة من دين النَّبيِّ ﷺ حتَّى للعوامِّ والصِّبيان أنَّ القُرْآنَ هو هذا الكلام المُؤَلَّف المنتظم من الحروف المسموعة، وعليه انعقد إجماع السَّلَف[1]. انظر ص١١٦ ـ ١١٧ ج١ من «شرح العقيدة السَّفارينيَّة».

وقال العَلَّامَة القَسطَلَّاني: (وعند أهل الحقِّ كلامُه تعالى ليس من جنس الحروف والأصوات، بل صِفَة أَزَليَّة قائمةٌ بذاته تعالى، وهو بها آمرٌ وناهٍ ومخبرٌ، وغير ذلك، يَدُلُّ عليها بالعبارة والكتابة أو الإشارة، فإذا عَبَّر عنها بالعربيَّة فقرآنٌ، وبالسُّريانيَّة فإنجيلٌ، وبالعِبْرانيَّة فتوراةٌ، والاختلاف على العبارات دُونَ المُسمَّى، كما إذا ذُكِر اللهُ بألسنةٍ متعدِّدةٍ ولغاتٍ مختلفةٍ. وقالت الحَنَابِلَة والحَشْوِيَّة: إنَّ تلك الأصوات والحروف مع تواليها وترتُّب بعضها على بعض وكون الحرف الثَّاني من كل كلمةٍ مسبوقًا بالحرف

---

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، للشيخ شمس الدين أبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، ١/ ١٣٧ ـ ١٤٣، مؤسسة الخافقين ومكتبتها ـ دمشق، ط٢ ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

المتقدِّم عليه، كانت ثابتةً في الأزل، قائمةً بذات الباري تعالى وتقدَّس، وأنَّ المسموعَ من أصوات القُرَّاء، والمرئيَّ من أسطر الكتاب نفسُ كلام الله.

وعند أهل الحقِّ الكلام القائم بذات الباري تعالى لا يجوز أنْ يكون هو الحِسِّيَّ، أعني المنتظم من الحروف المسموعة لأنَّه حادثٌ بالضَّرورة، ضرورةَ أنَّ له ابتداءٌ وانتهاءٌ، وأنَّ الحرفَ الثَّاني من كل كلمةٍ مسبوقٌ بالأوَّل، مشروطٌ بانقضائه، وأنَّه يَمتنع اجتماع أجزائه في الوجود، وبقاءُ شيءٍ منها بعد الحصول، والحادثُ يمتنع قيامُه بذات الباري تعالى، فتعيَّن النَّفْسِيَّ القديمَ)[1]. كذا في «إرشاد السَّاري» ص٣٧٩ ج١٢.

وقال الحافظ العَسْقَلانِيُّ: (وذهب بعض الحَنَابِلَة وغيرهم إلى أنَّ القُرْآنَ العربيَ كلامُ الله، وكذا التَّوراة، وأنَّ الله لم يزَل متكلِّمًا إذا شاء، وأنَّه تكلَّم بحروفِ القُرْآن، وأسْمع مَنْ شاء من الملائكة والأنبياء صوتَه، وقالوا: إنَّ هذه الحروف والأصوات قديمةُ العين، لازمة الذَّات، ليست متعاقبةً، بل لم تزل قائمةً بذاته، مقترنةٌ لا تُسبَق، والتَّعاقب إنَّما يكون في حقِّ المخلوق بخلاف الخالق)[2]. كذا في «فتح الباري» ص٣٨٠ ج١٣.

فالحروف عند الحَنَابِلَة في حقِّه تعالى مقترنةٌ لا متعاقبةٌ، وقالوا: إنَّ التَّعاقب إنَّما يكون في حقِّ المخلوق لا في حقِّ الخالق. والحَنَابِلَة يقولون بالحرف والصَّوت مع اعتقاد التَّنزيه وعدم التَّشبيه بالخَلْق، فيقولون: إنَّ الله تعالى يتكلَّم كما يليق بجلاله، وأنَّ كلامَه حروفٌ وأصواتٌ أَزَلِيَّة مجتمعةٌ في الأزل[3]. انظر ص١٠٥ وص١٠٦ من

---

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني، ١٠/ ٤٢٨، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة السابعة، ١٣٢٣هـ.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٥٥.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، للشيخ صدر الدين ابن أبي العز الحنفي، ص١٢٨، تحقيق: أحمد=

«شرح الطحاوية».

وهؤلاء قد قالوا: قد رُوي عن «الإمام أحمد» أنَّ الله تعالى تكلَّم بحرفٍ وصوتٍ.

وقال إمام الحرمين: (ذهبت الحَشْوِيَّة المنتمون إلى الظَّاهر إلى أنَّ كلامَ الله تعالى قديمٌ أزليٌّ، ثمَّ زعموا أنَّه حروفٌ وأصواتٌ، وقطَعوا بأنَّ المسموع مِنْ أصوات القُرَّاء ونغماتهم عينُ كلام الله تعالى، وأطلق الرِّعاع منهم القولَ بأنَّ المسموعَ صوتُ الله تعالى، وهذا قياس جهالاتهم.

ثمَّ قالوا: إذا كُتب كلامُ الله تعالى بجسمٍ من الأجسام، وانتظمت تلك الأجسام رسومًا ورُقُومًا وأسطرًا وكلامًا فهي بأعيانها كلامُ الله تعالى القديم، وقد كان إذ ذاك جسمًا حادثًا، ثمَّ انقلب قديمًا، وقضوا بأنَّ المرئيَّ من الأسطر الكلامُ القديمُ الَّذِي هو حرفٌ وصوتٌ.

وأصلُهم أنَّ الأصوات على تقطُّعها وتواليها، كانت ثابتةً في الأزل، قائمةً بذات الباري ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرًا ـ وقواعدُ مَذْهَبهم مبنيَّةٌ على جَحْد الضَّرورات؛ فإنَّهم أثبتوا الكلامَ القديمَ على زعمهم ابتداءً وانتهاءً، وجعلوا منه سابقًا ومسبوقًا، فإنَّ الحرف الثَّاني من كلِّ كلمةٍ مسبوقٌ بالمتقدِّم عليه، وكلٌّ مسبوقٌ مبتدأٌ وجودُه، وباضطرارٍ نعلَمُ كونَ المفتتح وجودُه حادثًا، ولا خفاء بمراغمتهم لبديهة العقول في حكمهم بانقلاب الحادث قديمًا.

وممَّا يُقَرِّرُ افتضاحهم في مناكرة الحقائق أنَّ الحروف لو مُثِّلت من بعض الجواهر فهي عينُ كلام الله تعالى عندهم، والحديدُ الَّذِي صيغت منه الحروف خارجٌ عن كونه

= شاكر، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١ ١٤١٨هـ.

حديدًا، ونحن نُدْرِك زُبَرَ الحديد متألِّفةً جسمًا فكيف تسوغ مجاجةُ قومٍ هذه غايتهم؟ ثمَّ جَهَلَتُهم يصمِّمون على أنَّ اسم الله إذا كُتِب فالرَّقْم المرئيُّ في الكتابة هو الإله بعينه، وهو المعبود الَّذِي يصمد إليه.

ثمَّ أصلهم أنَّ الكلام القديم يَحُلُّ الأجسامَ ولا يفارق الذَّات، وهذا تلاعبٌ بالدِّينِ [واللهِ ﷻ])[1]. كذا في «الإرشاد» ص١٢٨ «لإمام الحرمين».

قال العَلَّامَة الزَّبيدي[2]: (وذهب الحَشْوِيَّة إلى أنَّ القراءة الَّتي هي حروفٌ وأصواتٌ، وهي فِعْلُ العبد وكَسْبُه، وهي أعراضٌ لا تبقى باتِّفاق مَنْ زَعَم أنَّ الأعراضَ لا تبقى، هي عينُ كلام الله تعالى، وهي قديمةٌ. وقالوا: إنَّ الحروف المكتوبة في المصاحف الَّتي ينسب حصولها للكاتبين قديمةٌ. وبالغوا فقالوا: لو أُخِذَتْ زُبَرٌ من حديدٍ، وقِطَعٌ من نُحاسٍ، أو شيءٍ من الكاس، وجُعِلَت حروفًا تُقْرَأ، كما لو جُعِلَت صورةً، صارت تلك الأجسام قديمةً. وقال أبو نصر القُشَيرِيُّ[3]: والعجب كلُّ العجب من تجاهل أقوامٍ في المصير إلى أنَّ كلامَ الله تعالى إذا كُتِب على الآجُر أو شيءٍ من الأصباغ، ينقلب عينُ الآجر والصِّبْغ قديمًا، فإذا صار الجهل إلى هذا القدر، والحكم

---

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ص١٤٨ ـ ١٥٠.

(٢) هو المرتضى أبو الفيض محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدى، ولد سنة ١١٤٥هـ، من كتبه: «تاج العروس في شرح القاموس»، و«إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين»، و«عقود الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبى حنيفة»، و«التكملة والصلة والذيل للقاموس»، و«عقد الجمان في بيان شعب الإيمان»، و«لغة الغريب في مصطلح آثار الحبيب»، و«عقد اللآلي المتناثرة في حفظ الأحاديث المتواترة»، توفي سنة ١٢٠٥هـ.

(٣) لعله أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري الواعظ، من كتبه: «المقامات والآداب»، توفي سنة ٥١٤هـ.

بأنَّ المُحْدَث يصير قديمًا، والقديمُ يفارق ذات الباري، ويحل في المُحْدَثات، فالأَوْلى السُّكوت)[1]. كذا في «الإتحاف شرح الإحياء» ص١٤٨ ج٢.

وقال الموفق ابن قدامة[2] ـ صاحب «المغني»، الَّذِي يقول عنه ابن تيميَّة[3]، أنَّه ما حَلَّ دمشقَ مثلُه بعد الأوزاعيِّ[4]، في مناظرةٍ مع بعض الأَشَاعِرَة، في صدد نفي الكلام النَّفْسِي، المسجلة في المجموعة المحفوظة تحت رقم ١١٢ بظاهرية دمشق ـ: (قال أهل الحقِّ: القُرْآن كلام الله غير مخلوقٍ. وقالت المُعْتَزِلَة: هو مخلوقٌ. ولم يكن اختلافهم إلَّا في هذا الموجود، دُونَ ما في نفس الباري ممَّا لا ندري ما هو ولا نعرفه) أهـ. وله أيضًا رسالةٌ سمَّاها «الصراط المستقيم في إثبات الحرف القديم»[5]، كذا في

---

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، ٢/ ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) هو موفق الدين أبو محمد عبدالله بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي الدمشقيّ الحنبلي، ولد سنة ٥٤١هـ، من كتبه: «المغني» شرح به مختصر الخرقي في الفقه، و«روضة الناظر» في أصول الفقه، و«المقنع»، و«لمعة الاعتقاد»، و«الكافي» في الفقه»، توفي سنة ٦٢٠هـ.

(٣) هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، ولد سنة ٦٦١هـ، من كتبه: «الفتاوى الفقهية الكبرى»، و«درء تعارض العقل والنقل»، و«منهاج السنة»، و«الصارم المسلول على شاتم الرسول»، و«رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، و«شرح العقيدة الأصفهانية»، و«مجموعة الرسائل والمسائل»، و«السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»، و«مجموع الفتاوى»، توفي سنة ٧٢٨هـ.

(٤) هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، ولد سنة ٨٨هـ. من كتبه: «السنن» في الفقه، و«المسائل»، ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها.، توفي سنة ١٥٧هـ.

(٥) طبعت طبعات، أولها فيما أعلم: طبعة بتحقيق: د. عبدالله بن صالح البراك، دار الوطن ـ =

«حاشية السَّيف الصَّقيل» ص٧٠ وص٥١، وانظر «مقالات الكوثري»[1] ص٢٦ [2].

وقال الحافظ ابن تيميَّة في فتواه ما نصُّه: (والصَّواب الَّذِي عليه سلف الأُمَّة؛ كـ «الإمام أحمد»، و«البُخَارِيِّ»، وغيره، وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم، هو أنَّ القُرْآنَ جميعُه كلامُ الله حروفُه ومعانيه، وليس شيءٌ من ذلك كلامًا لغيره، ولكن أنزله على رسوله، وليس القُرْآن اسمًا لمُجرَّد المعنى ولا لمُجرَّد الحرف، بل لمجموعهما، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحرف فقط ولا المعاني فقط، كما أنَّ الإنسانَ المُتكلِّم النَّاطق ليس هو مُجرَّد الرُّوح ولا مُجرَّد الجسد بل مجموعهما، وأنَّ الله يتكلم بصوتٍ كما جاءت به الأحاديث، وليس ذلك كأصوات العباد فإنَّ الله ليس كمثله شيءٌ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فكما لا يُشْبِه علمُه وقدرتُه وحياتُه علمَ المخلوق وقدرتَه وحياتَه، فكذلك لا يُشْبِه كلامُه كلامَ المخلوق، ولا معانيه تُشْبِه معانيَه، ولا حروفُه تُشْبِه

= الرياض، ١٤١٩هـ١٩٩٨م ضمن مجموع بعنوان: مجموع فيه ثلاث رسائل. وطبعة بتحقيق: د. محمد بن عبد الرحمن الخميس، مكتبة الفرقان، الإمارات العربية المتحدة، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م. وسبب تأليف الكتاب كما يفهم من مقدمة المؤلف أنه وقف على رسالة انتصر فيها مؤلفها لكون حروف القرآن مخلوقة، مستدلا بالكتاب والسنة، فقام موفق الدين ابن قدامة بتصنيف كتابه في الرد عليه.

(١) هو محمد زاهد بن الحسن بن علي الكوثري الحنفي، جركسي الأصل، ولد سنة ١٢٩٦هـ، له تعليقات كثيرة على بعض المطبوعات في أيامه في الفقه والحديث والرجال. من كتبه: «تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب»، و«النكت الطريفة في التحدث عن ردود ابن أبي شَيْبَة على أبي حنيفة»، و«الاستبصار.

(٢) السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل، للتقي السبكي، ص٦٤، تعليق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث. ومقالات الكوثري، محمد زاهد الكوثري، ص٤٣، المكتبة التوفيقية ـ مصر.

حروفَه، ولا صوتُ الرَّبِّ يُشْبِه صوتَ العبد، فمَنْ شبَّه الله بخَلْقِه فقد أَلْحَد في أسماءه وآياته)[1]. كذا في المجلَّد الخامس مِنْ «مجموعة الفتاوى» «لابن تيمية»: ص١٢١، وص ١٠٧، وص ٩٠، وص ٥٠ ج٥، وهكذا في الجزء الأوَّل من «مجموعة الفتاوى» «لابن تيمية» ص١٢٤ ج١ وص٢٣٣ إلى ص٢٣٥، ومثله في كتابه «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» المطبوع على هامش «شرح منهاج السنة» ص١٥٥ ج١، وكذا في «شرح العقيدة الأصفهانية» ص٣١، و«مجموعة الرسائل» ص١٧ وص٢٣، وكذا في «رسالته في القُرْآن».

وبالجملة لم يألُ «ابن تيمية» في إثبات قِدَم الحروف اللَّفْظيَّة، وسلَك في ذلك مَسْلك «ابن قدامة»، وادَّعى أنَّ ذلك مَذْهَب السَّلَف، وليس كذلك، بل إنَّما هو مَذْهَب الحَنَابِلَة، وقد ذكر الشَّيخ «قاسم بن قُطْلُوبُغَا»[2] تلميذ «الكمال ابن الهمام»[3] المتوفى سنة ٨٧٩هـ في «شرح المسايرة» كلامًا «لابن تيمية» في إثبات الحرف والصَّوت ثمَّ ناقشه، فنورده بتمامه.

فقال: (قال شيخ الإسلام أبو العبَّاس أحمد بن تيمية في جزءٍ أجاب فيه عن فُتْيا رُفعت إليه: وأمَّا الحروف فهل هي مخلوقةٌ أو غير مخلوقةٍ؟ فالخلاف في ذلك بين

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٨/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.
مجموع الفتاوى لابن تيمية، ١٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

(٢) هو زين الدين أبو العدل قاسم بن قطلوبغا السودوني الجمالي، ولد سنة ٨٠٢هـ، من كتبه: «تاج التراجم» في علماء الحنفية، و«شرح مختصر المنار»، توفي سنة ٨٧٩هـ.

(٣) هو كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، المعروف بابن الهمام: ولد سنة ٧٩٠هـ، من كتبه: فتح القدير، في شرح الهداية، و«التحرير»، في أصول الفقه، توفي سنة ٨٦١هـ.

الخلف مشهورٌ، فأمَّا السَّلَف فلم يُنقَل عن أحدٍ منهم أنَّ حروفَ القُرْآن أو ألفاظَه أو تلاوتَه مخلوقةٌ، ولا ما يَدُلُّ على ذلك، بل قد ثبت عن غير واحدٍ الرَّدَّ على مَنْ قال بأنَّ ألفاظَ القُرْآن مخلوقةٌ، وقالوا: هو جهميٌّ. ومنهم مَنْ كفَّره، وفي لفظ بعضهم: تلاوة القُرْآن. ولفظ بعضهم: الحروف. وممَّن ثبت عنه ذلك «الشَّافعيُّ»[1]، و«أحمد»، و«إسحاق بن رَاهُويَه»[2]، و«الحُمَيديُّ»[3]، و«مُحمَّد بن أسلم الطُّوسيُّ»[4]، و«هشام بن عَمَّار»[5]، و«أحمد بن صالح المصري»[6].

ومَنْ أراد الوقوف على نصوص كلامهم فليطالع الكتب المُصَنَّفة في السُّنَّة؛ مثل: كتاب «الرد على الجَهْمِيَّة» للإمام «عبد الرحمن بن أبي حاتم»[7]، وكتاب «الشَّريعة» «للآجُرِّي»[8]،.....

---

(١) هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي المطلبي، ولد سنة ١٥٠هـ، وتوفي سنة ٢٠٤هـ.

(٢) هو أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم ابن راهويه، ولد سنة ١٦١هـ، وتوفي سنة ٢٣٨هـ.

(٣) هو أبو بكر عبدالله بن الزّبير الحميدي الأسدي، أحد الأئمة في الحديث. وهو شيخ البخاري، روى عنه البخاري ٧٥ حديثا، وذكره مسلم في مقدمة كتابه، توفي سنة ٢١٩هـ.

(٤) هو أبو الحسن محمد بن أسلم الطوسي، من كتبه: «المسند»، و«الرد على الجهمية»، و«الإيمان والأعمال» في الرد على الكرامية، توفي سنة ٢٤٢هـ.

(٥) هو أبو الوليد هشام بن عمار السلمي، ولد سنة ١٥٣هـ، توفي سنة ٢٤٥هـ.

(٦) هو أبو جعفر أحمد بن صالح المصري، ولد سنة ١٧٠هـ، لم يصنف كتابا، توفي سنة ٢٤٨هـ.

(٧) الكتاب لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم ابن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ولد سنة ٢٤٠هـ، وتوفي سنة ٣٢٧هـ، والكتاب مفقود الآن، وهو ثابت النسبة له، ونقل منه أبو القاسم اللالكائي في «أصول الاعتقاد»، ونقل منه ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية».

(٨) الكتاب لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبدالله الآجري، توفي سنة ٣٦٠هـ، والكتاب في بعض=

وكتاب «الإبانة» «لابن بطَّة»[1]، و«السُّنن» «للالكائي»[2]، و«السُّنَّة» «للطبراني»[3]، وغير ذلك من الكتب الكبيرة. ولم يُنْسَب أحدٌ منهم إلى خلاف ذلك، إلَّا أنَّ بعضَ أهل الغرض نَسَبَ «البُخَارِيَّ» إلى أنَّه قال ذلك، وقد ثبت عنه بالإسناد المرضيِّ أنَّه قال: «مَنْ قال عنِّي أنِّي قلت: لفظي بالقُرْآن مخلوقٌ فقد كذب، وإنَّما قلت: إنَّ أفعال العباد مخلوقة». وتراجمه في آخر «صحيحه» تبين ذلك. وهنا ثلاثة أشياء:

أحدها: حروف القُرْآن الَّتي هي لفظه قبل أن يَنزل بها جبرائيل، فمن قال: «إنَّ هذه الحروف مخلوقةٌ» فقد خالف إجماع السَّلَف، فإنه لم يكن في زمانهم من يقول

= مسائل العقيدة، يسوق فيه المؤلف الآيات والأحاديث المتعلقة بالمسائل المبحوثة، وقد ألفه مؤلفه ليكتفي به المسلم في العقائد، وليعلم الرد على الفرق المخالفة لمنهج المؤلف، وهو مطبوع.

(١) الكتاب لأبي عبدالله عبيدالله بن محمد العكبري، المعروف بابن بطة، ولد سنة ٣٠٤هـ، وتوفي سنة ٣٨٧هـ، وكتاب الإبانة لابن بطة كتابان كبرى وصغرى، واسم الكبرى: الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، وهو كتاب جمع فيه المؤلف الأحاديث والآثار المتعلقة بمسائل العقيدة. وأما الصغرى فهي عين الكبرى، إلا أنها محذوفة الأسانيد، والكتابان مطبوعان.

(٢) الكتاب لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، نسبة إلى بيع «اللوالك» التي تلبس في الأرجل، على خلاف القياس، توفي سنة ٤١٨هـ، والكتاب من كتب الاعتقاد المسندة، ولعله كتابه المشهور باسم: أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة. وقد شرحه مؤلفه بنفسه.

(٣) الكتاب لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، ولد سنة ٢٦٠هـ، وتوفي سنة ٣٦٠هـ. والكتاب مفقود، سوى جزء منه حققه الدكتور عبدالله بن صالح البراك، نشر بمجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، في العدد السابع والأربعين.

هذا إلَّا الَّذِين قالوا: القُرْآن مخلوق. فإنَّ أولئك إنَّما عَنَوا بالخَلْق الألفاظ، وأمَّا ما سوى ذلك فهم لا يقرُّون بثبوته لا مخلوقًا ولا غير مخلوق، وقد اعترف غيرُ واحد من فحول أهل الكلام بهذا، منهم «عبد الكريم الشَّهْرِسْتَانِي» مع غبرته بـ«الملل والنحل»، فإنَّه ذَكَر أنَّ السَّلَف مطلقًا ذهبوا إلى أنَّ حروفَ القُرْآنِ مخلوقة[1]، وقال: ظهور القول بحدوث الحروف محدثٌ. وقد ذكر مَذْهَب السَّلَف في كتابه المُسَمَّى بـ«نهاية الإقدام».

والثَّاني: أفعال العباد، وهي حركاتهم الَّتي تظهر عند التلاوة، فلا خلاف بين السَّلَف أنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ، ولهذا بدَّعوا مَنْ قال: «لفظي بالقُرْآن غير مخلوق» لأنَّ ذلك يَدْخُل فيه فعله.

ثمَّ قال: والثَّالث: التِّلاوة الظَّاهرة من العبد عقيب حركة الآلة، فهذا منهم من يصفها بالخَلْق، ومنهم من ينفي عنها الخَلْق، والصَّواب أن لا يُطْلَق واحدٌ منهما كما عليه «الإمام أحمد» وجمهور السَّلَف؛ لأنَّ في كلِّ واحدٍ من الإطلاقين إيهامًا للخلط، فإنَّ أصوات العباد محدثةٌ بلا شك، وقال النَّبيُّ ﷺ: «زيِّنُوا القُرْآن بأصواتكم» والتِّلاوة في نفسها الَّتي هي حروفُ القُرْآن وألفاظه غير مخلوقةٍ، والعبد إنَّما يقرأ كلام الله بصوتٍ، كما أنه إذا قال: قال النبي ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنِّيَّات» فهذا الكلام لفظُه ومعناه إنَّما هو كلام رسول الله ﷺ، وهو قد بلَّغه بحركته وصوته، وكذلك القُرْآن لفظه ومعناه كلام الله ﷻ، ليس للمخلوق فيه إلَّا تبليغُه وتأديته بصوت. وما يخفى على لبيبٍ الفرقُ بين التِّلاوة في نفسها قبل أنْ يتكلَّم بها الخَلْق وبعد أنْ يتكلَّم بها، وبين ما للعبد في تلاوة القُرْآن مِنْ عملٍ وكَسْبٍ. وإنَّما غَلَط بعضُ الموافقين والمخالفين فجعلوا البابين واحدًا، وأرادوا أنْ يستدلُّوا على حدوث نفس حروف القُرْآن بما دلَّ على

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصَّواب: غير مخلوقة. [المصنف].

حدوث أفعال العباد، وما تولَّد عنها، وهذا مِنْ أقبح الغلط، وليس في الحُجَج العقليَّة ولا السَّمعيَّة ما يَدُلُّ على حدوث نفس حروف القُرْآن، إلَّا مِنْ جنس ما يُحتجُّ به على حدوث معانيه، والجوابُ عن الحُجَج مثلُ الجواب عن هذه سواءٌ لمن استهدى الله فهداه). انتهى كلامه.

قال الشَّيخ قاسم بن قُطْلُوبُغَا بعد نقل هذا الكلام: (وإنَّما سُقْتُ كلامَ هذا الرَّجل ـ ابن تيمية ـ لاعتراف أهل مَذْهَبه أنَّه أعلمهم، وأنَّ عنده ما عند المتقدِّمين منهم والمتأخِّرين، ويُعْلَم ممَّا ذَكَر صِحَّة ما نَقَل مشايخُنا عنهم من أنَّ كلامَ الله عندهم هو الحروف المُؤَلَّفة والأصوات المقطَّعة، وأنَّه حالٌّ في الألسنة والصُّدور والمصاحف، وأنَّه مع هذا غير مخلوق، قاله صاحب «التبصرة». وقال: وكثير من الحَشْوِيَّة يساعدونهم، ويقولون: «لفظي بالقُرْآن غيرُ مخلوق» فيجعلون قراءتَهم غيرَ مخلوقة، وهذا هَذَيَانٌ ظاهرٌ، لا أَعْلَمُ لهم مِنْ حُجَّةٍ، فإنَّ مشايخَنا لم يذكروا لهم شبهةً والله أعلم. ويُعْلَم ممَّا ذُكِر أنَّ السَّلَف الَّذِين عَنَاهم ردُّوا على مَنْ قال: «ألفاظ القُرْآن مخلوقةٌ»، أو قال: «تلاوته مخلوقةٌ»، أو قال: «حروف القُرْآن مخلوقةٌ»، وأنَّ بعضَهم كَفَّر القائل لذلك؛ حيثُ رَدُّوا هذا، فَهُم قائلون بأنَّها غيرُ مخلوقةٍ كما قال «الشَّهْرِسْتَانِيُّ»، وأنَّ كلامَ الله لفظيٌّ، حالٌّ في الألسنة؛ لقوله: «حروف القُرْآن الَّتي هي لفظه قبل أنْ يَنْزِلَ بها جبريل» وقوله: «والتِّلاوة في نفسها الَّتي هي حروف القُرْآن وألفاظه غيرُ مخلوقةٍ». وقوله: «وكذلك القُرْآن لفظه ومعناه كلام الله ﷻ ليس للعبد فيه إلا تأديته بصوته». وقوله: «والعبد إنَّما يقرأ كلام الله بصوته». ولقوله: «وما يخفى على لبيبٍ الفرق بين التلاوة في نفسها قبل أن يتكلَّم بها الخَلْق، وبعد أنْ يتكلَّم بها، وبين ما للعبد في تلاوة القُرْآن من عملٍ وكَسْبٍ»، وأنَّ الكلام يُضاف إلى أوَّل مَنْ يتكلَّم به كائنًا مَنْ كان، والنَّاس بعده يؤدُّون ذلك بحركةِ الألسنة، كقوله: «قال النبي ﷺ» وهو قد بلَّغه بحركته وصوته،

ولم يتعرَّض للكتابة الَّتي في المصاحف.

ويدُلُّ لقول أصحابنا في ذلك ما قرأتُ في «المعتمد» «لأبي يعلى»[1]، أن «أبا طالبٍ»[2] قال «لأحمدَ» عن نقوش المُصْحَف والسَّواد الَّذِي في البياض؟ قال: «أصحُّ حديثٍ في الباب حديث «ابن عمر»: لا تسافروا بالقُرْآن إلى أرض العدو». وعن هذا قال أئمَّتُنا: القُرْآن الَّذِي هو كلام الله تعالى مكتوبٌ في مصاحفنا بأشكال الكتابة وصور الحروف الدَّالَّة عليه، محفوظٌ في قلوبنا بألفاظٍ مخيَّلةٍ، مقروءٌ بألسنتنا بحروفه الملفوظة، المسموعة بآذاننا بذلك أيضًا، غير حالٍّ فيها، ليس حالًّا في المصاحف ولا في القلوب والألسنة والآذان، بل هو معنى قائمٌ بذات الله يُلفظُ ويُسمَع بالنَّظْم الدَّالِّ عليه، ويُحفَظَ بالنَّظْم المخيَّل، ويُكتب بنقوشٍ وصورٍ وأشكالٍ موضوعةٍ للحروف الدَّالَّة عليه، كما يقال: النَّار جوهرٌ مُحْرِقٌ، يُذْكَر باللَّفظ، ويُكْتَب بالقلم، ولا يَلزم مِنه كونُ حقيقة النَّار صوتًا وحرفًا، وذلك لأنَّ للشَّيء وجودًا في الأعيان، ووجودًا في الأذهان، ووجودًا في العبارة، ووجودًا في الكتابة، فالكتابة تدل على العبارة، وهي على ما في الأذهان، وهو على ما في الأعيان، فحيث يُوصَف القُرْآن بما هو من لوازم القديم، كما في قولنا: «القُرْآن غير مخلوق» فالمراد حقيقته الموجودة في الخارج، وحيث يُوصَف بما هو مِنْ لوازم المخلوقات والمُحْدَثات يُراد به الألفاظ المنطوقة المسموعة، كما في قولنا: «قرأت

---

(١) هو كتاب «المعتمد في أصول الدين» لأبي يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفَرَّاء، ولد سنة ٣٨٠هـ، توفي سنة ٤٥٨هـ، والكتاب مطبوع في بيروت سنة ١٩٨٦م، وفيه عرض لجميع مسائل العقيدة، بدأه بالكلام على أحكام النظر، ولم أقف في المطبوع على ما نقله قطلوبغا.

(٢) هو أبو طالب أحمد بن حميد المشكاني، صاحب أحمد بن حنبل روى عنه مسائل كثيرة تفرد بها، روى عنه أبو بكر الأسيدي، وكان أحمد بن حنبل يكرمه ويعظمه، توفي سنة ٢٤٤هـ.

نصف القُرْآن». أو المُخيَّلة كما في قولنا: «حفظت القُرْآن». أو الأشكال المنقوشة كما في قولنا: «يَحْرُم على المُحْدِث مسُّ القُرْآن».

وقوله: «ولا يخفى على لبيب الفرق بين التلاوة في نفسها قبل أنْ يتكلَّم بها الخَلْق وبعد أنْ يتكلَّم بها، وبين ما للعبد في تلاوة القُرْآن مِنْ عملٍ وكسبٍ». قلت: الَّذِي تعقله الألبَّاء أنْ ليس قبلَ تكلُّم الخَلْق تلاوةٌ، ولا بعدَ تكلُّمهم تلاوةٌ، وإنَّما التِّلاوة تكلُّمهم، والمتلوُّ القُرْآن، والصِّفة القديمة القائمة بذات الله تعالى المدلول عليها بالتِّلاوة، قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧] ففعلُه ﷺ تلاوةٌ، لا أنَّ فعلَه شيءٌ، والتِّلاوة شيءٌ آخر، والله أعلم.

وقوله: «إنَّما غَلَط بعض الموافقين والمخالفين فجعلوا البابين واحدًا»، يعني جعلوا عملَ العبد والتِّلاوة واحدًا، والحال أنَّهما شيئان، صوت القاري وكلام الله تعالى، وسنبيِّن بطلان هذا، والله أعلم.

وقوله: «وأرادوا ـ يعني بعض الموافقين والمخالفين ـ أنْ يستدلُّوا على حدوث حروف القُرْآن بمَا دلَّ على حدوث أفعال العباد وما تولَّد عنها، وهو مِنْ أقبح الغلط» يعني: وليست من أفعال العباد، وإنَّما هي الكلام القديمُ، فالحاصل أنَّ القراءةَ نُطقُ القارئ وكلامُ الله تعالى، والمسموعَ صوتُ القارئ وكلامُ الله تعالى، وما في المُصْحَف نقشُ الكاتب وكلامُ الله تعالى، وهذا كلُّه دعوى ليس فيها ما يصلح شبهةً، فضلًا عن حجَّةٍ، ويقال له: تكلَّم الله بهذه الحروف دَفْعةً أو على التَّعاقب؟ فإن كان الأوَّل تحصَّل مِنْه أنَّه غير هذه الكلمات الَّتي نسمعها؛ لأنَّ الَّتي نسمعها حروفٌ متعاقبةٌ، فحينئذٍ لا يكون هذا القُرْآن المسموع قديمًا. وإن كان الثَّاني فالأوَّل لمَّا انقضى كان مُحْدَثًا؛ لأنَّ ما ثبت عَدَمُه امتنع قِدَمُه، والثَّاني لمَّا حصل بعد عدمه كان حَادِثًا، فظهر بطلان ما ادَّعاه،

وأنَّه هو أقبح الغلط، والله تعالى أعلم.

وقوله: «وليس في الحُجج العقليَّة ولا السَّمعيَّة ما يَدُلُّ على حدوث نفس حروف القُرْآن، إلَّا مِن جنس ما يُحتجُّ به على حدوث معانيه، والجواب عن الحجج مثل الجواب عن هذه سواءٌ». قلتُ: ممنوعٌ، بل الجوابُ ناطقٌ بأنَّ الألفاظَ مخلوقةٌ والمعنى قديمٌ، كما تَقدَّم في جواب شُبْهة المُعْتَزِلَة، وكفى في الحُجَج العقليَّة ما قدَّمْناه في بُطْلان ما ادَّعاه، والله تعالى أعلم)[1]. انتهى كلام الشَّيخ «قاسم قُطْلُوبُغَا» في «شرح المسايرة» من ص٨٤ إلى ٨٧.

❁ ❁ ❁

(١) المسامرة في شرح المسايرة، ص٨٥ ـ ٨٩.

مَسألة الحُروف

حروف المعجم إذا وُجِدَت في كلام الله فهي قديمةٌ غيرُ مخلوقةٍ، وإذا وُجِدَت في كلام العباد فهي مخلوقةٌ، وإذا تكلَّمنا بكلامٍ ذكرنا فيه الأسماء المذكورة في القُرْآن، مثل: «آدم»، و«نوح»، و«إبراهيم»، وغير ذلك، فكلامنا مخلوقٌ، وحروفُ كلامنا مخلوقة، فإنَّ هذه الحروف وإنْ تكلَّم الله بها في القُرْآن، لكِنْ لم يتكلَّم بها مفردةً، كما قال «أحمد بن حَنْبَل» لرجلٍ: ألست مخلوقًا؟ قال: بلى. قال: أليس كلامُك منك؟ قال: بلى. قال: أليس كلامُك مخلوقًا؟ قال: بلى. قال: فالله تعالى غيرُ مخلوقٍ، وكلامه منه ليس بمخلوقٍ[1]. كذا في «مجموعة الرسائل» مُلَخَّصًا ص٥٢ وص٥٣ «لابن تيمية».

قال الإمام أبو بكر البَاقِلَّاني ما حاصله: (إنَّ هذا تخبُّطٌ ظاهرٌ، فإنَّ الحروف في القُرْآن هي الحروف بعينها في كلام الإنسان، وعلى هذا القول يلزم أنْ يكون الشَّيء الواحد قديمًا تارةً وحادثًا تارةً؛ فإنَّ هذه الحروف إذا وُجِدَت في القُرْآن كانت قديمةً، وإذا وُجِدَت في كلام الخَلْق تكون مخلوقةً، مع أنَّ الحروف في الكلامين واحدةٌ)[2].

وقال الشَّهْرِسْتَانِيُّ: (قالت السَّلَف والحَنَابِلَة: قد تقرَّر الاتِّفاق على أنَّ ما بين الدَّفتين كلامُ الله، وأنَّ ما نقرؤه ونسمعه ونكتبه عينُ كلام الله، فيجب أنْ يكون الكلمات والحروف بعينها كلام الله. ولمَّا تقرَّر الاتِّفاق على أنَّ كلامَ الله غيرُ مخلوقٍ فيجب أنْ

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية، ٣/ ٥٢ ـ ٥٣، علق عليه: السيد محمد رشيد رضا، لجنة التراث العربي.

(٢) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص١٠٦.

تكون الكلمات أَزَلِيَّةً غيرَ مخلوقةٍ، ولقد كان الأَمْر في أوَّل الزَّمان على قولين: أحدهما: القدم. والثَّاني: الحدوث. والقولان مقصوران على الكلمات المكتوبة والآيات المقروءة بالألسن، فصار الآن إلى قولٍ ثالثٍ وهو حدوث الحروف والكلمات، وقِدَم الكلام والأَمْر الَّذِي تدُلُّ عليه العبارات، فكانت السَّلَف على إثبات القِدَم والأَزَلِيَّة لهذه الكلمات دُونَ التَّعرُّض لصفةٍ أخرى وراءها، وكانت المُعْتَزِلَة على إثبات الحدوث والخَلْقيَّة لهذه الحروف والأصوات دُونَ التَّعرُّض لأمرٍ وراءها، فأبدع «الأَشْعَرِيُّ» قولًا ثالثًا وقَضَى بحدُوث الحروف، وهو خَرْقُ الإجماع، وحكمٌ بأنَّ ما نقرؤه كلام الله مجازًا لا حقيقةً، وهو عين الابتداع)[1] أهـ. كذا في «نهاية الإقدام» ص٣١٣.

قلت: قد سبق مراد «الإمام الأَشْعَرِيِّ»، وكلامه بديعٌ جدًا وليس بابتداعٍ، بل هو نعم الإبداع، وحاصله: إنَّ القُرْآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، وأنَّ هذه الحروف والكلمات ـ دلالات القُرْآن ـ أي الكلام النَّفْسِيُّ القديم القائم بذاته سبحانه، لا أنَّها عين الكلام القديم[2]. كما في «إشارات المرام من عبارات الإمام» ص١٧٧.

قال الإمام أبو الحسن الأشعري: (الكلام كلُّه ليس من جنس الحروف، ولا من جنس الأصوات، بل الحروف والأصوات على وجهٍ مخصوصٍ، دلالاتٌ على الكلام القائم بنفس المتكلِّم)[3]. كذا في «الإتحاف» ص٣٠ ج٢.

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢] فصدور العلماء، واللَّوح

---

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام، ص٣١٣.

(٢) إشارات المرام من عبارات الإمام، ص١٤٢.

(٣) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، ٢/ ٣٠.

المحفوظ، ولسان الرسول ﷺ مخلوقةٌ، والكلام القديم غير حالٍّ فيها، وإنَّما القديم ما قام بالله ﷻ دُونَ ما في الصُّدور والألواح والألسنة، وهذا ظاهرٌ جدًا لا يشكُّ فيه عاقلٌ. وهو قول الإمامِ الأعظمِ، والهمامِ الأقدمِ، العالمِ العابدِ، الزَّاهدِ الصُّوفيِّ أبي حنيفة الكُوفيِّ، وهو أول مَنْ أشار إلى الفرق بين ما قام بالحقِّ ﷻ، وما قام بالخَلْق، فما قام بالحقِّ سبحانه قديمٌ غير مخلوقٍ، وما قام بالخَلْق حادثٌ ومخلوقٌ.

وَخلاصَة الكلام إنَّ مَذْهَب الحَنَابِلَة على ما يظهر من كلام مشايخهم، ولا سيَّما مِنْ كلام ابن تيمية في فتاواه ورسائله، أنَّ كلام الله عندهم هو الحروف المُؤَلَّفة والأصوات المقطَّعة، وأنَّه حالٌّ في الألسنة والصُّدور والمصاحف، وأنَّه مع هذا غير مخلوقٍ. كما قال صاحب «التبصرة»[1]. انظر ص٨٥ من «شرح المسايرة» (طبع مصر) وص٤٨ طبع الهند ـ زين الدِّين قاسم بن قُطْلُوبُغَا[2].

وقد سبق في الأوراق الماضية نقلًا عن الإمام الشَّهْرِسْتَانِيِّ أنَّ مَذْهَب الحَنَابِلَة أنَّ ما بين الدَّفَّتين كلام الله، وأنَّ ما نقرؤه ونسمعه ونكتبه عينُ كلام الله، فيجب أن تكون الكلمات والحروف هي بعينها كلام الله. أهـ. ولا يخفى أنَّه جحدٌ للضَّرورة، وإنكارٌ للبداهة.

قال الإمام الغزالي: (مَنْ لم يعقِلْه عَقْلُه، ولا نَهَاهُ نُهَاهُ عن أنْ يقول: «لساني حادثٌ، ولكِنْ ما يحدث فيه بقدرتي الحادثة قديمٌ» فاقطع عن عقله طَمَعَك، وكُفَّ عن خطابه لسانَك، ومَنْ لم يفهم أنَّ القديمَ عبارةٌ عمَّا ليس قبله شيءٌ، وأنَّ الباء قبل السِّين

---

(١) تبصرة الأدلة في أصول الدين، لأبي المعين النسفي، ١/ ٤٨٤، تحقيق وتعليق: د. محمد الأنور حامد عيسى، المكتبة الأزهرية للتراث، ط١ ٢٠١١م.

(٢) المسامرة في شرح المسايرة، ص٨٦.

في قولك: «بسم الله» فلا يكون السِّين المتأخِّر عن الباء قديمًا، فنزِّه عن الالتفات إليه قلبك؛ إذ لا فائدة في الكلام معهم سوى اللِّجاج والمِراء)[1]. كذا في «الإتحاف شرح الإحياء» ص١٠٦ ج٢.

ومحصلُّه أنَّه كيف يمكن أنْ يكون اللِّسان مُحْدَثًا وصِفَته قديمةٌ؟ أو يَحُلُّ به القديم؟ أو يقوم به صِفَة القديم؟ أو يمتزج القديم بالحادث؟ ولا يخفى أنَّ امتزاجَ القديم بالحادث مُحَالٌ بإجماع أهل العقل.

وقال الحَليميُّ في «شعب الإيمان»[2]: (إنَّ كلام الله ليس بحرفٍ ولا صوتٍ، والكلام الحقيقيُّ هو كلام النَّفْسِ، فالأصوات والحروف إنَّما وضعت دلالاتٌ على كلام النَّفْسِ، ومَنْ قلتَ له: «اكتب أرضًا، أو فرسًا، أو آدميًّا» فكتب الَّذِي أمليتَ عليه في ورقةٍ أو لَوحٍ، ثمَّ زَعَم أنَّ الأرض والسَّماء والفرس هو المكتوب في الورقة، فاقطع طَمَعَك عن عقله واقْضِ بحَمَاقَته، ومَنْ زَعَم أنَّ حَرَكة شَفَتيه أو صوته أو كتابته بيده في الورقة هو عينُ كلام الله القائم بذاته فقد زعم أنَّ صِفَة الله قد حلَّت بذاته، ومَسَّت جوارحه، وسكنت قلبه، وأي فرق بين مَنْ يقول هذا، وبين مَنْ يزعُم مِنَ النَّصارى أنَّ الكلمة اتَّحدت بـ «عيسى» ﷺ؟). انتهى كلامه، كذا في «حاشية كتاب الأسماء والصِّفَات» «للبَيْهَقِيِّ» ص٢٥٥ و«حاشية السيف الصقيل» ص٧٠[3].

---

(١) إحياء علوم الدين، ١/ ٣٩٩ـ ٤٠٠. إتحاف السادة المتقين، ٢/ ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) اسم الكتاب: المنهاج في شعب الإيمان، وهو مطبوع بتحقيق: حلمي محمد فودة، دار الفكر، ط١ ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م. ولم أقف فيه على النص المذكور. والحليمي هو القاضي أبو عبدالله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني، ولد سنة ٣٣٨هـ، توفي سنة ٤٠٣هـ.

(٣) السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل، ص٦٤.

وقال ابن حزم[1] في «المِلل والنِّحَل»: (أجمع أهل الإسلام على أنَّ الله تعالى كلَّم «موسى»، وعلى أنَّ القُرْآن كلام الله، وكذا غيره من الكتب المنزَّلة والصُّحف، ثمَّ اختلفوا، فقالت المُعْتَزِلَة: إنَّ كلام الله صِفَة فعلٍ مخلوقةٌ، وأنَّه كلَّم «موسى» بكلامٍ أحدثه في الشَّجرة. وقال «أحمد» ومَن تبعه: كلام الله هو علمه لم يزل، وليس بمخلوقٍ. وقالت الأَشْعَرِيَّة: كلام الله صِفَة ذاتٍ لم يزل، وليس بمخلوقٍ، وهو غير علم الله، وليس لله إلا كلامٌ واحدٌ. واحتُجَّ «لأحمدَ» بأنَّ الدَّلائل القاطعةَ قامت على أنَّ الله لا يشبهه شيءٌ مِنْ خلقه بوجهٍ من الوجوه، فلما كان كلامُنا غيرَنا، وكان مخلوقًا، وجب أنْ يكون كلامُه سبحانه ليس غيرهَ، وليسَ مخلوقًا)[2]. وأطال في الرَّدِّ على المخالفين، كذا في «فتح الباري» ص٣٨٠ ج١٣، باب: قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣][3].

فدَلَّ هذا الكلام أنَّ الكلام القديم في نظر الإمام «أحمدَ بن حَنْبَل» و«ابن حزمٍ» هو المعنى القائم بالله سبحانه، بمعنى الكلام النَّفْسِيِّ في علم الله تعالى، وقد صَحَّ عن «أحمدَ بن حَنْبَل» قولُه في المناظرة: القُرْآن مِنْ عِلْمِ الله، وعِلْمُ الله غيرُ مخلوقٍ. والقُرْآن باعتبار الوجود العلميِّ شاملٌ للفظ والمعنى جميعًا؛ لأنَّ كليهما في علم الله ﷻ، وهو معنىً قديمٌ قائمٌ بذات الله تعالى يُلْفظ ويُسْمع بالنَّظْم الدَّالِّ عليه، ويُحْفَظ بالنَّظْم المُخيَّل، ويُكْتَبُ بنقوشٍ وأشكالٍ موضوعةٍ للحروف الدَّالَّة عليه، ومع ذلك ليس

---

(١) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، ولد سنة ٣٨٤هـ، من كتبه: «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، و«المحلى بالآثار»، و«جمهرة الأنساب»، توفي سنة ٤٥٦هـ.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، ٣/ ٤، مكتبة الخانجي ـ القاهرة.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

حالًّا في المصاحف ولا في القلوب والألسنة والآذان، كما تقدَّم عن «الإمام أبي حنيفة النُّعمان»، عليه الرحمة والرِّضوان.

واعتُرض على هذا بأنَّ ما قاله «ابن حزم» مخالفٌ لما نَقَل «عبدُالله بن أحمدَ»[1]، عن أبيه في كتاب «السُّنَّة» قال: سألت أبي عن قوم يقولون: لمَّا كلَّم الله «موسى» لم يتكلَّم بصوتٍ. فقال لي أبي: بل تكلَّم بصوتٍ. والجواب عنه ـ إنْ صح هذا ـ أنَّ مرادَه أنَّ «موسى» سَمِعَ كلامَ الله بصوتٍ دالٍّ على كلامه، كما ذكره «المَاتُريديُّ» في كتاب «التَّأويلات». فالحرف والصَّوت إنَّما كان في سماعه ﷺ، لا في كلامه تعالى.

ثمَّ قال «ابن حزم» ما حاصله: إنَّ قولنا: «القُرْآن». وقولنا: «كلام الله» لفظ مشتركٌ، يُطْلَق على خمسة أشياء:

١. الصَّوت المسموع الملفوظ به، أي العبارات الدَّالة على كلام الله المسموعة لنا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]. ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

٢. والمعنى المفهوم مِنْ ذلك الصَّوت؛ فإنَّه قرآنٌ وكلامُ الله حقيقةً، فإنَّا إذا فسَّرنا الزَّكاة والصَّوم والحجَّ، قلنا في كلِّ هذا: هذا كلام الله وهو القُرْآن.

٣. والمُصْحَف المرسوم، أي النُّقوش الكتابيَّة الدَّالَّة عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ

---

(١) هو أبو عبد الرحمن عبدالله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ البغدادي، ولد سنة ٢١٣هـ، من كتبه: «الزوائد» على كتاب «الزهد» لأبيه، و«زوائد المسند» زاد به على مسند أبيه نحو عشرة آلاف حديث، و«مسند أهل البيت»، و«الثلاثيات»، توفي سنة ٢٩٠هـ.

لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة: ٧٧ـ٧٨]. ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢ ـ ٣]. وفي الحديث: «لا تسافروا بالقُرْآن إلى أرض العدو».

٤. والمستقَرُّ المحفوظ في الصُّدور من الألفاظ المخيَّلة، وهو القُرْآن، وهو كلام الله حقيقةً لا مجازًا، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] وقد أمرَ النَّبيُّ ﷺ بتعاهُد القُرْآن، وقال: «إنَّه أشدُّ تَفَصِّيًا من صدور الرِّجال من النَّعَم مِنْ عَقْلِها.

٥. والمعنى القديم القائم بذات الله تعالى، وهو علمُه الَّذِي سلف بما يأمر وينهى، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥]. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩] فإنَّما عَنَى به سابق علمه الَّذِي سلف بما ينفِّذُه ويقضيه.

فهذه خمسة معانٍ للقرآن، يُطْلَق على كلٍّ معنى منها أنَّه قرآنٌ، وكلام الله ﷻ حقيقةً لا مجازًا، بنصِّ الكتاب والسُّنَّة، الأربعة الأُوَل منها حادثةٌ مخلوقةٌ، والخامس منها قديمٌ غيرُ مخلوقٍ؛ فإنَّ الصَّوت واللِّسان حادثٌ كما هو ظاهرٌ؛ لأنَّه هواءٌ مندفعٌ من الحَلْق والصَّدْر والحَنَك واللِّسان والأسنان والشَّفتين وكلُّ ذلك مخلوقٌ وحادثٌ بلا شك. وأمَّا المُصْحَف فإنَّما هو ورقٌ من جلود الحيوان، ومن مِدادٍ مُؤَلَّفٍ من صَمْغٍ وماءٍ، وكلُّ ذلك مخلوقٌ، وكذلك حَرَكة اليد في خطِّه، وحركة اللِّسان في قراءته، واستقرار ذلك في النفوس، هذه كلها أعراضٌ مخلوقةٌ. وأمَّا عِلْم الله تعالى فلَمْ يَزَل، وهو كلام الله تعالى، وهو القُرْآن، وهو غير مخلوق. ولمَّا كان اسم القُرْآن يقع على خمسة أشياءٍ وقوعًا مستويًا صحيحًا، منها أربعةٌ مخلوقةٌ، وواحدٌ غير مخلوقٍ وهو المعنى الخامس؛ فإنَّ الألسنة وصدور أهل العلم والمصاحف مخلوقةٌ مع ما فيها،

وأمَّا القديم فهو ما في علمه ﷻ وما قام به، دُونَ ما في الصُّدور والألواح والألسنة، وهذا ظاهر جدا. فإنَّ علمَ الله غيرُ مخلوقٍ، وكلامَ الله غيرُ مخلوقٍ، والقُرْآنَ غيرُ مخلوقٍ)[1].

انتهى المقصود من كلام «ابن حزم» مُلَخَّصًا ومختصرًا من كتابه؛ كتاب «الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل» ص٧ ج٣.

وَخلاصَة الكلام إنَّ القُرْآنَ له إطلاقاتٌ عديدةٌ كما علمت، فباعتبار إطلاقه على صِفَة قائمةٍ بذاته تعالى، قديمٌ غيرُ مخلوقٍ، سواء اعتبرتَ تلك الصفة معنى قائمًا به تعالى وهو مبدأ الكلام اللَّفْظيِّ، أو اعتبرتَ صورةً علميَّةً في علم الله القديم، فإلى الأوَّل جنح الجمهور، وإلى الثَّاني ذهب «أحمد بن حَنْبَل» و«ابن حزم». وباعتبار بقيَّة الإطلاقات مُحْدَثٌ كائنٌ بعد أنْ لم يكن.

قال الإمام أبو عبدالله البُخَارِيُّ في «خلق الأفعال»: أمَّا ما احتج به الفريقان لمَذْهَب «أحمد»، ويدَّعيه كلٌّ لنفسه، فليس بثابتٍ كثيرٌ من أخبارهم، وربَّما لم يفهموا دقَّة مَذْهَبه، بل المعروف عن «أحمد» وأهل العلم أنَّ كلامَ الله غيرُ مخلوق، وما سواه مخلوق، وأنَّهم كرِهوا البحث والتَّنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنَّبوا الكلام والخوض والتَّنازع إلَّا فيما جاء فيه العلم وبيَّنه رسول الله ﷺ)[2] انتهى كلامه، كذا في «فتح الباري» ص٤١١ ج١٣ باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢][3].

❁ ❁ ❁

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٣/ ٥ ـ ٦.

(٢) خلق أفعال العباد، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، ص٦٢، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار المعارف السعودية ـ الرياض.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٩٣.

ذكر ما احتجَّ به الحَنَابِلَة لإثبات الحرف والصَّوت في الكلام القديم مع الجواب عنه

قال الحافظ العَسْقَلَانِيُّ: (اختلف أهل الكلام في أنَّ كلام الله هل هو بحرفٍ وصوتٍ أو لا؟ فقالت المُعْتَزِلَة: لا يكون الكلام إلَّا بحرفٍ وصوتٍ، والكلام المنسوب إلى الله قائمٌ بالشَّجرة. وقالت الأَشَاعِرَة: كلامُ الله ليس بحرفٍ ولا صوتٍ، وأثبتت الكلامَ النَّفْسِيَّ، وحقيقتُه معنىً قائمٌ بالنَّفْسِ وإن اختلفت عنه العبارة كالعربيَّة والعجميَّة، واختلافها لا يدل على اختلاف المُعبَّر عنه، والكلامُ النَّفْسِي هو ذلك المعبَّر عنه. وأثبتت الحَنَابِلَة أنَّ الله متكلِّمٌ بحرفٍ وصوتٍ، أمَّا الحروف فللتصريح بها في ظاهر القُرْآن، وأمَّا الصَّوت فمَنْ منع قال: إنَّ الصَّوت هو الهواء المنقطع المسموع من الحنجرة. وأجاب مَنْ أثبته بأنَّ الصَّوت الموصوفَ بذلك هو المعهود من الآدميين كالسَّمع والبصر، وصفات الرَّبِّ بخلاف ذلك، فلا يلزم التَّشبيه، فلا يلزم المحذور المذكور مع اعتقاد التَّنزيه وعدم التَّشبيه، وأنَّه يجوز أنْ يكون مِنْ غير الحنجرة فلا يلزم التشبيه. وقد قال «عبدالله بن أحمد بن حَنْبَل» في كتاب «السُّنَّة»: «سألت أبي عن قومٍ يقولون: لما كلَّم الله «موسى» لم يتكلَّم بصوتٍ؟ فقال لي أبي: بل تكلَّم بصوتٍ»)[1]. كذا في «فتح الباري» ص٣٨٩ ج١٣.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٦٠.

وقال السَّفارينيُّ[1]: (مَذْهَب أئمة الحديث في ذلك أنَّ الحقَّ جلَّ شأنه يتكلَّم بحرفٍ وصوتٍ، لا يشبهان صوتَ مخلوقٍ ولا حرفَه بوجهٍ ألبتةَ، منزِّهين الله تعالى عمَّا لا يليق بجلاله من شبهات الحدوث وسمات النَّقص، كما قالوا في سائر الصِّفَات، مع اعتقادهم الجازم الَّذِي لا يعتريه شكٌّ ولا وهمٌ ولا خيالٌ، نفيُ التَّشبيه والتَّمثيل والتَّحريف والتَّعطيل، بل يقولون في صِفَة الكلام كما يقولون في سائر الصِّفَات: إثباتٌ بلا تمثيلٍ، وتنزيهٌ بلا تعطيلٍ، كما عليه سلف الأُمَّة وفحول الأئمَّة، فهو حقُّ اليقين بلا محالٍ، وهل بعد الحق إلا الضَّلال؟ وقال أيضًا: إنَّ مَذْهَب الحَنَابِلَة كسائر السَّلَف أنَّ الله يتكلَّم بحرفٍ وصوتٍ)[2]. كذا في «شرح العقيدة السَّفارينية» ص١٢١ ج١.

فهذا مَذْهَب الحَنَابِلَة، واحتجُّوا لإثبات الحرف والصَّوت في كلامه القديم بوجوهٍ، فلنذكرها مع ما أجاب عنها ساداتُ المُتَكَلِّمِين والأَوْلياء والعارفين، وقد بسط الكلام على ذلك الإمام «أبو بكر البَاقِلَّاني» في كتابه «الإنصاف»، فلنذكر خلاصته مع زياداتٍ اقتبسناها من كلام العلماء الرَّبَّانيِّين الرَّاسخين في العلم.

الوجه الأوَّل من الوجوه الَّتي احتجوا بها على أن الكلام القديم بالصَّوت والحرف: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. قالوا: والَّذِي يُسْمَع إنَّما هو صوتٌ وحرفٌ، وقد نَسَبه إليه، فدلَّ ذلك على أنَّه متكلِّمٌ بصوتٍ وحرفٍ؛ لأنَّ الصِّفة الأَزَليَّة لا يمكن سماعها.

---

(١) هو شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، ولد سنة ١١١٤هـ، من كتبه: «الدراري المصنوعات في اختصار الموضوعات»، و«كشف اللثام شرح عمدة الأحكام»، و«غذاء الألباب شرح منظومة الآداب»، و«التحقيق في بطلان التلفيق»، توفي سنة ١١٨٨هـ.

(٢) لوامع الأنوار البهية، ١/ ١٤٣.

الجَواب عَنه إنَّ هذه الآية حجَّةٌ عليكم، وذلك أنَّ كلَّ عاقلٍ يقول: إنَّ المشرك لا يسمع كلام الله بلا واسطةٍ وهي قراءة القارئ، فلا بُدَّ مِنْ وجود القراءة الَّتي هي حروفٌ وأصواتٌ، فحينَئِذٍ يحصل لهذا المشرك السَّماع لكلامه، ولا يخفى أنَّ المسموع المدرَك في هذا الوقت إنَّما هو الصَّوت، فإذا سُمِّيَ كلامُ الله مسموعًا فالمعنى به كونُه مفهومًا معلومًا عن أصواتٍ مدركةٍ مسموعةٍ، والشَّاهد لذلك من القضايا الشَّرعيَّة إجماع الأُمَّة على أنَّ الرَّبَّ تعالى خصَّص «موسى» ﷺ وغيرَه من المصطفِين من الإنس والملائكة بأنْ أسمعَهم كلامَه العزيزَ من غير واسطةٍ، فلو كان السَّامع لقراءة القارئ مدرِكًا لنفس كلام الله لمَا كان «موسى» ﷺ مخصَّصًا بالتَّكليم[1]. كذا في كتاب «الإنصاف» ص١١٨، وكتاب «الإرشاد» ص١٣٤.

الجوَاب الثَّاني إنَّ المراد بهذه الآية ما هو سماع الحروف والأصوات، وإنَّما المراد بهذه الآية حتَّى يتدبَّرَ كلامَ الله ويفهمَ ما فيه، لعلَّه أنْ يرجع عَنْ شِركه ويهتدي.

الجوَاب الثَّالث هو أنْ يقال لهم: إذا كان الكلام القديم أصواتًا وحروفًا، والكلام المخلوق ـ الَّذِي مِن الشِّعر والخُطَب ـ أصواتًا وحروفًا، فقد صار الكلام القديم كالكلام المخلوق، وهذا القول يُوجِب أنْ يكون كلامٌ قديمٌ أو مُحْدَثٌ سواءً؛ لأنَّ الحروف والأصوات في الكلامين سواءٌ، فثبت أنَّ الحرف والصَّوت أداةٌ يُقْرَأ بها الكلام القديم، لا أنَّ الحرف والصَّوت نفسُ الكلام القديم.

والجواب الرَّابع هو أنْ يقال لهم: خبِّرونا عن قولكم: إنَّ الله متكلِّم بأصواتٍ وحروفٍ، أهي هذه الحروف والأصوات الجارية الدَّائرة في سائر كلام الخَلْق أو غيرها؟

---

(١) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص١١٣ ـ ١١٤، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ص١٥٤.

فإن قالوا: «هي هذه» فقد جعلوا جميعَ كلام الخَلْق قديمًا كلَّه. وإنْ قالوا: «بل هي غيرُ هذه الحروف والأصوات الجارية في كلام الخَلْق» قلنا: فإذًا ليس عندنا كلامُ الله تعالى، بل هو غائبٌ منَّا، وكذلك يجب أن لا يكون في المُصْحَف قرآنٌ؛ لأنَّ الحروف فيه هي الحروف المعهودة الجارية في خطوط الخَلْق. وكلُّ هذين القولين باطلٌ. فثبت أنَّ الحروف والأصوات أدواتٌ يُقْرَأ بها الكلام القديم، ويُكْتَب بها الكلام القديم، لا أنَّها نفس الكلام القديم، وأنَّ الكلامَ القديمَ يُفْهَم بالحروف المنظومة على اختلاف نَظْمِها بين أرباب تلك الخطوط والأشكال، فكذلك صَحَّ أنَّ القراءةَ هي حروفٌ وأصواتٌ يُسْمَع بها كلام الله القديم على حسب اللُّغات بين أربابها، لا أنَّها نفس كلامه القديم[1]. وهذا كله من كتاب «الإنصاف» للإمام البَاقِلَّاني.

والوجه الثَّاني من الوجوه الَّتي احتجَّت بها الحَنَابِلَة على إثبات قِدَم الحروف، وأنَّ كلامَه القديم يتَّصف بالحروف: ما رُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ: (أُنْزِلَ القُرْآنُ على سبعة أحرفٍ)[2].

وَالجوَابُ: إنَّ المراد به اختلاف القراءات، فإنَّ الاختلاف إنَّما يجري في صِفَة القراءة لا في الكلام القديم، والرَّسول ﷺ أخبرَ أنَّ القُرْآن يُقْرَأ على سبع لغاتٍ، فالقراءات سبعٌ والمقروء واحدٌ، وهو كلام الله القديم الَّذِي لا يُشْبِه كلام الخَلْق، ولا يختلف في حالٍ مِن الأحوال، وإن اختلفت القراءات، فافهم التَّحقيق تَرْشُد إنْ شاء الله

---

(١) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص١١٤ ـ ١١٥.

(٢) متفق عليه، انظر: صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، حديث ٥٠٤٣، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف وبيان معناه، حديث ١٩٣٦.

تعالى[1]. كذا في «الإنصاف» ص١٢٧.

وَالوجه الثَّالث ما رُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ: (مَنْ قرأ القُرْآن فله بكلِّ حَرْفٍ عَشْر حسناتٍ)[2].

وَالجوَاب إنَّ الحرف راجعٌ إلى القراءة والتِّلاوة، لا إلى كلام الله القديم، فإنَّ الأجرَ إنَّما يقع على الطَّاعة الَّتي هي القراءة، لا على القديم الَّذِي هو كلام الله تعالى، فالحرف في الحديث عائدٌ إلى القراءة لا إلى المقروء. كذا في «الإنصاف» ص[3]١٢٨. فالحرف في قراءة القارئ والصَّوت فِعْلُ القارئ فلا وجه لاحتجاجه[4]. كذا في «السَّيْف الصَّقيل» ص٦٥.

والوجه الرابع: ما رُوِيَ في الحديث: (إذا كان يوم القيامة نادى الله بصوتٍ يَسْمَعه من بَعُدَ، كما يَسْمَعه مَنْ قَرُبَ)[5]، فقد أضاف الرَّسول ﷺ الصَّوت إلى الله تعالى.

---

(١) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص١٢٠ ـ ١٢٢ بتلخيص من المصنف.

(٢) روي باللفظ الآتي: «أعربوا القرآن، فإنه من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات، وكفارة عشر سيئات، ورفع عشر درجات»، المعجم الأوسط للطبراني، ٧/ ٣٠٧، حديث ٧٥٧٤.

وأقوى منه سندا حديث: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف». سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر، حديث ١٣٥٨.

(٣) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص١٢٢ ـ ١٢٣ بتلخيص من المصنف.

(٤) السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل، ص٦٠.

(٥) أورده البخاري معلقا بلفظ: «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قرب، أنا الملك أنا الديان»، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

وَالجوَاب عنه: إنَّ هذا حديثُ «جابرٍ» ذكره «البُخَارِيُّ» تعليقًا بصيغةٍ، ويُذْكَر أي بصيغة التَّمريض، إشارةٌ إلى أنَّه ضعيفٌ ليس من شرطه، كما هو عادته في الأحاديث المعلَّقة على ما قاله «ابن حجر». ومدارُه على «عبدالله بن مُحمَّد بن عقيل»[1]، وهو ضعيفٌ.

قال الإمام البَيْهَقِيُّ: (هذا حديثٌ تَفَرَّدَ به «القاسم بن عبد الواحد»[2]، عن «ابن عقيل»، و«القاسم بن عبد الواحد بن أيمن المَكِّيِّ» لم يَحْتَجّ بهما الشَّيخان «أبو عبدالله البُخَارِيُّ» و«أبو الحسين مُسْلِم بن الحجَّاج النَّيسابوريُّ»[3]، ولم يُخْرِجَا هذا الحديث في الصَّحيح بإسناده، وإنَّما أشار «البُخَارِيُّ» إليه في ترجمة الباب، واخْتَلَف الحُفَّاظ في الاحتجاج بروايات «ابن عقيل» لسُوء حفظه.

ولم يَثبتْ صِفَة الصَّوت في كلام الله ﷻ، وفي حديثٍ صحيحٍ عن النَّبيِّ ﷺ غيرُ حديثه، وليس بنا ضرورةٌ إلى إثباته، وقد يجوز أنْ يكون الصَّوت فيه ـ إنْ كان ثابتًا ـ راجعًا إلى غيره، كما رُوِّيناه عن «عبدالله بن مسعود» موقوفًا ومرفوعًا: (إذا تكلَّم الله بالوحي سَمِعَ أهل السَّماء صلصلةً كجر السِّلْسِلَة على الصَّفا)[4]. وفي

---

(١) هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب الهاشمي المدني، توفي سنة ١٤٥هـ.

(٢) هو القاسم بن عبد الواحد بن أيمن المَكِّيّ، توفي سنة ١١٢هـ وقيل: ١١٨هـ.

(٣) هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوريّ، ولد سنة ٢٠٤هـ، أشهر كتبه: «صحيح مسلم»، و«المسند الكبير»، و«الجامع»، و«الكنى والأسماء»، و«الأفراد والوحدان»، و«أوهام المحدثين»، و«الطبقات»، و«أفراد الشاميين»، و«التمييز»، و«العلل»، توفي سنة ٢٦١هـ.

(٤) في سنن أبي داود مرفوعا بلفظ: «إذا تكلَّم الله بالوحي سَمِعَ أهل السَّماء للسماء صلصلةً كجر السِّلْسِلَة على الصَّفا... إلخ»، كتاب السنة، باب في القرآن، حديث ٧٤٤٠.

حديث «أبي هريرة» عن النَّبيِّ ﷺ: (إذا قضى الله الأَمْر في السَّماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعَانًا لقوله، كأنَّه سلسلةٌ على صَفْوَان)[1]. ففي هذين الحديثين دلالةٌ على أنَّهم يسمعون عند الوحي صوتًا لَكِنْ للسَّماء ولأجنحة الملائكة، تعالى الله عن شَبَه المخلوقين علُوًّا كبيرًا.

وأمَّا الحديث الَّذِي ذكره «البُخَارِيُّ»، عن «عمر بن حفص»[2]، عن أبيه[3]، عن «الأعمش»[4]، عن «أبي صالح»[5]، عن أبي سعيد، قال: قال: رسول الله ﷺ: (يقول الله: يا آدم. فيقول: لبَّيك وسعديك. فينادى بصوت: إنَّ الله ﷻ يأمرُك أنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتك بَعْثًا إلى النَّار)[6]، فهذا اللَّفظ تَفَرَّدَ به «حفصُ بن غياث»، وخالفه «وكيع»[7] و«جرير»[8] وغيرهما من أصحاب «الأعمش»، فلم يذكروا[9] فيه لفظ الصَّوت. فقد سُئِل «أحمدُ بن حَنْبَل» عن «حَفْص»، فقال: كان يَخْلِطُ في حديثه. ثُمَّ إنْ كان حَفِظَه

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، حديث ٧٥٧١.

(٢) هو عمر بن حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي، توفي سنة ٢٥٠هـ.

(٣) هو حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي، توفي سنة ١٩٥هـ أو ١٩٦هـ.

(٤) هو أبو محمد سليمان بن مهران الملقب بالأعمش: ولد سنة ١٦هـ توفي سنة ١٤٨هـ.

(٥) هو أبو صالح ذكوان السَّمَّان الزَّيَّات، توفي سنة ١٠١هـ.

(٦) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، حديث ٧٥٧٤.

(٧) هو أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي، ولد سنة ١٢٩هـ توفي سنة ١٩٧هـ.

(٨) هو أبو النضر جرير بن حازم بن زيد البصري، توفي سنة ١٧٠هـ.

(٩) قال الحافظ: وأشار في موضع آخر، أنَّ الرَّاوي أراد: فينادى نداء، فعبَّر عنه بقوله: بصوت أهـ. «فتح الباري» ص٣٨٣ ج١٣. [المصنف]. وفي النسخة التي بيدي: ١٣/ ٤٥٨.

ففيه ما دلَّ على أنَّ هذا القول لآدم يكون على لسان مَلَكٍ يناديه بصوتٍ: (إنَّ الله تعالى يأمرك) فيكون قوله: (فينادى بصوت) يعني ـ والله أعلم ـ يناديه ملك بصوت، وهذا ظاهر في الخبر، وبالله التَّوفيق)[1]. كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» «للإمام البَيْهَقِيّ» ص٢٧٣ وص ٢٧٤.

فَتَحَصَّل مِنْ كلامه جوابان: الأوَّل: إنَّ هذا حديثٌ ضعيفٌ. والثَّاني: إنَّ الإسنادَ فيه مجازيٌّ. وقد أخرج «الدَّار قطني»[2]، عن «أبي موسى»: (يبعث الله يوم القيامة مناديًا بصوتٍ، يَسْمَعه أوَّلهم وآخرهم)[3]. كما في «حادي الأرواح» مع «إعلام الموقعين» ٣ـ ٩٧ [4]، فهذا يعني أنَّ الإسنادَ مجازيٌّ على تقدير ثبوت الحديثين.

قال الإمام أبو بكر البَاقِلَّاني: (إنَّ هذا الحديث قد رُوِيَ فيه ما يَدُلُّ على أنَّ الصَّوت مِنْ غير الله بأمره؛ لأنَّه رُوِيَ: «إذا كان يوم القيامة، جمع الله الخلائق في صعيد واحد، يَنْفُذُهُم البَصَر، ويُسْمِعُهم الدَّاعي، يَأْمُر مناديًا فينادي» فصَحَّ أنَّ النِّداء مِنْ غيره تعالى، لَكِنْ لمَّا كان بأمره أُضِيف النِّداء إليه، كما يقال: «نادى الخليفة في بغداد بكذا وكذا» أو يقال: «أَمَر الخليفة مناديًا فنادى بأمره في بغداد بكذا وكذا» ولا فرق بين الموضعين، فإنَّ كلَّ عاقلٍ يَعْلَم أنَّ الخليفة لم يُباشر النِّداء بنفسه، لكِنْ لمَّا

---

(١) الأسماء والصفات، للبيهقي، ص: ٢٦٣ ـ ٣٦٤.

(٢) هو أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي الدارقطني الشافعي، ولد سنة ٣٠٦هـ، من كتبه: «السنن»، و«العلل الواردة في الأحاديث النبويّة»، و«المؤتلف والمختلف»، توفي سنة ٣٨٥هـ.

(٣) رؤية الله، لأبي الحسن علي الدارقطني، تحقيق: إبراهيم محمد العلي، أحمد فخري الرفاعي، مكتبة المنار، الزرقاء ـ الأردن، عام النشر: سنة ١٤١١هـ.

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن قيم الجوزية، ص٢٩٠، ٣١٠، ٣٣١، مطبعة المدني.

كان بأَمْره جاز أنْ يضيفَه إلى نفسه، وأنْ يُضَاف إليه، وإنْ لم يَكُنْ هو المنادي بنفسه، ويُصحِّح جميعَ ذلك القُرْآنُ. قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١ ـ ٤٢] فأضاف النِّداء إلى المُنادِي، فصحَّ أنَّ الصَّوتَ صِفَة المُنادِي لا صِفَة الآمِر بالنِّداء. وقال تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] والطَّامس جبريل وميكائيل طَمَسَا أَعْيُنَ قوم لوط، لَكِنْ لمَّا كان بأمره أضافه إلى نفسه. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [طه: ١٠٢] على قراءةِ من قرأ بالنُّون المفتوحة، والنَّافخ إسرافيل. وكذلك يقال: «رَجَمَ وجَلَدَ رسول الله ﷺ» وإنَّما الرَّاجِم والجالد غيرُه، لَكِنْ لمَّا كان بأَمْرِه حَسُن أنْ يُضَاف إليه، فافهم الحقَّ لتُبْطِل به الباطل)[1]. كذا في «الإنصاف» ص١٢٩ إلى ص١٣١.

والوجه الخامس: ما رُوِيَ: (إنَّ الله تعالى إذا تكلم بالوحي) وفي رواية: (إذا قضى الله الأَمْر في السَّماء، جاء له صوتٌ كَجَرِّ السِّلْسِلَة على الصَّفَا). وفي رواية: (ضَرَبَت الملائكة بأجنحتها خُضْعَانًا لقوله، كأنَّه سِلْسِلةٌ على صَفْوَان)[2].

وَالجوَاب: إنَّ هذا الحديثَ حُجَّةٌ عليكم؛ لأنَّ هذا الصَّوت خلافُ ذلك الصَّوت الَّذِي في الخبر الأوَّل؛ لأنَّ ذلك قال فيه: (يَسْمَعه مَنْ بَعُدَ، كما يَسْمَعه مَنْ قَرُب)، وهذا الصَّوت إنَّما يَسْمَعه بعض الملائكة. فَصَحَّ أنَّ هذا الصَّوت خلافُ ذلك الصَّوت، ولو كان الصَّوت صِفَة قديمةً لما اختلف؛ لأنَّ القديم لا يجوز عليه الاختلاف ولا التَّغيُّر، فلمَّا اخْتَلَف وتغيَّر دلَّ على أنَّ ذلك صِفَة الخَلْق، لا صِفَة الحَقِّ، ويُؤَيِّد ذلك ما رَوَى «النَّوَّاس بن سمعان»، قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا تكَلَّم الله بالوحي أَخَذَت السَّماواتُ

---

(١) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص١٢٤ ـ ١٢٥ بتلخيص من المصنف.

(٢) سبق تخريج هذه الأحاديث في الوجه الرابع.

منه رَجْفَةٌ شديدةٌ مِنْ خوف الله تعالى، فإذا سَمِعَ بذلك أهلُ السَّماوات صُعِقُوا وخَرُّوا سُجَّدًا، وأَوَّل مَنْ يرفع رأسه جبريلُ ﷺ فتكلَّم الله مِنْ وحيه بما أراد، فينتهي به جبريل ﷺ على الملائكة، كلَّما مَرَّ بسماء سأل أهلُها: ماذا قال ربُّنا؟ فيقول جبريل: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣])[1].

فثبت أنَّ الصَّوت المشبَّه بالسِّلْسِلة صوتُ رجفةِ السَّماوات؛ لأنَّهم سَمِعُوا صوتَ رجفةَ السَّماوات لا كلامَ الله تعالى، ولهذا سألوا جبريل ﷺ «ماذا قال ربُّنا»، فَدَلَّ على أنَّهم لم يسمعوا كلامَه، وإنَّما سمِعوا صوتَ رجفة السَّماوات الَّتي شُبِّهَتْ بجَرِّ السِّلْسَلة؛ لأنَّهم لو سَمِعُوا كما سَمِعَ جبريل، لفَهِمُوا كما فَهِم جبريل، وليس في شيءٍ مِنْ هذه الرِّوايات: إذا تكلَّم الله سمعوا من الله صلصلةً، وإنَّما سَمِعُوا مِنَ السَّماء إذا أحدث الله فيه، وجَعل ذلك علامةً لأهل السَّماوات يعلمون بها أنَّ الله تعالى تكلَّم بالأَمْر، وأنَّ المخصوصَ بسماع كلامه جبريلُ ﷺ، ولهذا سألوه: «ماذا قال ربُّنا؟ قال: الحقَّ» فيَصِفُون الله تعالى بقول الحقِّ، لا بالصِّلْصَلة والصَّوت، فصار هذا الحديث حُجَّةً عليهم لا لهم[2]. كذا في «الإنصاف» ص١٣١.

❁ ❁ ❁

---

(١) مسند الشاميين للطبراني، ١/ ٣٣٦، حديث ٥٩١، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١ ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م. كتاب التوحيد لابن خزيمة، ١/ ٣٤٨، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، مكتبة الرشد ـ السعودية ـ الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

(٢) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص١٢٦ ـ ١٢٧ بتلخيص من المصنف.

الرَّدُّ على مَنْ قال إذا كان الكلام القديم غيرَ حالٍّ في المُصْحَف فما معنى تعظيمه

قال الإمام أبو بكر البَاقِلَّاني: (إن قيل: إذا كان الكلام القديم لا يَحُلُّ في المُصْحَف، فما معنى تعظيمُه وتوقيرُه عن الأدناس والأنجاس؟ وأن لا يحمل إلَّا على طهارة؟

فالجواب إنَّ هذا جهلٌ وتخبُّطٌ؛ لأنَّ توقيرَ المَحَلِّ والمكان لا يَدُلُّ على حلول القديم الَّذِي لا يُتَصَوَّر عليه الحلول، كما أنَّا نحترم المسجد ولا نَدْخُلُه إلَّا على طهارةٍ، ولا نُدْخِلُ إليه شيئًا نَجِسًا ولا قَذِرًا، ونُنَزِّهُه عن البَصْقَة والنُّخَامَة ـ وإنْ كانت طاهرةً ـ توقيرًا له وتعظيمًا، لا أنَّه حلَّ فيه قديمٌ. وكذلك الطَّواف بالبيت لا يَدُلُّ على أنَّه قديمٌ أو حلَّ فيه القديم. وكذلك الخطوط الَّتي يُكْتب بها القُرْآن والصُّحُف الَّتي يُكْتَب فيها نُوَقِّرُه ونُعَظِّمُه ونُنَزِّهُه أنْ يُمَسَّ إلَّا على طهارةٍ، ولا يُوجِب ذلك كونَ المِدادُ الأسودُ والصُّفْرةُ والحُمْرةُ قديمةً أو حَلَّ القديم فيها. وهذا أمرٌ واضحٌ لمَن له عقلٌ وتحصيلٌ إذا تأمَّله ونَظَر فيه)[1]. كذا في «الإنصاف» ص١٤١.

❁ ❁ ❁

(١) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص١٣٥.

فتاوى العلماء الأعلام في مَسألة الكَلام

قد تقدَّم أنَّ مَذْهَب الحَنَابِلَة أنَّ القُرْآن اسمٌ للنَّظْم والمعنى، وأنَّ الله يتكلم بحرفٍ وصوتٍ، وأنَّ هذه الحروف والأصوات قديمةُ العين، لازمةُ الذات، ليست متعاقبةً، بل لم تزل قائمةً بذاته سبحانه مقترنةً؛ إذ التَّعاقب إنَّما يكون في حقِّ المخلوق لا في حقِّ الخالق[1]. كذا في «فتح الباري» ص٣٨٠ ج١٣.

فنرى مِنَ النُّصح للمسلمين أنْ ننقل هنا أجوبةَ العلماء الأعلام في مسألة الكلام؛ لنكشف الغطاء عن وجه المرام، وهم: الإمام العِزُّ بن عبد السَّلام، والإمام جمال الدِّين أبو عمرو عثمان بن الحاجب المالكيُّ[2]، والإمام عَلَم الدِّين السَّخاوي مُؤَلِّف «جمال القُرَّاء»[3]، حين استفتوا في هذه المسألة[4].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٥٥.

(٢) هو جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، ابن الحاجب المالكي، ولد سنة ٥٧٠هـ، من كتبه: «الكافية» في النحو، و«الشافية» في الصرف، و«جامع الأمهات» في فقه المالكية، و«منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل» ومختصره، توفي سنة ٦٤٣هـ.

(٣) هو علم الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري السخاوي الشافعي، ولد سنة ٥٥٨هـ وتوفي سنة ٦٤٣هـ، والكتاب اسمه كاملا: جمال القراء وكمال الإقراء، والكتاب متخصص في علوم القرآن الكريم، وهو مطبوع أكثر من طبعة.

(٤) نقلنا صورة السؤال هذه وأجوبة العلماء عنها مِنْ: «تكملة الرَّد على نونيَّة ابن القيِّم» للعلاَّمة الكوثري ص٤٢. [المصنف].

* صورة السؤال:

ما يقول السَّادة الفقهاء ﷺ في كلام الله القديم القائم بذاته؟ هل يجوز أنْ يقال إنَّه عين صوت القارئ وحروفه المقطَّعة وعين الأشكال الَّتي يصوِّرُها الكاتب في المُصْحَف؟ وهل يجوز أنْ يقال إنَّ كلام الله القديم القائم بذاته حروفٌ وأصواتٌ على المعنى الظاهر فيها، وأنَّه عين ما جعله الله مُعْجِزَةً لرسوله ﷺ؟ وما الَّذِي يجب على مَنْ اعتقد جميع ذلك وأذاعه وغَرَّ به ضعفاء المسلمين؟ وهل يحِلُّ للعلماء المعتبرين إذا علموا أنَّ ذلك قد شاع أنْ يسكتوا عن بيان الحقِّ في ذلك وإظهاره والرَّدِّ على مَنْ أظهر ذلك واعتقده؟ أفتونا مأجورين.

* * *

* صورة جواب الإمام عز الدِّين بن عبد السلام:

القُرْآن كلام الله، صِفَةٌ من صفاته، قديمٌ بقِدَمه، ليس بحروفٍ ولا أصواتٍ، ومَنْ زَعَم أنَّ الوصف القديم هو عين أصوات القارئين وكتابة الكاتبين فقد أَلْحَد في الدِّين، وخالف إجماع المسلمين، بل إجماع العقلاء مِنْ غير أهل الدِّين. ولا يحِلُّ للعلماء كِتْمان الحقِّ، ولا تركُ البدع ساريةً في المسلمين، ويجب على ولاة الأَمْر إعانة العلماء المُنزِّهين المُوَحِّدين، وقمع المبتدعة المُشَبِّهين المُجَسِّمين. ومَنْ زَعَم أنَّ المُعْجِزَةَ قديمةٌ فقد جَهِل حقيقتها، ولا يَحِلُّ لولاة الأَمْر تمكين أمثال هؤلاء مِنْ إفساد عقائد المسلمين. ويجب عليهم أنْ يُلزموهم بتصحيح عقائدهم بمباحثة العلماء المعتبَرين، فإنْ لم يفعلوا أُلجئوا إلى ذلك بالحبس والضَّرب والتَّعزيز، والله أعلم. كتبه «عبد العزيز بن عبد السَّلام».

* صورة جواب الإمام جمال الدِّين أبي عمرو عثمان بن الحاجب المالكيِّ:

مَنْ زَعَم أنَّ أصوات القارئ وحروفه المتقطِّعة والأشكال الَّتي يُصَوِّرُها الكاتب في المُصْحَف هي نفس كلام الله تعالى القديم، فقد ارتكب بدعةً عظيمةً، وخالف الضَّرورة، وسقطت مكالمته في المناظرة فيه، ولا يستقيم أنْ يقال: إنَّ كلام الله تعالى القديم القائم بذاته هو الَّذِي جعله الله مُعْجِزَةً لرسوله؛ فإنَّ ذلك يُعْلَم بأدنى نَظَرٍ، وإذا شاع ذلك أو سُئِل عنه العلماء وجب عليهم بيان الحقِّ في ذلك وإظهاره. ويجب على مَنْ له الأَمْر ـ وفَّقه الله ـ أَخْذُ مَنْ يَعتقد ويَغُر به ضعفاءَ المسلمين، وزجرُه وتأديبُه وحَبسُه عن مخالطة مَنْ يُخاف منه إضلالُه إلى أنْ يُظهر توبته عن اعتقاد مثل هذه الخرافات الَّتي يأباها العقول السَّليمة، والله أعلم. كتبه «عثمان بن أبي بكر الحاجب».

* * *

* صورة جواب الإمام علم الدِّين أبي الحسن علي السَّخاويِّ:

كلام الله ﷻ قديمٌ، صِفَة من صفاته، ليس بمخلوقٍ، وأصوات القُرَّاء وحروف المصاحف أمرٌ خارجٌ عن ذلك، ولهذا يُقال: «صوتٌ قبيحٌ»، و«قراءةٌ غير حسنةٍ»، و«خطٌّ قبيحٌ غيرُ جيِّد». ولو كان ذلك كلامُ الله لم يَجُزْ ذمُّه على ما ذُكِر؛ لأنَّ أصوات القُرَّاء به تختلف باختلاف مخارجها، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن ذلك، والقُرْآن عندنا مكتوبٌ في المصاحف، مَتْلُوٌّ في المحاريب، محفوظٌ في الصُّدور، غير حالٍّ في شيءٍ من ذلك. والمُصْحَف عندنا مُعَظَّمٌ مُحْتَرَمٌ، لا يجوز للمُحْدِث مسُّه، ومَنْ اسْتَخَفَّ به أو ازدراه فهو كافرٌ مباحُ الدَّم. والصِّفة القديمة القائمة بذاته ﷻ ليست المُعْجِزَة؛ لأنَّ المُعْجِزَةَ ما تَحدَّى به الرَّسولُ ﷺ، وطالب بالإتيان بمثله. ومعلومٌ أنَّه لم يَتَحَدَّهم بصفة الباري

القديمة، ولا طالبهم بالإتيان بمثلها، ومَن اعتقد ذلك وصرَّح به أو دعا إليه فهو ضالٌّ مبتدعٌ، بل خارجٌ عمَّا عليه العقلاء إلى تخليط المجانين. والواجب على علماء المسلمين إذا ظهرت هذه البدعة إخمادُها وتبيين الحق، والله أعلم. «علي السَّخاويُّ»[1].

❁ ❁ ❁

(١) السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل، ص٤٤ ـ ٤٥.

بيان الفرق بين
القراءة والمقروء والتِّلاوة والمتلوّ

ذهب أهل الحقِّ إلى أنَّ القراءةَ غيرُ المقروء، والتِّلاوةَ غيرُ المتلوِّ، والكتابةَ غيرُ المكتوب؛ لأنَّ المقروءَ كلامُ الله، وليست القراءةُ كلامَه، بل هي صِفَة القارئ، وكذلك الحِفظ صِفَة الحافظ، والمحفوظ كلام الله، وكذلك الكتابة صِفَة الكاتب وصَنْعتُه، والمكتوب كلام الله، كما أنَّ الذِّكر صِفَة الذَّاكر، والمذكور هو الله تعالى، وكذلك العبادة من الصَّلاة والصَّوم والحجِّ صِفَة للعابد، وهي في أنفسها مختلفةُ الصِّفَات متغايرةٌ، والمعبودُ بها واحدٌ ليس بمختلفٍ، وفي هذا كفايةٌ لمَنْ سَلِم له التَّصوُّر والفهم، وكذلك القراءات مُخْتَلفةٌ مُتَنوِّعةٌ، والمقروء واحدٌ لا يجوز عليه الاختلاف والتَّنوُّع. راجع ص١٠٨ من كتاب «أصول الدِّين» لـ «عبد القاهر البغداديِّ»[1]، وص٩١ من كتاب «الإنصاف» «للإمام البَاقِلَّاني»[2].

قال البَاقِلَّاني: (وزعمت المُشَبِّهَة أنَّ القراءةَ هي المقروء، والتِّلاوة هي المتلوُّ، وزَعَموا أنَّ القديم يَحُلُّ في المُحْدَث ويختلط به، ولا يخفى أنَّ هذا القول بدعةٌ

---

(١) أصول الدين، لعبد القاهر البغدادي، ص١٠٨، مطبعة الدولة ـ استنابول ـ تركيا، ١٣٤٦هـ ١٩٢٨م. والمؤلف هو أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبدالله البغدادي التميمي الأسفراييني، من كتبه: «أصول الدين»، و«الملل والنحل»، توفي سنة ٤٢٩هـ.

(٢) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص٨٨.

عظيمةٌ)[1]. كذا في «الإنصاف» ص١١٢.

قال إمام الحرمين: (القراءة عند أهل الحقِّ أصواتُ القُرَّاء ونغماتُهم، وهي أكسابهم الَّتي يؤمرون بها في حالٍ؛ إيجابًا في بعض العبادات، وندبًا في كثير من الأوقات، ويُزْجَرون عنها إذا أَجْنَبُوا، ويُثابون عليها، ويعاقبون على تركها، وهذا ممَّا أجمع عليه المسلمون، ونطقت به الآثار، ودلَّ عليه المستفيض من الأخبار، ولا يتعلَّق الثَّواب والعقاب إلَّا بما هو مِن اكتساب العباد. ويستحيل ارتباط التَّكليف والتَّرغيب والتَّعنيف بصِفَةٍ أَزَلِيَّةٍ خارجةٍ عن الممكنات وقَبِيل المقدورات. والقراءة هي الَّتي تُسْتطاب مِنْ قارئٍ وتُسْتَبْشَع مِنْ آخَرَ، وهي الملحونة والقويمة المستقيمة، وتَنَزَّه عن كلِّ ما ذكرناه الصِّفَة القديمة. وأمَّا المقروء بالقراءة فهو المُفْهَم منها المعلوم، وهو الكلام القديم الَّذِي تَدُلُّ عليه العبارات وليس منها، ثمَّ المقروء لا يَحُلُّ القارئَ ولا يَقُوم به، وسبيل القراءة والمقروء كسبيل الذِّكر والمذكور، فالذِّكر يرجع إلى أقوال الذَّاكرين، والرَّبُّ المذكور المُسَبَّح المُمَجَّدُ غير الذِّكر والتَّسبيح والتَّمجيد. والعَرَب وَضَعَت أنواعَ الدَّلالات على المدلولات بالعبارات؛ فَسَمَّت الإنباءَ عن الشِّعر إنشادًا، والإنباء عن الغائبات الَّتي ليست من قَبيل الكلام ذِكْرًا، وسَمَّت الدَّلالة على كلام الله تعالى بالأصوات قراءةً)[2]. كذا في كتاب «الإرشاد» ص١٣٠.

❁ ❁ ❁

(١) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ص١٥٠ ـ ١٥٢.

مسألة لفظي بالقُرْآن مخلوقٌ

اعلم أنَّ هذه المسألةَ هي المشهورة بمسألة اللَّفظ، ويقال لأصحابها اللَّفْظيَّة، واشتدَّ إنكار «الإمام أحمد» ومَن تبعه على مَن قال: «لفظي بالقُرْآن مخلوقٌ». ويقال: إنَّ أوَّل مَنْ قاله «الحسين بن عليٍّ الكرابيسي»[1]، أَحَدُ أصحاب «الإمام الشَّافعيِّ»، فلمَّا بلغ ذلك «أحمدَ» بدَّعه وهَجَره. ثمَّ قال بذلك «داودُ بن عليٍّ الأصبهانيُّ»[2] رأسِ الظَّاهرية، وهو يومئذٍ بنيسابور، فأنكر عليه «إسحاق بن راهويه»، وبلغ ذلك أحمدَ، فلمَّا قَدِم بغدادَ لم يأذنْ له في الدُّخول عليه. وجَمَعَ «ابن أبي حاتمٍ» أسماءَ مَنْ أَطْلَق على اللَّفْظيَّة أنَّهم جهميَّةٌ، فبلغوا عددًا كثيرًا مِن الأئمَّة، وأَفْرَد لذلك بابًا في كتابه «الرَّدّ على الجَهْمِيَّة» والَّذِي يَتَحَصَّل مِنْ كلام المُحقِّقين أنَّهم أرادوا حَسْمَ المادَّة صونًا للقُرْآن أَنْ يُوصَفَ بكونه مخلوقًا، وإذا حُقِّق الأَمْر لم يُفْصِح أحدٌ منهم بأنَّ حَرَكة لسانه إذا قرأ قديمةٌ.

وقال البَيْهَقِيُّ في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص٢٦٤: مَذْهَب السَّلَف والخلف مِنْ أهل الحديث والسُّنَّة أنَّ القُرْآنَ كلامُ الله، وهو صِفَة من صفاتِ ذاته، ليست ببائنةٍ مِنهُ. أمَّا التِّلاوة فهم على طريقتين: مِنْهُم مَنْ فَرَّق بين التِّلاوة والمتلوِّ، ومِنْهُم مَنْ أحبَّ تركَ القول فيه. وأمَّا ما نُقِل عن «أحمد بن حَنْبَل» أنَّه سَوَّى بينهما؛ فإنَّما أَرَادَ حَسْمَ

---

(١) هو أبو علي الحسين بن علي يزيد الكرابيسي، نسبة إلى الكرابيس (وهي الثياب الغليظة) كان يبيعها، توفي سنة ٢٤٨هـ.

(٢) هو أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري، ولد سنة ٢٠١هـ توفي سنة ٢٧٠هـ.

المادَّة لئلَّا يَتَذَّرع أحدٌ إلى القول بخَلْقِ القُرْآن). ثمَّ أسند مِن طريقين إلى «أحمدَ» أنَّه أنكر على مَنْ نُقِل عنه أنَّه قال: «لفظي بالقُرْآن غيرُ مخلوقٍ» وأنكر على مَنْ قال: «لفظي بالقُرْآن مخلوقٌ» وقال: «القُرْآن كيفَ تَصرَّف غيرُ مخلوقٍ» فأَخَذَ بظاهر هذا الثَّاني مَنْ لم يَفْهم مُرادَه، وهو مُبَيَّنٌ في الأوَّل.

وقال عبدالله بن مُحمَّد بن ناجية[1]: سمعت «عبدَالله بن أحمد بن حَنْبَل»، يقول: سمعت أبي يقول: (مَنْ قال: «لفظي بالقُرْآن مخلوق» يريد به القُرْآنَ فهو كافرٌ) قال البَيْهَقِيُّ: هذا تقييدٌ حَفِظَه عنه ابنه «عبدالله». وهو قوله: «يريد به القُرْآن» فقد غفل عنه غيره[2].

وظنَّ بعضُهم أنَّ «البُخَارِيَّ» خالف «أحمدَ»، وليس كذلك، بل مَنْ تدبَّر كلامَه لم يَجِدْ فيه خلافًا معنويًّا، لَكِنَّ العالِمَ مِنْ شأنه إذا ابْتُلِيَ في رَدِّ بدعةٍ يكون أكثرُ كلامه في رَدِّها دُونَ ما يقابلها، فلمَّا ابْتُلِي «أحمدُ» بمَنْ يقول: «القُرْآن مخلوقٌ» كان أكثرَ كلامه في الرَّدِّ عليهم، حتَّى بالغ فأنكر على مَنْ يَقِف ولا يقول: «مخلوق» ولا «غير مخلوق» وعلى مَنْ قال: «لفظي بالقُرْآن مخلوقٌ» لئلَّا يَتَذَّرع بذلك مَنْ يقول: «القُرْآن بلفظي مخلوقٌ» مع أنَّ الفرق بينهما لا يخفى عليه، لكنه قد يخفى على البعض.

وأمَّا «البُخَارِيُّ» فابْتُلِيَ بمَنْ يقول: «أصوات العباد غيرُ مخلوقةٍ» حتَّى بالغ بعضهم، فقال: «والمِدَاد والوَرَق بعد الكتابة» فكان أكثرُ كلامه في الرَّدِّ عليهم، وبالغ في الاستدلال بأنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ بالآيات والأحاديث، وغرضُه الرَّدُّ على مَن لم يفرِّق بين التِّلاوة والمتلوِّ. ولم يُنقَل عن «أحمدَ» قط أنَّ فِعْلَ العبد قديمٌ ولا صوتَه،

---

(١) هو عبدالله بن محمد بن ناجية البربريّ الأصل البغدادي، توفي سنة ٣٠١هـ.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٥٥ ـ ٢٥٧ بتصرف وتلخيص من المصنف.

وإنَّما أنكرَ إطلاقَ اللَّفظ. وصرَّح «البُخَارِيُّ» بأنَّ أصوات العباد مخلوقةٌ. وإنَّ «أحمدَ» لا يخالف ذلك، ولكنَّهم لم يفهموا مُرادَه ومَذْهَبه. والمعروف عن «أحمدَ» وأهل العِلْم أنَّ كلامَ الله تعالى غيرُ مخلوقٍ، وما سِوَاه مخلوقٌ، لكنَّهم كَرِهُوا التَّنقيبَ عن الأشياء الغامضة، وتجنَّبُوا الخوض فيها والتَّنازعَ، إلَّا ما بيَّنه الرَّسول ﷺ. وقد نصَّ «أحمد» في كتاب «الرَّدّ على الجَهْمِيَّة»: (إنَّ القُرْآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، وأنَّه لم يزَل يتكلَّم إذا شاء)[1].

وافترق أصحابُه فرقتين: منهم مَن قال: «هو لازمٌ لذاته، والحروف والأصوات مقترنةٌ لا متعاقبةٌ، ويَسْمَع كلامَه مَن شاء». وأكثرهم قال: «إنَّه متكلِّمٌ بما شاء متى شاء، وأنَّه نادى «موسى» ﷺ حين كلَّمه، ولم يَكُن ناداه مِنْ قَبْل». انتهى كلام «الحافظ العَسْقَلَانِيِّ» مختصرًا في باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢][2]، من كتاب التَّوحيد في «فتح الباري» ص٤١٠ ج[3]١٣.

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل، ص١٣٩، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، ط١.

(٢) اعلم أنَّ هذا الباب أوَّلُ بابٍ عقده البُخَارِيُّ للرَّدِّ على مَن لم يُفرِّق بين التِّلاوة والمتلوِّ، وأتبع هذا الباب بالتَّراجم المتعلِّقة بذلك؛ مثل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦] وباب: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ [الملك: ١٣]. ثمَّ بوَّب في آخر الجامع الصَّحيح بابًا مترجمًا ذكر قراءة الفاجر والمنافق وأنَّ أصواتهم لا تجاوز حناجرهم، فإنَّ قراءة الفاجر قائمةٌ بالفاجر، مخلوقةٌ لله تعالى. وأتبعه بباب آخر، ذكر فيه حديثَ: «كلمتان خفيفتان على اللِّسان، ثقيلتان في الميزان» مراده بهذا الاستدلال على أنَّ الثِّقَل في الميزان، والخِفَّةَ على اللِّسان متعلِّقٌ بفِعْل العبد وكسبه، وهو صوته، وتلفُّظه لا يعود إلى ما قام بالرَّبِّ تعالى من صفاته وكلامه. كذا في «الصَّوَاعِق المرسلة» ص٣٠٩ ج٢. [المصنف].

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٩٣.

والحاصل أنَّ مقصود «الإمام أحمد بن حَنبَل» بالإنكار على مَنْ قال: «لفظي بالقُرْآن مخلوقٌ» أنَّ اللفظَ يراد به أمران: أحدهما: الملفوظ نفسُه، وهو غير مقدورٍ للعبد، ولا فعلٌ له. والثَّاني: التَّلفُّظ به والأداء، وهو فِعل العبد. فإطلاق الخَلْق على اللَّفظ قد يُوهِم المعنى الأوَّل وهو خطأٌ، وإطلاق نفي الخَلْق قد يُوهِم المعنى الثَّاني وهو خطأٌ. فمَنَع الإطلاقين؛ فالإمام «أحمدُ» سدَّ الذَّريعة حيث مَنَع إطلاقَ لفظ المخلوق نفيًا وإثباتًا على اللَّفظ، و«أبو عبدالله البُخَارِيُّ» ميَّز وفصَّل وأشبع الكلام في ذلك، وفرَّق بين ما قام بالرَّبِّ سبحانه وبين ما قام بالعبد، وأوقع المخلوقَ على تلفُّظ العباد وأصواتهم وحركاتهم وأكسابهم، ونفى اسمَ الخَلْق مِن الملفوظ وهو القُرْآن، وقد شَفَى في هذه المسألة في كتاب «خلق أفعال العباد»، وأتى بما يُزيح الشُّبهةَ ويُوضِّح الحقَّ[1].

كذا في «الصواعق المرسلة» ص٣٠٦ ج٢ إلى ص٣١٤ ج٢.

❁ ❁ ❁

(١) لم أقف على هذا النص.

خاتمة الكلام وفذلكة المَرَام

إنَّ القُرْآن له إطلاقاتٌ: يُطْلَق على الصِّفة القائمة بالذَّات العليَّة، ويُطْلَق على ما يُقْرأ بألسنتنا، ويُطْلَق على ما هو مكتوبٌ في مصاحفنا، ويُطْلَق على قراءة العبد؛ فمنهم مَن يقول: «هذا كلُّه مخلوقٌ حادثٌ» ومنهم مَن يقول: «هذا كلُّه قديمٌ غير مخلوقٍ» وأبان الحقَّ في ذلك «الإمام أبو حنيفة» فقال: «ما بالله غيرُ مخلوقٍ، وما بالخَلْق مخلوقٌ». يريد أنَّ كلامَ الله باعتبار قيامه بذات الله سبحانه صِفَة له كبقية الصِّفَات في القِدَم، وأمَّا باعتبار قيامه بألسنة التَّالينَ، وأذهان الحافظين، وبأوراق المصاحف من الأصوات والصُّور الذِّهنيَّة والنقوش الكتابية فهو مخلوقٌ؛ حَامليها وقارئيها وحافظيها وكاتبيها. إذْ مِنَ المُحال أنْ يكون القديم حالًّا في الحادث، فلا بُدَّ مِن الاعتراف بخَلْقِ ما بالخَلْق.

وذلك لأنَّ أوَّلَ مَنْ أتى بخَلْقِ القُرْآن هو «الجَعْدُ بن دِرْهَم»[1] في سنة نيِّفٍ وعشرين، فافتتن به ناسٌ، فشايعه مشايعون، ونافره منافرون، وقالوا في معاكسته بقدم الكلام اللَّفْظيِّ، ولمَّا رأى «أبو حنيفة» ذلك تدارك الأَمْر وأبان الحقَّ، فقال: «ما بالله الحقِّ غيرُ مخلوقٍ، وما بالخَلْق مخلوقٌ» أراد بذلك أنَّ كلامَ الله باعتبار قيامه بذات الحقِّ سبحانه صِفَة له قديمةٌ غيرُ مخلوقٍ مثل بقيَّة الصِّفَات، وباعتبار قيامه بألسنة القُرَّاء وأذهان الحُفَّاظ والمصاحف حادثٌ ومخلوقٌ، فاستقرَّت آراء أهل العلم والفهم على ذلك بعده، وتابعه مَنْ جاء بعده مِنْ أهل العلم والفهم وأهل النظر والفكر.

---

(١) هو الجعد بن درهم، قتل نحو سنة ١١٨هـ.

و«الإمام أحمد» تكلَّم بكلامٍ مجملٍ؛ حيث قال: «القُرْآن كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ حيث تَصرَّف» فظنَّ كثيرٌ مِنْ أصحابه أنَّ كلَّ ما له تعلُّقٌ بالقُرْآن فهو قديم. بل مراده: إنَّ القُرْآنَ كلامُ الله على كلِّ حالٍ؛ سواءٌ ظَهَرَ على ألسنتنا، أو على مصاحفنا، لكن القُرْآن مِنْ حيث إنَّه كلام الله قائمٌ بذاته وصِفَةٌ من صفاته، وفي علمه قديمٌ غير مخلوقٍ، وما قام بألسنتنا، وما كتب في مصاحفنا فهو مِنْ حيث قيامه بذات الحادث حادثٌ؛ إذْ لا يمكن قيامُ الأَمْر القديم بالحادث، فما قام بالقديم هو قديمٌ، وما قام بالحادث فهو حادثٌ، وكيفَ وأنَّ الحروف والألفاظ باعتبار وجودها اللَّفْظيِّ متعاقبةٌ لا يَتَصَوَّر العاقل فيها القِدَم، وإنَّما يُتَصَوَّر القِدَم في الحروف القديمة الغيبيَّة باعتبار وجودها العلميِّ والنَّفْسِي. وبذلك قال «أحمد بن حَنْبَل»، وتابعه «ابنُ حزمٍ»، وهو الموافق لتحقيق أهل النَّظَر والبَصَر.

قال ابن عساكر[1]: (قال «ابن أبي زيدٍ»[2] في الرد على تشنيع «عليِّ بن أحمد البغداديِّ»[3] عَلَى «الأَشْعَرِي» في مسألة اللفظ: «والقارئ إذا تلا كتابَ الله لو جاز

---

(١) هو ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي، ولد سنة ٤٩٩هـ من كتبه: «تاريخ دمشق»، و«الإشراف على معرفة الأطراف» في الحديث، و«تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري»، و«كشف المغطى في فضل الموطا»، توفي سنة ٥٧١هـ.

(٢) هو أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني المالكي، ويقال له: مالك الصغير، ولد سنة ٣١٠هـ من كتبه: «النوادر والزيادات على ما في المدونة من الأمهات»، و«مختصر المدونة»، وكتاب «الرسالة» المشهورة، و«الذب عن مذهب مالك»، توفي سنة ٣٨٦هـ.

(٣) هو علي بن أحمد بن إسماعيل البغدادي المعتزلي، كان ينتحل مذهب مالك ويقول بالاعتزال وكان داعية إلى ذلك، وكتب إلى فقهاء القيروان رسالة يدعوهم فيها إلى الاعتزال والقول بالقدر ويقول لهم: إن هذا مذهب مالك ويذم طريقة الأشعري ويبدعه فأجابه ابن أبي زيد بما يرد عليه.

أنْ يُقال: «إنَّ كلامَ هذا القارئ كلامُ الله على الحقيقة» لفسد هذا؛ لأنَّ كلامَ القارئ مُحْدَثٌ؛ لأنه يفنى كلامه ويزول، وكلام الله ليس بِمُحْدَثٍ ولا يفنى، وهو صِفَة من صفاته، وصِفَته لا تكون صِفَة لغيره، وهذا قولُ «مُحمَّد بن إسماعيل البُخَارِيِّ»، و«داود الأصبهانيِّ»، وغيرهما ممَّنْ تكلَّم في هذا، وكلامُ «مُحمَّد بن سُحْنون»[1] إمام المغرب، وكلام «سعيد بن مُحمَّد بن الحدَّاد»[2] ـ وكان مِن المُتَكَلِّمِين مِن أهل السُّنَّة، وممَّن يَرُدُّ على الجَهْمِيَّة ـ. ثمَّ ذَكَر حكاية «أحمد ابن حَنْبَل» مع «أبي طالبٍ»، حين بَلَغه أنَّ «أبا طالبٍ» قد حَكَى عنه أنَّه يقول: «لفظي بالقُرْآن غيرُ مخلوقٍ» فطلبه، فلما حَضَر وقَعَد بين يديه ـ وهو يرعَد متغير الوجه ـ قال له «أبو عبدالله»: حكيتَ عنِّي أنِّي قلتُ: لفظي بالقُرْآن غيرُ مخلوقٍ؟ قال: إنَّما حكيتُ عن نفسي. فقال له: لا تَحْكِ هذا عنك ولا عنِّي، فما سمعت عالمًا يقول هذا. وقال له: القُرْآن كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ حيث تَصَرَّف). كذا في «تبيين كذب المفتري فيما نَسَب إلى الإمام أبي الحسن الأَشْعَرِيِّ» «لابن عساكر» ص٤٠٧ وص ٤٠٨ [3]. وهذه الحكاية قد أوردها «الإمام البَيْهَقِيُّ» في

---

(١) هو أبو عبدالله محمد بن عبد السلام (سحنون) بن سعيد بن حبيب التنوخي، ولد سنة ٢٠٢هـ، من كتبه: «آداب المعلمين»، و«أجوبة محمد بن سحنون»، و«الحجة على القدرية»، توفي سنة ٢٥٦هـ.

(٢) هو أبو عثمان سعيد بن محمد الغساني، ويقال له ابن الحداد: ولد سنة ٢١٩هـ، كان كثير الرد على أهل البدع والمخالفين للسنة. واشتهر بجدله مع بعض علماء الدولة الفاطمية، توفي سنة ٣٠٢هـ.

(٣) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن، المعروف بابن عساكر، ص٧٠٠ ـ ٧٠١، تحقيق: أنس محمد عدنان الشرقاوي، دار التقوى ـ دمشق، ط١ ١٤٤٠هـ ٢٠١٨م.

كتاب «الأسماء والصِّفَات» في ص٢٩٥ [1].

فهذا أصل قول «أحمد بن حَنْبَل» ومذهبه، والحَنَابِلَة فَهِموا مِنْه ما فَهِمُوا ونَسَبوه إلى الإمام «أحمد بن حَنْبَل» وهو مُبَرَّأٌ عنه، ومَن استقرأ كلامَ «أحمد بن حَنْبَل» وجدَه أنَّه لم يَزِد على «إنَّ القُرْآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ» وأعلن بذلك جِهارًا ردًّا على الجَهْمِيَّة، وتوقَّف عن القول «لفظي بالقُرْآن مخلوقٌ» وأنكر على مَنْ نَسَب إليه هذا القول؛ لئلَّا يكون ذريعةً إلى القول بخَلْقِ القُرْآن. والحَنَابِلَة زادوا على ما قال «الإمام أحمد»، ونسبوا أيضًا إليه ما لم يَقُلْه، فإنَّهم نسبوا إليه أنَّ القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، وهذا القدر حقٌّ، ونسبوا إليه أيضًا أنَّ ما نقرؤه ونسمعه ونكتبه هو عين كلام الله القديم، وقالوا: «هذا قول «أحمد بن حَنْبَل»» وقد أخطأوا فيه، فإنَّه لم يَقُل ذلك؛ إذْ قد تواتر عن «الإمام أحمد» أنَّه كان يقول: «القُرْآن مِنْ عِلْم الله، وعِلْم الله غير مخلوق، فالقُرْآن غير مخلوقٍ» وهذا دليلٌ على أنَّه كان يريد بالقُرْآن ما هو قائمٌ بذاته سبحانه في علمه القديم، لا ما هو قائمٌ بألسنتنا الحادثة، ولا ما هو محفوظٌ في صدورنا، ولا ما هو مكتوبٌ في مصاحفنا، وإنَّما مراده بقوله: «القُرْآن كلام الله حيث تصرَّف» أي أنَّه قرآنٌ، وكلام الله وصِفَته في كلِّ حالٍ وفي كلِّ شأنٍ، سواءٌ ظَهَر في الأوراق، أو ظهر على اللِّسان، فهو قديمٌ باعتبار الوجود العلميِّ، لا باعتبار هذا الوجود اللَّفْظيِّ أو الكتابيِّ، فمَذْهَب «أحمد بن حَنْبَل» أنَّ القُرْآنَ باعتبار وجوده في علم الله بحروفٍ غيبيَّة قدسيَّةٍ غيرِ متعاقبةٍ قديمٌ غيرُ مخلوقٍ، لا باعتبار وجوده على ألسنة القُرَّاء.

ثمَّ جاء الإمام «الأَشْعَرِيُّ» وفصَّل القول فيه، وقسَّم الكلام إلى اللَّفْظيِّ والنَّفْسِيِّ، وسَلَك في تحقيق المسألة مسلك الإمام «أبي حنيفة النُّعمان»، فقال: إنَّ القُرْآنَ كلامُ الله

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٥٦.

قديمٌ غيرٌ مخلوق، لكن له وجوداتٌ ومراتب؛ فمِنْ حيثُ إنَّه معنىً نفسيٌّ قائمٌ بالحق سبحانه قديمٌ غيرُ مخلوقٍ، ومِنْ حيثُ إنَّه قائمٌ بالألسنة الكونيَّة، ومحفوظٌ في الصُّدور اللَّحميَّة، ومكتوبٌ في الأوراق الرَّقيقة حادثٌ ومخلوقٌ، وأنَّ القُرْآنَ قرآنٌ في جميع هذه المراتب، لا يجوز نفيه ولا إنكاره. فكلام «الإمام أبي حنيفة» في مسألة الكلام هو أوَّلُ كلامٍ رفع الحجاب عن حقيقة هذه المسألة، وفرَّق بين ما قام بالحقِّ وبين ما قام بالخَلْق، ثمَّ تابعه أهل الحقِّ. و«الأَشْعَرِيُّ» إنَّما جاء مُفَسِّرًا أو شارحًا لقول «أبي حنيفة»، حيث قال: إنَّ القُرْآنَ كلامُ الله غيرُ مُغَيَّرٍ ولا مُبَدَّلٍ ولا مخلوقٍ ولا حادثٍ، ولكنَّ المظاهر الَّتي ظهر فيها القُرْآن هي حادثةٌ ومخلوقةٌ. وحاشا «أحمد بن حَنْبَل» أنْ يقول: إنَّ هذه المظاهر غيرُ مخلوقةٍ وغيرُ حادثةٍ، وحاشا وحاشا أنْ يقول: إنَّ المسموعَ من أصوات القُرَّاء ونغماتهم هو عين كلام الله القديم القائم بذاته ﷻ.

وقال التاج السُّبْكيُّ[1]: سمعتُ الوالدَ الإمامَ يقول: ما تَضَمَّنَتْهُ عقيدة «الطَّحاويِّ»[2] هو ما يعتقده «الأَشْعَرِيُّ»، لا يخالف إلَّا في ثلاث مسائل.. إلخ[3]. كذا في «الإتحاف»

---

(١) هو قاضي القضاة أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، ولد سنة ٧٢٧هـ، من كتبه: «طبقات الشافعية الكبرى»، و«معيد النعم ومبيد النقم»، و«جمع الجوامع»، و«منع الموانع» تعليق على جمع الجوامع، و«الأشباه والنظائر»، و«الطبقات الوسطى»، و«الطبقات الصغرى»، توفي سنة ٧٧١هـ. ولد أبوه سنة ٦٨٣هـ وتوفي سنة ٧٥٦هـ.

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي، كان شافعيًّا ثم تحول حنفيًّا، ولد سنة ٢٣٩هـ، وهو ابن أخت المزني. من كتبه: «شرح معاني الآثار»، و«مشكل الآثار»، و«أحكام القرآن»، و«المختصر» في الفقه، و«الاختلاف بين الفقهاء»، و«مناقب أبي حنيفة»، توفي سنة ٣٢١هـ.

(٣) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، ٢/ ٧. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين=

ص٧ج٣، وكذا في «الطبقات الكبرى» ٢٦١ ج٣.

وكذلك السَّلَف فغاية ما جاء عنهم أنَّ الله يتكلَّم بحرفٍ وصوتٍ يليقان بشأنه، لا يُشْبِهان حروفَ العبد وأصواته، وأنَّه لا يتكلَّم بصوتٍ وحرفٍ كحرفنا وصوتنا، وإنَّ القُرْآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، ولم يزيدوا على هذا القول، ولم يُرْوَ عنهم أنَّ تلك الحروف والأصوات القائمة بألسنتنا مع تواليها وتعاقبها كانت ثابتةً في الأزل قائمةً بذات الباري ﷻ، وأنَّ ما يُسْمَع مِنْ أصوات القُرَّاء هو نفس كلام الله تعالى القديم وعَيْنُهُ.

وبالجملة القُرْآنُ كلام الله ﷻ، قديمٌ غيرُ مخلوقٍ، لكن لمَّا أنزله من جَنَاب قُدْسِه، أنزله في لباسِ الحدوث وكِسْوة الإمكان، فالحُدُوثُ يرجع إلى هذه الحُلَّة والكِسْوة، لا إلى المعنى القُدْسيِّ الَّذِي قام برب الخليقة، والقُرْآن مُعْجِزَةٌ باعتبار هذه الكِسْوة الحادثة أي النَّظْم العربيِّ، لا باعتبار أنَّه كلامٌ قُدْسِيٌّ غيبيٌّ قائمٌ بذاته ﷻ. فثبت أنَّ مَذْهَب «الإمام أبي حنيفة النُّعمان» في مسألة القُرْآن هو مَذْهَب الصَّحابة والتابعين لهم بإحسانٍ، وهو مَذْهَب «الإمام أحمد بن حَنْبَل». و«الإمام الأَشْعَرِيُّ» شارحٌ لقول «الإمام أبي حنيفة»، وموافقٌ له لفظًا ومعنى، وهو مَذْهَب السَّلَف الصَّالحين، رحمة الله عليهم أجمعين، وعلينا معهم، يا أرحم الرَّاحمين.

قال «العَلَّامَة الكوثري» في «حاشيته على السيف الصقيل»: (والحَامل لأهل الحقِّ على القول بالكلام النَّفْسِيِّ هو إجماع التَّابعين على القول بأنَّ القُرْآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوق، فخرَّجوا إجماعَهم على هذا الوجه المعقول، وإلَّا لمَا صحَّ قولهم، وتسفيه أحلام التابعين جميعًا لا يَصدر إلَّا مِنْ مُجَازِفٍ، فالفرق بين ما هو قائمٌ بالخَلْق والمعنى

= عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، ٣/ ٣٧٧، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٣هـ.

القائم بالله سبحانه هو المَخْلَص الوحيد عن الإشكالات والمحالات العقلية في هذه المسألة، فاللَّفْظيُّ حديثٌ، والنَّفْسِيُّ قديمٌ، كما أشار إليه إمام الأئمة «أبو حنيفة»، وتابعه أهل الحقِّ)[1]. ص١٧٤.

(١) السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل، ص١٣٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ذِكْرُ أدلَّة أهل السُّنَّة والجماعة على أنَّ القُرْآنَ كلامُ اللّه غيرُ مخلوق

الدَّليل الأوَّل: قال الإمام البَيْهَقِيُّ في كتاب «الاعتقاد»: القُرْآن كلام الله، وكلام الله صِفَة من صفات ذاته، وليس شيءٌ من صفات ذاته مخلوقًا ولا مُحْدَثًا ولا حادثًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فلو كان القُرْآن مخلوقًا لكان مخلوقًا بـ «كُن». ويستحيل أنْ يكون قولُ الله لشيءٍ بقولٍ؛ لأنه يُوجب قولًا ثانيًا وثالثًا فيتسلسل وهو فاسد. كذا في «فتح الباري» ص٣٨٩ ج١٣ باب قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣][1]. وكتاب «الأسماء والصِّفَات» ص١٧٠ للبَيْهَقِيِّ، وكتاب «الاعتقاد» للبَيْهَقِيِّ ص٣٢[2].

وَالدَّليل الثَّاني: قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]. قال الإمام[3]: أثبت الأَمْر لله مِنْ قَبْل جميع الأشياء، فلو كان أمرُ الله مخلوقًا لَزِم حصول

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٥٤.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٥٩، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث للبيهقي، ص٩٥، تحقيق: أحمد عصام، دار الآفاق ـ بيروت، ط١، ١٤٠١هـ.

(٣) هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، ولد سنة ٥٤٤هـ، من كتبه: «مفاتيح الغيب»، و«معالم أصول الدين»، و«المسائل=

الأَمْر قَبْل نفسه، وهو محالٌ[1]. كذا في «معالم أصول الدِّين»، ص٥٣، وليراجع «فتح الباري» ٤٤٥ ج١٣ باب قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦][2].

قال الإمام البَيْهَقِيُّ: (هذا وإنْ كان نزوله على سببٍ خاصٍّ فظاهره يَدُلُّ على أنَّ أمرَه قَبْل كلِّ شيءٍ سواه، ويبقى بعد كُلِّ شيءٍ سواه، وما هذا صِفَته لا يكون إلَّا قديمًا)[3]. كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص١٧٢.

وَالدَّليل الثالث: قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. قال الإمام: ميَّز بين الخَلْق والأمرِ، فوجب أن لا يكون الأَمْر داخلًا في الخَلْق[4]. كذا في «معالم أصول الدِّين».

أخرج «ابن أبي حاتمٍ» في كتاب «الرَّدّ على الجَهْمِيَّة» مِنْ طريق «بشَّار بن موسى»[5]، قال: كنَّا عند «سفيان بن عيينة»[6]، فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾

= الخمسون في أصول الكلام»، و«المباحث المشرقية»، و«أساس التقديس»، و«المطالب العالية»، والمحصول في علم الأصول»، و«نهاية العقول في دراية الأصول»، توفى سنة ٦٠٦هـ.
فائدة جليلة: إذا أطلق في كتب الكلام والأصول «الإمام» فالمراد به الفخر الرازي، وإذا أطلق «الشيخ» فهو الإمام أبو الحسن الأشعري، وإذا أطلق «القاضي» فهو أبو بكر الباقلاني، وإذا أطلق «الأستاذ» فهو أبو إسحاق الإسفراييني.

(١) معالم أصول الدين، للفخر الرازي، ص٦٥، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتاب العربي.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٥٣٣.

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٢٤.

(٤) معالم أصول الدين، ص٦٦.

(٥) هو أبو عثمان بشار بن موسى الشيباني الخفاف العجلي البغدادي، توفي سنة ٢٢٨هـ.

(٦) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، ولد سنة ١٠٧هـ، توفي سنة ١٩٨هـ.

[الأعراف: ٥٤]. فالخَلْق هو المخلوقات، والأَمْر هو الكلام. ومِنْ طريق «حمَّاد بن نعيم»[١]، قال: سمعت «سفيان بن عيينة»، وسئل عن القُرْآن مخلوقٌ هو؟ فقال: يقول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ ألا ترى كيف فرَّق بين الخَلْق والأمر؟ فالأَمْر كلامه، فلو كان كلامه مخلوقًا لم يُفرِّق. وسبق «ابنَ عيينة» إلى ذلك «مُحمَّد بن كعب القُرَظِي»[٢]، وتبعه «الإمام أحمد بن حَنْبَل»، و«عبد السَّلام بن عاصم»[٣]. أخرج كلَّ ذلك «ابن أبي حاتم» عنهم. كذا في «فتح الباري» ص٤٤٤ ج١٣ باب قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦][٤].

وَالدَّليل الرابع: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥] وأمر الله هو كلامُه. وقوله: فلمَّا أمرهما بالقيام فقامتا لا يَهْوِيان، كان قيامُهما بأمره، وقال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فالخَلْق جميع خلق داخلٍ فيه؛ لأنَّ الكلام إذا كان لفظُه عامًّا فحقيقتُه أنَّه عامٌّ، ولا يجوز لنا أنْ نُزِيل الكلام عن حقيقته بغير حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ، فلمَّا قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ كان هذا في جميع الخَلْق، ولمَّا قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ ذَكَر أمرًا غيرَ جميع الخَلْق، فدَلَّ ما وصفنا على أنَّ أمرَ الله غيرُ مخلوقٍ[٥].

---

(١) هو أبو نعيم حماد بن نعيم بن عبدالله بن يزيد بن روح بن سلامة الجذامي. من أهل فلسطين، قدم مصر، وكان ديِّنا عاقلا حافظا. روى عنه سعيد بن كثير بن عفير، وابن أبي حاتم يروي عن سعيد.

(٢) هو أبو حمزة محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي التابعي، توفي سنة ١١٧هـ أو ١١٨هـ.

(٣) هو عبد السلام ابن عاصم الجعفي الهِسِنْجاني الرازي، تتلمذ على أحمد بن حنبل. والهسنجاني نسبة إلى قرية من قرى الري يقال لها هسنكان، فعرب، وقيل لها: هسنجان.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣.

(٥) الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، ص٦٣ ـ ٦٤، تحقيق: =

كذا في كتاب «الإبانة» للإمام «الأَشْعَرِيِّ» رَحِمَهُ اللَّهُ ص٢٤.

وقال «البُخَارِيُّ» في كتاب «خلق أفعال العباد»: (خَلَق الله الخَلْق بأمره، وتواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ، أنَّ القُرْآنَ كلامُ الله، وأنَّ أمْرَ الله قبل مخلوقاته)[1]. كذا في «فتح الباري» ص٤٤٤ ج١٣، باب قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

والدَّليل الخامس: قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤] فهل يَتَوَهَّم مُسْلِمٌ يا ذَوي الحِجَا أنَّ الله سَخَّر الشَّمس والقمر والنُّجوم مسخَّراتٌ بخلقه[2]. كذا في كتاب «التَّوحيد» «لابن خزيمة»[3] ص١٠٧.

وقال «عبد العزيز بن يحيى المَكِّيِّ»[4] في مناظرته لـ «بِشْرٍ المَرِيسيِّ»[5]: أخبر الله تعالى عن الخَلْق أنَّه مُسَخَّرٌ بأمره، فالأَمْر هو الَّذِي كان الخَلْق مُسَخَّرًا به، فكيف يكون الأَمْر مخلوقًا؟[6] كذا في «فتح الباري» ص٤٤٥ ج١٣ باب قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

= د. فوقية حسين محمود، دار الأنصار ـ القاهرة، ط١، ١٣٩٧هـ.

(١) خلق أفعال العباد للبخاري، ص٦٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٥٣٣.

(٢) كتاب التوحيد لابن خزيمة، ١/ ٣٩٣.

(٣) هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي، ولد سنة ٢٢٣هـ، من كتبه: «التوحيد وإثبات صفة الرب»، و«صحيح ابن خزيمة»، توفي سنة ٣١١هـ.

(٤) هو عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز الكناني المكي، كان من تلاميذ الإمام الشافعي. يلقب بالغول، لدمامته. من كتبه: «الحيدة والاعتذار في رد من قال بخلق القرآن»، توفي سنة ٢٤٠هـ.

(٥) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي، العَدَوي بالولاء، وهو رأس الطائفة (المريسية) القائلة بالإرجاء، وإليه نسبتها. وقال برأي الجهمية، توفي سنة ٢١٨هـ.

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٥٣٣.

وَالدَّليل السادس: قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]. فلو كانت البِحَار مِدَادًا لنَفَدَت البِحَار ولم يَلْحَق الفناءُ كلماتِ ربِّي، كما لا يَلْحَق الفناءُ عِلمَ الله ﷻ، ومَنْ فَنِيَ كلامُه لحقته الآفات، وجَرَى عليه السُّكوت، فلمَّا لم يَجُزْ ذلك على رَبِّنا ﷻ صحَّ أنَّه لم يَزَل متكلِّمًا؛ لأنَّه لو لم يَكُن متكلِّمًا وجب السُّكوت والآفات، وتَعَالى ربُّنا عن قول الجَهْمِيَّة علُوًّا كبيرًا[1]. كذا في كتاب «الإبانة» ص٢٥، وكتاب «الاعتقاد» للبَيْهَقِيِّ ص٣٤.

وَالدَّليل السَابع: قوله ﷻ، مُخْبِرًا عن نفسه، أنه يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]. وجاءت الرِّواية أنَّه يقول فلا يَرُدُّ عليه أحدٌ شيئًا فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وإذًا كان ﷻ قائلًا مع فناء الأشياء؛ إذ لا إنسان ولا مَلَك ولا حَيٌّ ولا جانٌّ ولا شجرٌ ولا مَدَرٌ، فقد صَحَّ أنَّ كلامَ الله خارجٌ عن الخَلْق؛ لأنَّه يُوجَد ولا شيءٌ من المخلوقات موجودٌ[2]. كذا في كتاب «الإبانة» ص٢٧.

وَالدَّليل الثامن: قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١] فلو كان كلامُ الله لا يُوجَد إلَّا مخلوقًا لم يكن لاشتراط هذه الوجوه معنى؛ لأنَّ الكلامَ قد سَمِعَه جميعُ الخَلْق، ووجَدُوه بِزَعْم الجَهْمِيَّة مخلوقًا في غير الله ﷻ، وهذا يوجب إسقاط مرتبة النَّبيِّين صلوات الله وسلامه عليهم. ويجب عليهم إذا زعموا أنَّ كلام الله لموسى خَلَقَه في شجرةٍ أنْ يكون مَنْ سَمِعَ كلام الله ﷻ مِنْ مَلَكٍ أو نبيٍّ أتى به مِنْ عند الله أفضلَ مرتبةٍ في سماع الكلام مِنْ «موسى»؛ لأنَّهم سَمِعُوه مِنْ نبيٍّ، ولم يَسْمَعه «موسى» مِنَ الله ﷻ وإنَّما سَمِعَه مِن

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة، ص٦٧. الاعتقاد للبيهقي، ص٩٧.

(٢) الإبانة عن أصول الديانة، ص٧٢.

الشَّجرة. وأن يزعموا أنَّ اليهوديَّ إذا سَمِعَ كلام الله مِنْ نبيٍّ ﷺ أفضلُ مرتبةٍ مِن «موسى بن عمران»؛ لأنَّ اليهوديَّ سَمِعَه مِنْ نبيٍّ من أنبياء الله، و«موسى» سَمِعَه مخلوقًا في شجرةٍ. ولو كان مخلوقًا في شجرةٍ لم يكن مكلِّمًا لـ «موسى» مِنْ وراء حجابٍ، فإنَّ مَن حَضَر الشَّجرة مِن الجنِّ والإنس قد سَمِعوا الكلامَ مِنْ ذلك المكان، وكان سبيلُ «موسى» وغيره في ذلك سواءً في أنَّه ليس كلامُ الله له مِنْ وراء حجابٍ.

ثمَّ يقال لهم: إذا زعمتم أنَّ معنى أنَّ الله ﷻ كلَّم موسى أنَّه خلق كلامًا كلَّمه به، وقد خلق الله عندكم في الذِّراع كلامًا؛ لأنَّ الذِّراع قالت لرسول الله ﷺ: «لا تأكلني فإنِّي مسمومةٌ» فيلزمكم أنْ يكون ذلك الكلام الَّذِي سَمِعَ النبيُّ ﷺ كلامَ الله ﷻ، ويلزمكم أنْ يكون الله متكلِّمًا بالكلام الَّذِي خلقه في الذِّراع، والله ﷻ على قولكم هو القائل: «لا تأكلني فإنِّي مسمومةٌ» تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

ويلزمكم أن يكون الكلام الَّذِي أنطق الله به الذِّئبَ لمَّا أخبر عن نُبوَّة النَّبيِّ ﷺ كلامًا لله ﷻ، وإنْ زعموا أنَّ الذِّئب كان متكلِّمًا بذلك الكلام المفعول لزمهم أن يكون الشَّجرة متكلِّمةٌ بالكلام الَّذِي ذكره الله ﷻ.

ثمَّ يقال لهم: أليس قد قال الله ﷻ لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٨]؟ فلا بُدَّ مِن: نعم. فإذا كان كلامُ الله مخلوقًا وكانت المخلوقات فانياتٍ فيلزمكم إذا أفنى الله ﷻ الأشياء أنْ تكون اللَّعنة على «إبليس» قد فنيت، فيكون «إبليس» غيرَ ملعونٍ ـ وهذا تَرْك دين المسلمين ـ واللَّعنة كلام الله، وهو قوله: ﴿عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ وكلام الله لا يجوز عليه الفناء والعدم، كما أنَّ غضب الله ورضاه وسَخَطَه غيرُ مخلوقٍ، كذلك كلامُه غير مخلوقٍ[1]. كذا في كتاب «الإبانة» ص٩+٣٠+٣١

(١) الإبانة عن أصول الديانة، ص٧٥ ـ ٨٠. الاعتقاد للبيهقي، ص٨١ ـ ٨٢.

مُلَخَّصًا، وكذا في كتاب «الاعتقاد» للبَيْهَقِيِّ ص٣٣ مختصرًا.

وَالدَّليل التاسع: قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤] فخَصَّ القُرْآن بالتَّعليم لأنَّه كلامُه وصفتُه، وخَصَّ الإنسانَ بالتَّخليق لأنَّه خلقُه ومصنوعُه. ولولا ذلك لقال: «خَلَق القُرْآن والإنسان» فلم يجمع القُرْآن مع الإنسان في الخَلْق، بل أوقع اسم الخَلْق على الإنسان، والتعليم على القُرْآن[1]. كذا في «فتح الباري» ص٣٧٩ ج١٣، وكتاب «الأسماء والصِّفَات» ص١٧٠.

وقال الإمام عبد العزيز بن يحيى المكيُّ في مناظرته لِـ«بِشْرٍ»، ما مُلَخَّصه: إنَّ الله ﷻ ذكر الإنسان في ثمانيةَ عَشَر موضعًا مِن كتابه، وأخبر عن خَلْقه وقال: إنَّه مخلوقٌ. وذكر القُرْآن في أربعة وخمسين موضعًا، ولم يقل في موضع منها: «إنَّه مخلوق» ولا أشار إليه بشيءٍ مِن صفات الخَلْق. ثمَّ لمَّا جمع بين القُرْآن والإنسان في آيةٍ واحدةٍ فرَّق بينهما، فأخبر عن الخَلْق للإنسان، ونفى الخَلْق عن القُرْآن، فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤] ففَرَّق بين القُرْآن والإنسان[2]. انتهى مُلَخَّصًا. كذا في كتاب «الحَيْدَة» ص٥٥.

الدَّليل العاشر: قوله ﷻ مُخْبِرًا عن قول المشركين: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥] يعني القُرْآن، فمَن زَعَم أنَّ القُرْآن مخلوقٌ، فقد جعله قولًا للبشر،

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٢١. الاعتقاد للبيهقي، ص٩٤ ـ ٩٥، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٥٤.

(٢) الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن، لأبي الحسن عبد العزيز بن يحيى الكناني المكي، ص٨٥، تحقيق: علي بن محمد بن ناصر الفقهي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٢، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

وهذا ما أنكر الله على المشركين[1]. كذا في كتاب «الإبانة» ص٢٦.

الدَّليل الحادي عشر: ما أخرج البَيْهَقِيُّ باسناده عن «عقبة بن عامرٍ الجُهَنيِّ» ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢]. وقال رسول الله ﷺ: (إنكم لَن ترجعوا إلى الله بشيءٍ أحبَّ إليه مِن شيءٍ خرج مِنْه. يعني القُرْآن)[2]. كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص١٧٧.

وقال «مالكٌ»[3]: القُرْآن كلام الله مِن الله، وليس شيءٌ مِن الله مخلوق[4]. كذا في «مجموعة الفتاوى» «للحافظ ابن تيمية» ص٦٢ ج٥.

وقال «وكيع»: مَنْ زَعَم أنَّ القُرْآنَ مخلوقٌ فقد زَعَم أنَّ شيئًا مِن الله مخلوقٌ. فقيل له: مِن أين قلتَ هذا؟ قال: لأنَّ الله يقول: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣] ولا يكون مِن الله شيءٌ مخلوقٌ[5]. كذا في «مجموعة الفتاوى» ص٢٥٠ ج١ وص ٦٤ ج٨.

وقال «إسحاق بن راهويه»: كيف يكون شيءٌ مِن الرَّبِّ عزَّ ذِكْرُه مخلوقًا؟ ولو كان كما قالوا لَزِمَهم أنْ يقولوا: عِلْم الله وقدرتُه ومشيئتُه مخلوقةٌ[6]. كذا في «مجموعة الفتاوى» ص٢٥٠ ج١.

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة، ص٦٩ ـ ٧٠.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٣٠.

(٣) هو أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، ولد سنة ٩٣هـ، توفي سنة ١٧٩هـ.

(٤) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٦/ ٤٤٨.

(٥) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٥/ ٣٨، مجموع الفتاوى لابن تيمية، ١٢/ ٥١٧.

(٦) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٥/ ٣٨، مجموع الفتاوى لابن تيمية، ١٢/ ٥١٦.

الدَّليل الثَّاني عشر: ما أخرج «البَيْهَقِيُّ» عن «عثمانَ» ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: (فَضْل القُرْآن على سائر الكلام كفضل الله ﷻ على خلقه؛ وذلك أنَّه مِنْه)[1]. كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص١٧٨.

الدَّليل الثَّالث عشر: ما جاء في الحديث: (أعوذ بكلمات الله التَّامات مِنْ شَرِّ ما خَلَق) قال «البَيْهَقِيُّ»: (كلمات الله لا تنتهي إلى أمرٍ، ولا تُحْصَى بِعَددٍ، وقد نفى الله تعالى عنها النفاد، كما قال تعالى ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] كما نفى عن ذاته الهلاك، ثمَّ إنَّه لا يصلُح أنْ يستعيذ بمخلوقٍ مِن مخلوقٍ، فدَلَّ على أنَّه استعاذ بصِفَةٍ مِن صفات ذاته، وأَمَر أنْ يُسْتَعاذَ بصِفَةٍ مِن صفات ذاته، وهي غير مخلوقة، كما أمره الله تعالى أنْ يستعيذ بذاته، وذاته غير مخلوقٍ.

وإنَّما سمَّاها «تامَّةً» لأنَّه لا يجوز أن يكون في كلامه عَيبٌ أو نقصٌ، كما يكون ذلك في كلام الآدميِّين. وبلغني عن «أحمدَ بن حَنْبَل» أنَّه كان يَسْتَدِلُّ بذلك على أنَّ القُرْآنَ غيرُ مخلوقٍ، قال: «وذلك لأنَّه ما مِن مخلوقٍ إلَّا وفيه نقصٌ»[2]. كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص١٤٢.

قال الإمام الرَّازيُّ: (وَصَفَ كلمات الله تعالى بالتَّمام، والمُحْدَثُ لا يكون تامًّا)[3] أهـ. كذا في «المعالم». قال الإمام البَيْهَقِيُّ: (إنَّما سمَّاها تامَّةً؛ لأنَّه لا يجوز أنْ يكون في كلامه عَيبٌ أو نقصٌ، كما في كلام الآدميِّين)[4] أهـ.

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٣١.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي، ص١٨٤.

(٣) معالم أصول الدين، ص١٨٤.

(٤) الأسماء والصفات للبيهقي، ص١٨٤.

وفي «صحيح البُخَارِيِّ» عن «ابن عبَّاس» ﷺ، قال: (كان النَّبيُّ ﷺ يُعَوِّذ الحَسَنَ والحُسَينَ: أُعِيذُكُما بكلمات الله التَّامَّة)[1].

قال «أحمدُ» وغيره: (ولا يجوز أنْ يُقال: أُعِيذُكَ بالسَّماء أو بالجبال أو بالأنبياء أو بالملائكة أو بالعرش أو بالأرض أو بشيء ممَّا خلق الله، ولا يَتعَوَّذ إلا بالله وكلماته)[2]. كذا في «مجموعة الفتاوى» ص٩٥ ج٥ للحافظ ابن تيميَّة.

الدَّليل الرابع عشر: ما أخرجه «البَيْهَقِيُّ» في «شُعَب الإيمان» عن «عبدالله بن عمرو» ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ، قال: (الصِّيامُ والقُرْآن يشفعان للعبد، يقول الصيام: أي ربِّ إنِّي منعتُه الطَّعام والشَّهوات بالنَّهار فشفِّعْني فيه. ويقول القُرْآن: منعتُه النَّومَ بالليل فشفِّعني فيه. فَيُشَفَّعَان)[3]. فلما كان الصوم مخلوقًا ومربوبًا قال: (أي رَبِّ) والقُرْآن كان كلامَ الله، صِفَة مِن صفاتِ ذاته، قديمًا غيرَ مخلوقٍ، لم يقل: (أي ربِّ) لِئَلَّا يُتوهَّم مِنْه كونه مربوبًا ومخلوقًا.

الدَّليل الخامس عشر: ما أخرج «البَيْهَقِيُّ» بإسناده، عن «جابر بن عبدالله» ﷺ، قال: (كان رسول الله ﷺ يعرِض نفسه على النَّاس بالموقف، فقال: أَلَا رجلٌ يحملُني

---

(١) لفظه في البخاري، عن ابن عباس ﷺ، قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين، ويقول: إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق، أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة. كتاب الأنبياء، باب، حديث ٣٤٠٦.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٦/ ٤٣٧.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي، ٣/ ٣٧٨، حديث ١٨٣٩، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد، إشراف: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد، الدار السلفية ـ الرياض، بومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.

إلى قومه، فإنَّ قُرَيْشًا قد منعوني أنْ أُبَلِّغ كلامَ ربي ﷻ) لفظ حديث «أبي داود»[1]. وفي رواية «الدُّوري»[2]، قال: (لمَّا أُمر النَّبيُّ ﷺ أنْ يُبَلِّغَ الرِّسالة جعل يقول: يا قوم لم تؤذونني أنْ أُبَلِّغ كلام ربي يعني القُرْآن)[3]. كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص١٤٣.

واحتَجَّ «أحمد بن حَنْبَل» بهذه الآية، يعني قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] على أنَّ القُرْآنَ غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّه لم يَرِد في شيءٍ مِن القُرْآن ولا مِن الأحاديث أنَّه مخلوقٌ، ولا ما يدُلُّ على أنَّه مخلوقٌ. ثمَّ ذَكَر عن «الحسن البَصريِّ»[4] أنَّه قال: لو كان ما يقول «الجَعْد» حقًّا لبلَّغه النَّبيُّ ﷺ[5]. كذا في «فتح الباري» ص٤١٩ ج١٣.

* * *

* الأدلة العقلية في ذلك:

قال الإمام قَدَّسَ اللهُ سِرَّه: (الكلام مِنْ صفات الكمال، فلو كان مُحْدَثًا لكانت

---

(١) سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في القرآن، حديث ٤٧٣٦. وهو الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، ولد سنة ٢٠٢هـ، توفي سنة ٢٧٥هـ.

(٢) لعله أبو عبدالله محمد بن مخلد بن جعفر الدوري العطار البغدادي، ولد سنة ٢٣٣هـ، سمع يعقوب الدورقي، وأحمد بن إسماعيل السهمي، وغيرهما. وسمع منه: الدارقطني، وآخرون. من كتبه: «الأمالي»، و«ما رواه الأكابر عن مالك بن أنس»، و«السنن في الفقه»، و«الآداب»، و«المسند الكبير»، و«أخبار الصبيان»، توفي سنة ٣٣١هـ.

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي، ص١٨٤ ـ ١٨٥.

(٤) هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري التابعي، ولد سنة ٢١هـ، توفي سنة ١١٠هـ.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٥٠٤.

ذاتُه خاليةً عن صفات الكمال قبل حدوثه، والخالي عن الكمال ناقصٌ، وذلك على الله محالٌ. وأيضًا إنَّ كونَه تعالى آمرًا وناهيًا مِن صفات الكمال، فلو كانت تلك الصِّفَاتُ حادثةً لَزِم أنْ يكون ذاتُه تعالى مَحَلًّا للحوادث وهو مُحَالٌ. وأيضًا إنَّ الكلام لو كان حادثًا؛ لكان إمَّا أنْ يقومَ بذات الله تعالى، أو بغيره، أو لا يقوم بمَحَلٍّ، فلو قام بذات الله لَزِم كونُه مَحَلًّا للحوادث وهو مُحَالٌ، وإنْ قام بغيره فهو أيضًا مُحَالٌ؛ لأنَّه لو جاز أنْ يكون متكلِّمًا بكلامٍ قائمٍ بغيره لجاز أنْ يكون متحرِّكًا بحركةٍ قائمةٍ بغيره، وساكنًا بسكونٍ قائمٍ بغيره وهو مُحَالٌ، وإنْ وُجِد ذلك لا في محلٍّ فهو باطلٌ بالاتِّفاق)[1]. كذا في «معالم أصول الدِّين» ص٥٤.

ويُوضِّحه ما قال «الإمام عبد العزيز المَكِّيُّ» في مناظرته لِـ«بِشْرٍ المُعْتَزليِّ»: يا أمير المؤمنين، سألتُ بِشْرًا عن كلام الله مخلوقٌ هو؟ فقال: نعم. فقلتُ له: يلزمك واحدةٌ مِن ثلاث لا بُدَّ منها: أنْ تقولَ: الله ﷻ خَلَقَ كلامَه في نفسه، أو خَلَقَه في غيره، أو خَلَقَه قائمًا بنفسه وذاته.

فإن قال: إنَّ الله خَلَقَ كلامَه في نفسه فهذا مُحَالٌ باطلٌ، لا يَجِد للسَّبيل إلى القول به مِنْ قياسٍ ولا نَظَرٍ ولا معقولٍ؛ لأنَّ الله تعالى لا يكون مكانًا للحوادثِ، ولا يكون فيه شيءٌ مخلوقٌ، ولا يكون ناقصًا فيزيد بشيءٍ إذا خلقه، ومن قال هذا فقد كَفَر بالله العظيم وحَلَّ دَمَه.

وإن قال: خَلَق كلامَه في غيره، فهذا أيضًا مُحَالٌ باطلٌ؛ لأنه يلزمُه أنْ يجعل كلَّ كلامٍ خلقه الله في غيره هو كلام الله، فيَجْعَل الشِّعْر وقَولَ الزُّور والفُحْش والخَنَا، وكلَّ كلامٍ ذمَّه الله وذمَّ قائليه مِنْ كلام الكَفَرَة والسَّحَرة وغيرِه [كلامَ] الله تعالى،

---

(١) معالم أصول الدين، ص٦٦ بتصرف من المصنف.

تعالى الله عَن ذلك.

وإنْ قال: خلق كلامَه قائمًا بنفسه وذاته، فهذا أيضًا مُحَالٌ باطلٌ؛ لأنَّه لا يكون الكلامُ إلَّا مِنْ مُتكَلِّمٍ، كما لا يكون الإرادة إلَّا مَن مُرِيدٍ، ولا العِلْم إلَّا مِنْ عالِمٍ، ولا القُدْرة إلَّا مِن قديرٍ، ولا رِيءَ ولا يُرَى أبدًا كلامٌ قائمٌ بنفسه، مُتكلِّمٌ بذاته، وهذا ما لا يُعْرَف ولا يُعْقَل ولا يَثْبُت مِنْ قياسٍ ولا نظرٍ ولا غيرِهِ، فلمَّا استحال أنْ يكون القُرْآنُ مخلوقًا مِنْ هذه الجهات ثبت أنَّه صِفَة لله ﷻ، وصفات الله ﷻ غير مخلوقةٍ.

فبطل قولُ «بِشْرٍ» مِنْ جهة النَّظر والقياس، كما بَطَل مِنْ جهة الكتاب والسُّنَّة[1]. كذا في كتاب «الحَيْدَة» ص٥٢ وص ١٢٨.

وأيضًا قد قامت الدَّلائل القاطعة على أنَّ الله تعالى لا يُشْبِهُه شيءٌ مِنْ خلقه بوجهٍ من الوجوه، فلمَّا كان كلامُنا غيرَنا وكان مخلوقًا، وجب أنْ يكون كلامُه ﷻ ليس غيرَه وليس مخلوقًا[2]. كذا في «فتح الباري» ص٣٨٠ ج١٣.

وأيضًا الأنسبُ بالقديم مِنْ حيث هو قديمٌ قِدَمُ صفاته؛ إذِ القديمُ بالقديم أنسب مِن الحادث بالقديم؛ لاتِّحادهما في وصف القِدَم، ولأنَّ الأصل مِنْ صفات القديم مِنْ حيث هو قديمٌ عَدَمُ الحديث، فكيف لا يجب إثباتُ قِدَم المعنى القائم بذاته إذا بطل قيام الحوادث به بأدلَّته المبيَّنة في محالِّها[3]. كذا في «الإتحاف»، ص١٥١ ج٢.

❁ ❁ ❁

(١) الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن، ص٨٢ ـ ٨٣.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٥٥.

(٣) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، ٢/ ١٥١.

ما جاء عن الصَّحابة والتَّابعين وَأئمَّة المسلمين ﷺ في أنَّ القُرْآنَ كلامُ اللّه غيرُ مخلوقٍ

قال الإمام البَيْهَقِيُّ: أخبرنا «عليُّ بن أحمد بن عبدان»[1]، أنَّ «أحمد بن عبيد الصَّفَّار»[2]، ثنا «عبدالله بن أحمد بن حَنْبَل» ﷺ، ثنا «أبو معمر الهذلي»[3]، عن «شريح بن النُّعمان»[4]، حدثني «عبد الرحمن بن أبي الزِّناد»[5]، عن أبيه[6]، عن «عروة بن الزُّبير»[7]، عن «نيار بن مكرم»[8]، (أنَّ أبا بكرٍ ﷺ قرأ عليهم سورة الرُّوم، فقالوا: هذا كلامُك أو كلام صاحبك؟ قال: ليس بكلامي، ولا بكلام صاحبي، ولكنَّه كلام الله ﷻ).

قال «البَيْهَقِيُّ»: وهذا إسنادٌ صحيحٌ[9].

---

(١) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان بن محمد الشيرازي الأهوازي، توفي سنة ٤١٥هـ.

(٢) هو أبو بكر أحمد بن عبيد الصفار الحمصي، الرعيني، توفي سنة ٣٥٢هـ.

(٣) هو أبو معمر إسماعيل بن إبراهيم الهذلي الهروي، ولد في حدود ١٥٣هـ توفي سنة ٢٣٦هـ.

(٤) هو شريح بن النعمان الصائدي الكوفي التابعي، روى عن علي بن أبي طالب.

(٥) هو أبو محمد عبد الرحمن بن أبي الزناد عبدالله بن ذكوان المدني القرشي، توفي سنة ١٧٤هـ.

(٦) هو أبو عبد الرحمن عبدالله بن ذكوان المدني القرشي، ولد سنة ٦٥هـ، توفي سنة ١٣١هـ.

(٧) هو أبو عبدالله عروة بن الزبير بن العوام، توفي سنة ٩٤هـ.

(٨) هو نيار بن مكرم الأسلمي، صاحب رسول الله، توفي سنة ٤٠هـ.

(٩) شعب الإيمان للبيهقي، ١/ ٣٣٠ـ٣٣١، حديث ١٦٦. الاعتقاد للبيهقي، ص١٠٢، الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٣٣.

وعن «عبدالله بن هانئ»[1]، قال: قال «عمر بن الخطَّاب» ﷺ: (القُرْآن كلام الله).
وعن «عثمان بن عفَّان» ﷺ: (لو أنَّ قلوبَنا طَهُرَت، ما شَبِعْنا مِنْ كلام ربِّنا، وإنِّي لأكرهُ أنْ يأتيَ عليَّ يومٌ لا أَنْظُر في المُصْحَف). وما مات «عثمانُ» حتَّى خُرِق مُصحفُه مِنْ كثرة ما كان يُدِيمُ النَّظر فيه. وعن «عليٍّ» ﷺ، أنَّه قال حين قالوا له يوم صِفِّين: «حكَّمْتَ رجلين؟ »: (ما حَكَّمْتُ مخلوقًا، ما حَكَّمْتُ إلَّا القُرْآن)[2]. كذا في كتاب «الاعتقاد» ص٢٧ وص٢٨، وكذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص٢٢٩ إلى ص٢٤٣.

وعن «عليِّ بن أبي طلحة»[3]، عن «ابن عبَّاس»، في قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]. قال: (غير مخلوقٍ). و«عن عكرمة»[4]، قال: كان «ابن عبَّاسٍ» في جِنازةٍ، فلمَّا وُضِع المَيْت في لَحْدِه، قام رجلٌ، وقال: اللهم رَبَّ القُرْآن اغْفِرْ له. فقال «ابن عبَّاسٍ»: (مَهْ، لا تقُل مِثْلَ هذا، القُرْآن مِنْه بَدَا وإليه يعود). [و] في روايةٍ: قال له «ابن عبَّاسٍ»: (ثكلتك أمُّك، إنَّ القُرْآن مِنْه). وفي روايةٍ أخرى: قال «ابن عبَّاسٍ»: (القُرْآن كلام الله، وليس بمربوبٍ، مِنْه خَرَج، وإليه يعود). وفي روايةٍ «الطبراني»، عن «عكرمة»، قال: كان «ابن عبَّاسٍ» في جِنازةٍ، فلمَّا وُضِع الميْت في لَحْده، قام رجلٌ، فقال: اللهم رَبَّ القُرْآن، أوسع عليه مَدْخله، اللهم رَبَّ القُرْآن، اغْفِرْ له. فالتفت إليه «ابن عبَّاسٍ»، فقال: (مَهْ، القُرْآن كلامُ الله، وليس بمربوبٍ، مِنْه خرج وإليه يعود)[5].

---

(١) هو أبو الزعراء عبدالله بن هانئ الكوفي الكندي، من التابعين.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي، ١/ ٣٣٠-٣٣١، حديث ١٦٦. الاعتقاد للبيهقي، ص١٠٥، الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٣٦.

(٣) هو أبو الحسن علي بن أبي طلحة سالم بن المخارق الهاشمي، توفي سنة ١٤٣هـ.

(٤) هو أبو مجالد وأبو عبدالله عكرمة البربري المدني، مولى عبدالله بن عباس، توفي سنة ١٠٥هـ.

(٥) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٣٥. الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٦/ ٣٧٨، ٤٠١، ٤٩٤.=

كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» «للبَيْهَقِيِّ» ص٢٤٢، وكذا في المجلَّد الخامس من «فتاوى ابن تيمية»، ص٦٥ ج٥.

قال الإمام البَيْهَقِيُّ: رُوِيَ عن «أنسٍ» ﷺ، أنَّه قال: (القُرْآن كلام الله، وليس كلامُ الله بمخلوقٍ). قال «أبو أحمد»[1]: وهذا الحديث وإنْ كان موقوفًا على أَنَسٍ ﷺ فهو مُنْكَرٌ؛ لأنَّه لا يُعْرَفُ للصَّحابة الخوض في القُرْآن. قلت: إنَّما أراد به أنَّه لم يَقَع في الصَّدْر الأوَّل ولا الثَّاني مَنْ يَزْعُم أنَّ القُرْآنَ مخلوقٌ، حتَّى يُحْتاج إلى إنكاره، فلا يَثْبُت عنهم شيءٌ بهذا اللفظ الَّذِي رَويناه عن أنس ﷺ، وإنَّما ثَبَت عنهم إضافة القُرْآن إلى الله وتمجيده بأنَّه كلامه تعالى، كما رويناه يعني عن «أبي بكرٍ»، و«عُمَرَ»، و«عثمان»، و«عليٍّ»، ﷺ[2]. كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص٢٤٣.

❁ ❁ ❁

= مجموع الفتاوى لابن تيمية، ١٢/ ٤١٨.

(١) لعله أبو أحمد عبدالله بن عدي بن عبدالله الجرجاني، ولد سنة ٢٧٧هـ، توفي سنة ٣٦٥هـ.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٣٦ ـ ٢٣٧.

حكاية إجماع الصَحَابة وَالتَابعِين

وقد رَوَى غيرُ واحدٍ عن «سفيان بن عيينة»، قال: سمعت «عمرو بن دينار»[1]، يقول: (أدركتُ مشايخنا والنَّاسَ منذ سبعين، يقولون: القُرْآن كلام الله، مِنْه بَدَا وإليه يعود). وفي لفظٍ: (سمعت مشيخَتَنا منذ سبعين سنة، يقولون: القُرْآن كلام الله، وليس بمخلوقٍ)[2]. كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص٢٤٥ وكذا في المجلَّد الخامس من «فتاوى ابن تيمية» ص٦٦ ج٥.

قال البَيْهَقِيُّ: (وقد أدرك «عمرو بن دينار» أجلَّةَ أصحاب رسول الله ﷺ من البدريِّين والمُهاجرين والأنصار، مثل: «جابر بن عبدالله»، و«أبي سعيد الخُدْرِيِّ» و«عبدالله بن عمرو» و«عبدالله بن عبَّاسٍ»، و«عبدالله بن الزُّبَير» ﷺ، وأجِلَّةَ التَّابعين رحمة الله عليهم، وعلى هذا مضى صَدْر هذه الأُمَّة لم يختلفوا في ذلك)[3]. كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص٢٤٥.

وقال البَيْهَقِيُّ في كتاب «الاعتقاد» ص٣٩، بعد حكاية قول «سفيان بن عيينة»، عن «عمرو بن دينار»: (أدركتُ مشيَخَتَنا... إلخ): ومشايخ «عمرو بن دينار» جماعةٌ

---

(١) هو أبو محمد عمرو بن دينار الجمحيّ الأثرم، ولد سنة ٤٦هـ، توفي سنة ١٢٦هـ.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٣٧ ـ ٢٣٨. الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٥/ ٣٠، ٦/ ٣٧٥، ٤٠٢. مجموع الفتاوى لابن تيمية، ١٢/ ٤١٩، ٥٠٥.

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٣٨.

من الصَّحابة، ثمَّ أكابر التَّابعين، فهو حكاية إجماعٍ منهم. انتهى كلامه[1].

❁ ❁ ❁

(١) الاعتقاد للبيهقي، ص١٠٥ ـ ١٠٦.

ذِكْر أقوال الأئمَّة في القُرْآن

قال الإمام البَيْهَقِيُّ: قال «أبو مصعبٍ»[1]: سمعت «مالكَ بن أنسٍ»، يقول: (القُرْآن كلام الله غيرُ مخلوقٍ). وقال «سُوَيد بن سعيد»[2]: (سمعت «مالكَ بن أنسٍ»، و«حمَّادَ بن زيدٍ»[3]، و«سفيانَ بن عيينةٍ»، و«الفضيلَ بن عياضٍ»[4]، و«شَريكَ بن عبدالله»[5]، و«يحيى بن سليم»[6]، و«مُسْلِمَ بن خالدٍ»[7]، و«هشامَ ابن سليمان المخزوميَّ»[8]، و«جَريرَ بن عبد الحميد»[9]، و«عليَّ بن مُسْهِرٍ»[10]، و«عَبْدَة»[11]، و«عبدَالله بن إدريس»[12]،

---

(١) هو أبو مصعب أحمد بن القاسم (أبي بكر) بن الحارث بن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، ولد سنة ١٥٠هـ، لزم الإمام مالك وروى الموطأ عنه، توفي سنة ٢٤٢هـ.

(٢) هو أبو محمد سويد بن سعيد بن سهل بن شهريار الهروي الحدثاني الأنباري، توفي سنة ٢٤٠هـ.

(٣) هو أبو إسماعيل حماد بن زيد بن درهم الأزدي البصري، ولد سنة ٩٨هـ، توفي سنة ١٧٩هـ.

(٤) هو أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، ولد سنة ١٠٥هـ، توفي سنة ١٨٧هـ.

(٥) هو أبو عبدالله شريك بن عبدالله بن الحارث النخعي الكوفي، ولد سنة ٩٥هـ، توفي سنة ١٧٧هـ.

(٦) لعله أبو محمد يحيى بن سليم الطائفي الخراز الحذاء، ويقال: أبو زكريا، توفي سنة ١٩٥هـ.

(٧) هو مسلم بن خالد بن مسلم بن سعيد القرشي المخزومي التابعي، توفي سنة ١٧٩هـ.

(٨) هو هشام بن سليمان بن عكرمة بن خالد بن العاص القرشي المخزومي المكي.

(٩) هو جرير بن عبد الحميد بن قرط الرازي الضبي، ولد سنة ١١٠هـ، توفي سنة ١٨٨هـ.

(١٠) هو أبو الحسن علي بن مسهر القرشي بالولاء، الكوفي، توفي سنة ١٨٩هـ.

(١١) لعله أبو محمد عبدة بن سليمان الكلابي الكوفي، توفي سنة ١٨٨هـ.

(١٢) هو عبدالله بن إدريس الأودي الكوفي، ولد سنة ١٢٠هـ، توفي سنة ١٩٢هـ.

و«حفصَ بن غياث»، و«مُحمَّد بن فُضَيل»[1]، و«عبدَ الرَّحيمِ بن سليمان»[2]، و«عبد العزيزَ بن أبي حازمٍ»[3]، و«الدَّرَاوَرْدِيَّ»[4]، و«إسماعيلَ بن جعفرٍ»[5]، و«حاتمَ بن إسماعيل»[6]، و«عبدَالله بن يزيدِ المُقرئ»[7]، وجميعَ مَنْ حَمَلْتُ عنهم العِلْم، يقولون: الإيمان قولٌ وعملٌ، ويزيدُ وينقصُ، والقُرْآن كلام الله تعالى، وصفةُ ذاتِه، غير مخلوقٍ. ومَنْ قال: «إنَّه مخلوقٌ» فهو كافرٌ بالله العظيم، وأفضلُ أصحاب رسول الله ﷺ «أبو بكرٍ»، و«عُمَرُ»، و«عُثْمَانُ»، و«عليٌّ» ﷺ، وبذلك أقولُ، وبه أدين الله ﷻ، وما رأيتُ مُحمَّديًّا قط إلَّا وهو يقوله). كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص٢٤٨ [8].

وقال الإمام البَيْهَقِيُّ: قال «أبو شُعيبٍ المصري»[9]: سمعت مُحمَّد بن إدريس الشَّافعيَّ ﷺ، يقول: (القُرْآن كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ). وعن «عليِّ بن سهل الرَّمْليِّ»[10]، أنَّه قال: (سألت الشَّافعيَّ عن القُرْآن، فقال: كلام الله مُنزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ. قلتُ: فَمَنْ قال بالمخلوقِ فما هو عندك؟ قال لي: كافرٌ). وقد رُوِيَ عن «المُزَنيِّ»[11] أنَّه كان

---

(١) هو أبو عبد الرحمن محمد بن فضيل بن غزوان بن جرير الضبي، توفي سنة ١٩٥هـ.

(٢) هو أبو علي عبد الرحيم بن سليمان الرازي، توفي سنة ١٨٧هـ.

(٣) هو أبو تمام عبد العزيز بن أبي حازم سلمة بن دينار المدني، ولد سنة ١٠٧هـ، توفي سنة ١٨٤هـ.

(٤) هو أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبيد الدَّراوردي الجهني، توفي سنة ١٨٦هـ.

(٥) هو أبو إبراهيم إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري، ولد سنة ١٣٠هـ، توفي سنة ١٨٠هـ.

(٦) هو أبو إسماعيل حاتم بن إسماعيل المدني، توفي سنة ١٨٧هـ.

(٧) هو أبو عبد الرحمن عبدالله بن يزيد العدوي العمري، ولد سنة ١٢٠هـ، توفي سنة ٢١٣هـ.

(٨) الأسماء والصفات للبيهقي، ص١٤٠ ـ ٢٤١.

(٩) لا نعلم عنه إلا أنه أبو شعيب المصري تلميذ الشافعي، ذكره البيهقي في مناقب الشافعي.

(١٠) هو أبو الحسن علي بن سهل الرملي، توفي سنة ١٦٥هـ.

(١١) هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني، ولد سنة ١٧٥هـ، توفي سنة ٢٦٤هـ.

يقول: (القُرْآن كلام الله غيرُ مخلوقٍ، ومَن قال مخلوقٌ فهو كافرٌ)[1]. كذا في «الأسماء والصِّفَات» ص٢٥١ وص ٢٥٢.

وهكذا رُوِيَ على: «الحسن البصريِّ»، و«أيوب السَّخْتيانيِّ»[2]، و«سليمان التَّيميِّ»[3]، وخلقٍ من التَّابعين، وعن «مالك بن أنس»[4]، و«اللَّيث بن سعد»[5]، و«سفيان الثَّوريِّ»[6]، و«ابن أبي ليلى»[7]، و«أبي حنيفة»، و«الشَّافعيِّ»، و«أحمدَ بن حَنْبَل»، و«إسحاق بن راهويه»[8]، وأمثال هؤلاء مِن الأئمَّة، بل اشْتُهر عن أئمَّة السَّلَف تكفيرُ مَن قال: «القُرْآن مخلوقٌ» وأنَّه يستتاب، فإنْ تابَ وإلَّا قُتِل، كما ذُكِر ذلك عن «مالكِ بن أنس»، وكفَّرَ «الشَّافعيُّ» «حَفْصًا الفَرْدَ»[9] حين قال: «القُرْآن مخلوقٌ» فقال «الشَّافعيُّ»: (كَفَرْتَ بالله العظيم، القُرْآن كلام الله غيرُ مخلوقٍ). وأمَّا «أبو حنيفة» وأصحابه فقد ذكر «الطَّحاويُّ» في «الاعتقاد» ـ الَّذِي في أوَّله: ذِكْر بيان اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة على مَذْهَب «أبي حنيفة»، و«أبي يوسف»[10]،

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٢) هو أبو بكر أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري، ولد سنة ٦٦هـ، توفي سنة ١٣١هـ.

(٣) هو أبو المعتمر سليمان بن طرخان التيمي البصري، ولد سنة ٤٦هـ، توفي سنة ١٤٣هـ.

(٤) كما روى الخلاَّل عن مالكٍ: القُرْآن كلامُ الله، مِنَ الله، وليس شيءٌ مِنَ الله مخلوقٌ. كذا في «مجموعة الفتاوى» ص٦٢ ج٥ للحافظ ابن تيمية. [المصنف].

(٥) هو أبو الحارث الليث بن سعد عبد الرحمن الفهمي بالولاء، ولد سنة ٩٤هـ، توفي سنة ١٧٥هـ.

(٦) هو أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، ولد سنة ٩٧هـ، توفي سنة ١٦١هـ.

(٧) هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى يسار أو داود بن بلال، ولد سنة ٧٤هـ، توفي سنة ١٤٨هـ.

(٨) هو أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المروزي، ولد سنة ١٦١هـ، توفي سنة ٢٣٧هـ.

(٩) هو أبو يحيى حفص الفرد المصري، وكان من المجبرة.

(١٠) هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الكوفي، ولد سنة ١١٣هـ، توفي سنة ١٨٢هـ.

و«مُحمَّد بن الحسن»[1] ـ: (القُرْآن كلامُ الله مِنْه بَدَا، بِلا كيفيَّةٍ قولا، وأنزله على نبيِّه وعيًا، وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقًّا، وأيقنوا أنَّه كلام الله بالحقيقة، ليس بمخلوقٍ ككلام البريَّة، فمن سَمِعَه وزَعَم أنَّه كلام البَشَر فقد كَفَر). وقال «سفيان الثَّوريُّ»: (مَنْ قال: «القُرْآن مخلوقٌ» فقد كَفَر). وقال «عبدالله بن المبارك»[2]: (مَنْ قال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤] مخلوقٌ فهو كافرٌ)[3]. كذا في المجلَّد الأوَّل من «مجموعة الفتاوى» «للحافظ ابن تيمية» ص٢٤٤ ج١، وص ٢٤٥ ج١.

وأخرج «البَيْهَقِيُّ»، عن «أبي الوزير»[4]، قال: (قلتُ «لابن المبارك»: إنَّ «النَّضر بن مُحمَّد المروزيُّ»[5]، يقول: مَنْ قال: «إنَّ هذا مخلوقٌ» ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ فهو كافرٌ). قال «ابن المبارك»: صدَق «النَّضر» ـ عافاه الله ـ ما كان الله لِيَأْمُرَ «موسى» ﷺ بعبادة مخلوقٍ)[6]. كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص٢٤٨.

وأخرج «البَيْهَقِيُّ»، عن «مُحمَّد بن أيوب الرَّازي»[7]، قال: سمعت «مُحمَّد بن سابق»[8]، يقول: (سألتُ «أبا يوسف»، فقلتُ: أكان «أبو حنيفة» يقول: «القُرْآن مخلوق؟» فقال: مَعَاذ الله، ولا أنا أقولُه. فقلتُ: أكان يرى رأيَ «جَهْم»؟ فقال: مَعَاذَ الله،

---

(١) هو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، ولد سنة ١٣١هـ، توفي سنة ١٨٩هـ.

(٢) هو أبو عبد الرحمن عبدالله بن المبارك بن واضح التميمي، ولد سنة ١١٨هـ، توفي سنة ١٨١هـ.

(٣) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٥/ ٣١ ـ ٣٢. مجموع الفتاوى لابن تيمية، ١٢/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧.

(٤) هو أبو الوزير محمد بن أعين وصي ابن المبارك.

(٥) هو أبو عبدالله النضر بن محمد المروزي، من أصحاب أبي حنيفة، توفي سنة ١٨٣هـ.

(٦) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٤١.

(٧) هو أبو عبدالله محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس الرازي ولد سنة ٢٠٠هـ، توفي سنة ٢٩٤هـ.

(٨) هو أبو جعفر محمد بن سابق الكوفي التميمي، توفي سنة ٢١٤هـ.

ولا أنا أقولُه)[1]. رواته ثقات ص٢٥١.

وأخرج «البَيْهَقِيُّ» أيضًا، عن «عبدالله بن أحمد الدَّشْتَكِيِّ»[2]، قال: سمعتُ أبي، يقول: سمعتُ «أبا يوسفٍ القاضي»، يقول: (كلَّمت «أبا حنيفة» سَنَة جَرْدَاء[3] في أنَّ القُرْآن مخلوقٌ أم لا؟ فاتَّفق رأيُه ورأيي على أنَّ مَنْ قال: «القُرْآن مخلوقٌ» فهو كافرٌ). قال «أبو عبدالله»[4]: رواةُ هذا كلُّهم ثقاتٌ. وقال «الحارث بنُ إدريس»[5]: (سمعت «مُحمَّد بن الحسن» الفقيه، يقول: مَنْ قال: «القُرْآن مخلوقٌ» فلا تُصَلِّ خلفه)[6]. كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص٢٥٠.

وقال حَرْب بن إسماعيل الكِرْمانيُّ[7]: سمعت «إسحاق بن راهويه»، يقول: (ليس بين أهل العلم اختلافٌ أنَّ القُرْآنَ كلامُ الله، وليس بمخلوقٍ، وكيف يكون شيءٌ

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٤٣.

(٢) هو أبو سعيد عبدالله بن أحمد بن عبد الرحمن بن عبدالله بن سعد الدشتكي.

(٣) يغلب على ظني أنه يعني ناظر أبا حنيفة سنة كاملة، لا يناظره في غير هذه المسألة، يدل له ما أورده الذهبي في مختصر العلو عن أبي يوسف: ناظرت أبا حنيفة ستة أشهر، فاتفق رأينا على أن من قال: القرآن مخلوق، فهو كافر. واستعمال (سنة جرداء) ورد في كلام البيهقي عن شيخه تاج القضاة أبي سعد يحيى بن عبد الملك بن عبيدالله بن صاعد: وخضت في المناظرة والمجادلة سنة جرداء حتى رضيت عن نفسي ورضي عني أستاذي.

(٤) هو الإمام المشهور أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن حمدويه، الإمام الحاكم بن البيِّع، مصنف «المستدرك على الصحيحين»، ولد سنة ٣٢١هـ، توفي سنة ٤٠٥هـ.

(٥) هو الحارث بن إدريس، يروي عن شريك بن عبدالله النخعي، وسفيان الثوري ومنصور بن عمار، ومحمد بن الحسن، والفضيل بن عياض.

(٦) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٤٣.

(٧) هو أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الحنظلي الكرماني، توفي سنة ٢٨٠هـ.

من الرَّبِّ عزَّ ذِكْرُه مخلوقًا؟ ولو كان كما قالوا لَزِمَهم أنْ يقولوا: «عِلْم الله وقدرتُه ومشيئتُه مخلوقة» وهو كُفْرٌ محضٌ، والقُرْآن كلامُ الله ليس بمخلوقٍ، فمن زَعَم أنَّه مخلوقٌ فهو كافرٌ). وقال «وكيع بن الجرَّاح»: (مَنْ زَعَم أنَّ القُرْآنَ مخلوقٌ فقد زَعَم أنَّ شيئًا مِن الله مخلوقٌ. فقيل له: مِنْ أين قلتَ هذا؟ قال: لأنَّ الله يقول: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣] ولا يكون مِن الله شيءٌ مخلوقًا). وهذا القول قاله غيرُ واحدٍ من السَّلَف. وقال «أحمدُ بن حَنْبَل»: (كلام الله مِنَ الله، ليس ببائنٍ مِنْه) وهذا معنى قول السَّلَف: (القُرْآن كلام الله، مِنْهُ بَدَا، ومِنْه خَرَج، وإليه يَعُود)[1]. كذا في المجلَّد الأوَّل من «مجموعة الفتاوى» للحافظ ابن تيمية، ص٢٥٠ ج١.

وروى جماعةٌ عن «أحمد بن الحسن التِّرمذيِّ»[2]، قال: (سألت «أحمدَ»، فقلت: يا «أبا عبدالله»، قد وقع في أمر القُرْآن ما قد وقع، فإنْ سئلتُ عنه ماذا أقول؟ فقال لي: ألستَ أنت مخلوقٌ؟ قلت: نعم. قال: أليس كلُّ شيءٍ منك مخلوقًا؟ قلت: نعم. قال: فكلام الله أليس مِنْه؟ قلت: نعم. قال: فيكون شيءٌ من الله ﷻ مخلوقًا؟!)[3]. كذا في المجلَّد الخامس من «مجموعة الفتاوى» ص٦٣ ج٥.

وقال «الإمام أحمدُ»: (قد ذكر الله تعالى كلامَه في غير موضعٍ من القُرْآن، وسمَّاه كلامًا، ولم يُسَمِّه خَلْقًا، وهذا بيِّنٌ)[4]. كذا في «مجموعة الفتاوى» ص١١٠ ج٥.

وأخرج «البَيْهَقِيُّ»، عن «مُحمَّد بن علي المشيخاني»[5]، قال: سمعت «مُحمَّد بن

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٥/ ٣٨. مجموع الفتاوى لابن تيمية، ١٢/ ٥١٦ ـ ٥١٧.

(٢) هو أبو الحسن أحمد بن الحسن بن جنيدب الترمذي، توفي بعد سنة ١٤١هـ.

(٣) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٦/ ٣٩٩.

(٤) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٦/ ٤٥٣.

(٥) هو أبو عبدالله محمد بن علي المشيخاني، ولم أعثر عليه، ووجدته في تاريخ دمشق «الشحامي».

إسماعيل البُخَارِيَّ»، يقول: (القُرْآن كلامُ الله تعالى ليس بمخلوقٍ، عليه أدركنا علماءَ الحجاز أهلَ مكة والمدينة، وأهل الكوفة والبصرة، وأهل الشام ومصر، وعلماء أهل خراسان)[1].

قال البَيْهَقِيُّ: (وقد رَوَيْنا نحوَ هذا عن جماعةٍ آخرين من فقهاء الأمصار وعلماءهم ﷺ، ولم يصحّ عندنا خلاف هذا القول عن أحدٍ من النَّاس في زمان الصَّحابة والتَّابعين ﷺ أجمعين. وأوَّل مَنْ خَالف الجماعةَ في ذلك: «الجعد بن دِرْهم»، فأنكره عليه «خالد بن عبدالله القَسْرِيُّ»[2] وقتله. فقد رُوِيَ عن «أبي حبيبٍ»[3]، أنه قال: شَهِدتُ «خالد بن عبدالله القَسْرِيَّ»، وقد خَطَبهم في يوم أضحى بـ«واسط»، فقال: ارجعوا أيُّها النَّاس فَضَحُّوا ـ تقبَّل الله منكم ـ فإنِّي مُضَحٍّ بـ «الجَعْد بن دِرْهم»، فإنَّه زَعَم أنَّ الله لم يَتَّخِذْ «إبراهيمَ» خليلًا، ولم يُكلِّم «موسى» تكليمًا، سبحانه وتعالى عمَّا يقول «الجعد» عُلُوًّا كبيرًا. قال: ثُمَّ نزل فذبحه. قال «أبو رجاء»[4]: وكان «الجَهْم» يأخذ هذا الكلام مِن «الجَعْد بن دِرْهم»[5]. كذا في كتاب «الأسماء والصِّفَات» ص٢٥٤.

قال ابن تيمية: (أئمَّة الدِّين كلُّهم متَّفقون على أنَّ القُرْآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، ونصوص الأئمَّة في ذلك مشهورةٌ متواترةٌ؛ حتَّى إنَّ «أبا القاسم الطَّبريَّ» الحافظَ[6] لمَّا

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٤٥.

(٢) هو أبو الهيثم خالد بن عبدالله بن يزيد بن أسد القسري، ولد سنة ٦٦هـ، توفي سنة ١٢٦هـ.

(٣) هو عبد الرحمن بن حبيب بن أبي حبيب.

(٤) هو أبو رجاء قتيبة بن سعيد بن جميل الثقفي البغلاني، ولد سنة ١٥٠هـ، توفي سنة ٢٤٠هـ.

(٥) الأسماء والصفات للبيهقي، ص٢٤٦.

(٦) هو أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، نسبة إلى بيع «اللوالك»=

ذكر في كتابه مقالات السَّلَف والأئمَّة، ذكر مَنْ قال: «القُرْآن كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ»، وقال: «هؤلاء خمسمائة وخمسون نفرًا أو أكثر من التَّابعين والأئمَّة المرضيين، سوى الصَّحابة، على اختلاف الأعصار ومُضيِّ السِّنين، وفيهم نحوٌ مِن مائة إمامٍ، مَنْ أخذ النَّاس بقولهم، وتمَذْهَبوا بمذاهبهم، ولو اشتغلتُ بنقل قول أهل الحديث لَبَلَغَتْ أسماؤهم ألوفًا، لكنِّي اختصرتُ فنقلتُ عن هؤلاء عصرًا بعد عصرٍ، لا يُنكِر عليهم مُنكِر، ومَنْ أنكر قولهم استتابوه، وأمروا بقتله أو نفيه أو حبسه. قال: ولا خلاف بين الأُمَّة أنَّ أوَّل مَنْ قال: «القُرْآن مخلوقٌ» «جَعْد بن دِرْهم» في سِنِيِّ نَيِّفٍ وعشرين ومائةٍ، ثمَّ «جَهْم بن صفوان»، فأمَّا «جَعْدٌ» فقتله «خالد بن عبدالله القَسْريُّ»، وأمَّا «جَهْمٌ» فقُتِل بـ«مَرْوٍ» في خلافة «هشام بن عبد الملك»[1])[2]. كذا في «مجموعة الفتاوى» ص٢٤٣ ج١.

و«جَعْد» قد ضحَّى به «خالد بن عبدالله القَسْريُّ» بـ«واسط» يومَ النَّحر، وقال: ضحُّوا أيُّها النَّاس ـ تقبَّل الله ضحاياكم ـ فإنِّي مُضَحٍّ بـ«الجعد بن درهم»، إنَّه زَعَم أنَّ الله لم يَتَّخِذْ «إبراهيمَ» خليلا، ولم يُكَلِّم «موسى» تكليمًا، تعالى الله عمَّا يقول «الجَعْدُ» عُلُوًّا كبيرًا. ثمَّ نزل فذبحه[3]. كذا في «مجموعة الرسائل» للحافظ «ابن تيمية» ص٩٠.

ثمَّ أخذ هذه المقالةَ عن «الجَعْدِ» «الجهمُ بن صفوان»، وإليه نُسِبت هذه المقالة،

= التي تلبس في الأرجل، على خلاف القياس، توفي سنة ٤١٨هـ.

(١) هو هشام بن عبد الملك بن مروان: من ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد سنة ٧١هـ، توفي سنة ١٢٥هـ.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٥/ ٣٠، ٦/ ٣٧٧. مجموع الفتاوى لابن تيمية، ١٢/ ٤١٩ ـ ٤٢٠، ١٢/ ٥٠٤.

(٣) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٢/ ٤٠٣. مجموع الفتاوى لابن تيمية، ٨/ ٣٥٧، ١٢/ ١١٩، مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية، ٣/ ١٣٢.

فسميت مقالة الجَهْمِيَّة، ثمَّ وافق الجَهمَ على ذلك المُعْتَزِلَةُ أصحابُ «عمرو بن عُبَيد»[1]، وضمُّوا إليها بِدَعًا أخرى في القَدَر وغيره. قاله الحافظ «ابن تيمية». والحاصل أنَّ أوَّل مَنْ قال: «القُرْآن مخلوقٌ» «الجَعْد بن دِرْهم»، ثُمَّ «جَهْمُ بن صفوان»، ثمَّ مِن بعدهما «بِشْر بن غِياث»[2].

فهذه أقوالَ الصَحابة والتابعين والسَّلَف الصَالحِيْن كلُّهم اتَّفقوا على أنَّ القُرْآنَ كلامُ الله وعلمُه ووحيُه ليس بمخلوقٍ، ولكِنْ لم يُرْوَ عن أحدٍ منهم حرفٌ واحدٌ في أنَّ الله ﷻ يتكلَّم بحرفٍ وصوتٍ. فظَهَر مِنْه أنَّ مَذْهَب كافَّة أهل العلم قديمًا وحديثًا أنَّ القُرْآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، ولا خالقَ. فالعجبُ مِن الحَنَابِلَة والحَشْوِيَّة القائلين بالحرف والصَّوت، كيف يدَّعون أنَّ مَذْهَبهم هو مَذْهَب السَّلَف؟ وكيف يقولون: نُؤْمن بالحرف والصَّوت، ولا نخوض في المعنى ولا في التأويل؟ مع أنَّه لم يثبُت بالكتاب والسُّنَّة ولا بقولٍ مِن أقوال الصَّحابة أنَّه سبحانه يتكلَّم بحرفٍ وصوتٍ.

ولذا قال الحافظ العَسْقَلَانِيُّ: (والمحفوظ عن جمهور السَّلَف تركُ الخوضِ في ذلك والتعمُّقِ فيه، والاقتصارُ على القول بأنَّ القُرْآنَ كلامُ الله، وأنَّه غير مخلوقٍ، ثمَّ السكوت عما وراء ذلك، والله أعلم)[3]. كذا في «فتح الباري» ص٣٨١ ج١٣ في باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

ثمَّ قال «الحافظ العَسْقَلَانِيُّ» رَحِمَهُ اللهُ في باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]: (ولم يُنقَل عن «أحمدَ» في الصَّوت مَا نُقِل عنه في اللَّفظ،

---

(١) هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب التيمي بالولاء البصري، ولد سنة ٨٠هـ، توفي سنة ١٤٤هـ.

(٢) هو بشر المريسي، سبقت ترجمته.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٥٥.

ولم يُنقَل عن «أحمدَ» قطُّ أنَّ فِعْلَ العبد قديمٌ، ولا صوتَه، وإنَّما أنكَر إطلاقَ اللَّفظ. وصرَّح «البُخَارِيُّ» بأنَّ أصواتَ العباد مخلوقةٌ. وأنَّ «أحمدَ» لا يخالف ذلك، فقال في كتاب «خلق أفعال العباد»: ما يدَّعونه عن «أحمدَ» ليس الكثيرُ منه بالبيِّن، ولكنَّهم لم يفهموا مرادَه ومَذْهَبه، والمعروف عن «أحمدَ» وأهلِ العلم أنَّ كلامَ الله غيرُ مخلوقٍ، وما سواه مخلوقٌ، لكنَّهم كَرِهوا التَّنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنَّبوا الخوضَ فيها والتَّنازع إلَّا ما بيَّنه الرَّسول ﷺ)[1]. كذا في «فتح الباري» ص٤١١ ج١٣ في باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

❁ ❁ ❁

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٩٣.

الرد على الجَهْمِيَّة والمُعْتَزِلَة

أجمع المسلمون على أنَّ الله تعالى متكلِّمٌ، لكِنَّ الجَهْمِيَّةَ والمُعْتَزِلَةَ زَعَموا أنَّ المعنيَّ بكونه متكلِّمًا أنَّه خلق الكلام في جسمٍ. إنْ قيل: إذا كان القُرْآن عندهم حادثًا لم يكن قائمًا به تعالى؛ لتعاليه عن قيام الحوادث بذاته، فلا يكون كلامًا له. قلنا: إنَّهم يُجَوِّزون قيامَ كلامِ الله بغيره، ويقولون: هو مُتَكَلِّمٌ بمعنى أنَّه مُوجِدٌ للكلام، لا أنَّه مَحَلٌّ له. وهذا فاسدٌ مِن وجوهٍ:

الأوَّل: أنَّه يَرُدُّ عليه أنَّ المُتكلِّمَ ـ على قاعدة اللُّغة في المشتقَّات كالمُتحرِّك والأسود ـ مَنْ قام به الكلامُ، لا مَنْ أوجده، ولا يُعْرَف في لغةٍ ولا عُرْفٍ ولا عَقْلٍ قائلٌ مُتكلِّمٌ إلَّا مَنْ يقوم به الكلام، كما لا يُعقل حيٌّ إلَّا مَنْ تقوم به الحياة، ولا عَالِمٌ إلَّا مَنْ يقوم به العلم، ولا مُتحرِّكٌ إلَّا مَنْ تقوم به الحركة، فَمَن قال: «إنَّ المُتكلِّمَ هو الَّذِي كَونُ كلامِه منفصلًا عنه» قال ما لا يُعقَل، ولم يُفْهِمْ الرُّسُل للنَّاس هذا، بل كلُّ مَنْ سَمِعَ ما بلَّغَتْه الرُّسُل عن الله تعالى يَعْلَم بالضَّرورة أنَّ الرُّسل لم تُرِد بكلام الله ما هو مُنفصلٌ عنه، بل ما هو مُتَّصفٌ به.

والثَّاني: أنَّه يلزم على قولهم أنْ يكون كلُّ كلامٍ خلقه الله في شيءٍ كلامًا لله تعالى؛ إذْ لا معنى لكون القُرْآن كلام الله إلَّا كونُه خَلَقه، وقد خلق الله التَّسبيحَ في جبال «داود» ﷺ، وخلق التَّسليمَ على النَّبيِّ ﷺ في الحَجَر، والتَّسبيحَ في الحَصَى والطَّعام للنَّبيِّ ﷺ، ويخلُق النُّطْق والشَّهادة في الجلود والأيدي والأرجل يوم القيامة، فيلزم أنْ يكونَ هذا كلُّه كلامَ الله، فإنَّه خلقه في غيره، كما خَلَق الكلام في الشَّجرة، بل يكون كلُّ كلامٍ في

الوجود كلامَه، حتَّى كلامِ «إبليس»، وقولِ «فرعون»: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وقولِ «نمروذ»: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وسائرِ الكفار، فإنَّه تعالى خالقٌ أفعالَ العباد وأقوالَهم، وهو المُنطِق لكلِّ ناطقٍ[1]. مُلَخَّصٌ من «منهاج السُّنَّة» ص٢٢٢ ج١.

والثالث: يلزمهم في قولهم: «إنَّ الله خَلَق كلامًا في شجرةٍ كلَّم به موسى» أنْ يكون مَن سَمِعَ كلام الله مِنْ مَلَكٍ أو نبيٍّ أفضلَ في سماع الكلام من موسى ﷺ.

الرّابع: يلزمهم أن تكون الشَّجرة هي المُتكلِّمة بما ذَكَر الله أنَّه كلَّم به موسى، وهو قولُه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤][2]. كذا في «فتح الباري» ص٨٠ ج١٣، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

ووجه ذلك أنَّ ما خلقه الله في غيره فإنَّما يعود حُكْمُه على ذلك المَحَلِّ، لا على غيره، فإذا خلق الله في بعض الأجسام حَرَكةً أو طعامًا أو لونًا أو ريحًا كان ذلك الجسم هو المُتحرِّكُ المُتلَوِّن المطعوم، وإذا خَلَق في مَحَلٍّ حياةً وعلمًا وقدرةً وسمعًا وبصرًا كان ذلك المَحَلُّ هو الحيُّ العالم القادر السَّميع البصير، فإذا خلق كلامًا في الشَّجرة أو في غيرها من الأجسام كان ذلك المَحَلُّ هو المُتكلِّم بذلك الكلام. كذا في «تفسير آية التَّكليم» «للحافظ ابن تيمية». وبالجملة قد أبعدوا حيث قالوا: هو المُتكلِّم بكلامٍ يقوم بغيره، وليس الجسم الَّذِي قام به الكلام متكلِّمًا به، فأثبتوا الاسم والحكم بدون الصِّفة، ونفوا الاسم والحكم عن موضع الصِّفة[3]. كذا في «مجموعة الفتاوى» ص٩٣ ج٥.

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية، ٢/ ٣٧١ ـ ٣٧٢، ٥/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ ط١، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٥٤.

(٣) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٦/ ٤٢٨، ٤٣٤.

والخامس: ما قال «الإمام أحمدُ» في جواب الجهميِّ، حين قال: «إنَّه يتكلَّم، ولكنَّ كلامَه مخلوقٌ» فقال: (وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوقٌ، فقد شبَّهتم اللهَ بخَلْقِه، حين زعمتم أنَّ كلامَه مخلوقٌ)[1]. كذا في «مجموعة الفتاوى» «للحافظ ابن تيمية» ص١٠٩.

❁ ❁ ❁

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٦/ ٤٥٢. مجموع الفتاوى لابن تيمية، ١٢/ ٤٣٨.

أدلة المُعْتَزِلَة والجواب عنها

اعلم أنَّ المُعْتَزِلَة احتجُّوا على حدوث القُرْآن بوجوهٍ عقليَّةٍ ونقليَّةٍ.

أمَّا الوجوه العقليَّة:

فأقواها وهو (الوجه الأوَّل): أنَّه قد أجْمَع المسلمون قبل ظهور هذا الخلاف على أنَّ القُرْآنَ كلامُ الله سبحانه، واتَّفقوا على أنَّه سورٌ وآياتٌ وحروفٌ وكلماتٌ، وهي مسموعةٌ على التَّحقيق، وجميع ذلك يَدُلُّ على كونِه مُحْدَثًا مخلوقًا؛ لأنَّ السُّورَ معدودةٌ محسوبةٌ لها أوَّلٌ وآخِرٌ، وكلُّ ما دَخَله الحَصْر والعَدُّ، وكان له أوَّلٌ وآخِرٌ فهو مخلوقٌ.

وَبعبَارة أُخرى إنَّ القُرْآنَ مُرَكَّبٌ مِن حروفٍ وكلماتٍ مترتِّبةٍ ومتعاقبةٍ يَمتنع اجتماعُها في الوجود، فالمتأخِّر عند وجود المتقدِّم معدومٌ، والمتقدِّم عند وجود المتأخِّر مُنْتَفٍ، وهذا دليل الحدوث؛ لأنَّ العدمَ ينافي القِدمَ سابقًا ولاحقًا، وأيضًا المتأخِّر مسبوقٌ بعَدَمِه المقارنِ لوجود المتقدِّم فهو حادثٌ قطعًا، والمتقدِّم لا يتقدَّمه إلَّا بزمانٍ قليلٍ فيكون حادثًا أيضًا، وكذا المركب منها[1]. هذا خلاصة ما ذَكَره «العَلَّامَة الزَّمَخْشَرِيُّ»[2] في مُقَدِّمَة «الكَشَّاف»، وأوضَحَه «السَّيِّد الجُرْجَانِيُّ» في «حاشيته».

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري بحاشية الجرجاني، ١/ ٣ ـ ٧، دار المعرفة ـ بيروت، بدون تاريخ.

(٢) هو جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، ولد سنة ٤٦٧هـ، من كتبه: «الكشاف عن حقائق التنزيل»، و«أساس البلاغة»، و«المقامات»، توفي سنة ٥٣٨هـ. =

* الجوَاب عَنه:

قال الإمام «أبو بكر البَاقِلَّانيُّ»: الجواب عن هذه الشُّبهة أنَّ ما ذكرتم مِن الحَصْر والعَدِّ والتحديد والجروف والأصوات، فجميع ذلك راجعٌ إلى تلاوة المخلوقين، دُونَ كلام الله الَّذِي هو صِفَة من صفات ذاته؛ لأنَّ جميعَ ما ذكرتم يحتاج إلى مخارجَ مِنْ لسانٍ وشفتين وحَلْقٍ، والله يتعالى ويتنزَّه عن جميع ذلك. بل نقول: إنَّ كلامَه صِفَة له قديمةٌ، لا يُحتاج فيه إلى أداةٍ مِنْ صوتٍ أو حرفٍ أو مخرجٍ تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا، وكذلك ما ذكرتم مِن الحَصْر والعَدِّ والأوَّل والآخِر إنَّما ذلك راجعٌ إلى تلاوة المخلوقين لكلامه، وكَتْبِكُم لكلامه، دُونَ كلامِه الَّذِي هو صِفَة له.

وقد بيّن ذلك ﷻ بأظهر بيانٍ لِمَنْ كان له فَهْمٌ صحيحٌ؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. ومعلومٌ أنَّ الكاتِب مِنَّا يَكتُب عِدَّةَ مصاحفِ بِمَحْبَرةٍ واحدةٍ، ويتلو التَّالي مِنَّا عِدَّةَ خَتَماتٍ، فالمحصور والمعدود الَّذِي يتَّصف بأوَّلٍ وآخِرٍ صِفَاتُنا مِنْ تلاوتنا لكلامه، وخَطِّنا لكلامه، وحفظنا لكلامه. فأمَّا صِفَتُه الَّتي هي كلامه على الحقيقة فلا تتَّصف بالزَّوال والحصر والعدِّ والأوَّل والآخِر، على ما أخبر به سبحانه على مقتضى التَّحقيق؛ لأنَّ كلَّ ما اتَّصف بالبداية والفراغ والحصر والعَدِّ فإنَّما هي صِفَة المخلوق لا صِفَة الخالق القديمة بقِدَمِه الموجودة بوجوده، الَّتي لا يجوز أنْ تتقدَّم عليه ولا تتأخَّر عنه، فاعلم هذه الجملة [و]تحقُّقها تَسْلَم مِن ضلالة الفريقين،

= وكان معتزلي المذهب، مجاهرا، شديد الإنكار على المتصوفة، أكثر من التشنيع عليهم في الكشاف وغيره.

وتَخْلُص مِن جَهْل الطَّائفتين، والله أعلم[1]. كذا في «الإنصاف» ص٧٩ وص٨٠.

وَبعبَارةٍ أُخْرى قال «السَّيِّد الجُرْجَانِيُّ» في الجواب عمَّا ذكره «العَلَّامَة الزَّمَخْشَرِيُّ» في مُقَدِّمَة «الكَشَّاف»: (إنَّ الاستدلال بهذه الصِّفَات إنَّما هو على حدوث العبارات المنظومة، ردًّا على الحَنَابِلَة القائلين[2] بأنَّ ما نقرأه ونسمعَه ونكتبُه عينُ كلام الله تعالى، لا على القائلين بالكلام النَّفْسِيِّ لاعترافهم بحدوث هذه العبارات، ويسمُّونها كلامًا لفظيًا، لكنَّهم يدَّعون أنَّ هناك كلامًا نفسيًّا قديمًا قائمًا به تعالى، ولا خَفَاءَ أنَّ الصِّفَات الَّتي استُدِلَّ بها على الحدوث مخصوصةٌ بالقُرْآن اللَّفْظِيِّ، ولا دلالة لها على انتفاء القُرْآن بمعنى الكلام النَّفْسِيِّ)[3]. انتهى كلام «السَّيِّد السَّنَد».

وحاصلُه أنَّ القُرْآن كما يُطْلَق على الكلام النَّفْسِيِّ القائم بذاته تعالى، يُطْلَق على المنتظم من الحروف والكلمات والسُّور والآيات، المُنَزَّلِ على الرَّسول بلسان عربيٍّ مبينٍ، المقروءِ والمحفوظِ [و] المسموعِ لكونها دلالاتُ القُرْآن، أي الكلام النَّفْسِيُّ القائم به تعالى، وعباراتٌ عنه، وأنَّها عينُه، وإطلاق اسم المدلول على الدَّال، وكذا إجراء صفات الدَّال على المدلول شائعٌ ذائعٌ، فصفات الحدوث كلُّها راجعةٌ إلى

---

(١) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص٧٥ ـ ٧٦.

(٢) العبارة بين القوسين مأخوذة من «نهاية الإقدام» ص٣١٣ للشَّهْرِسْتَاني، حيث قال: (قالت السَّلف والحنابلة قد تقرَّر الاتِّفاق على أنَّ ما بين الدَّفتين كلامُ الله، وأنَّ ما نقرأه ونسمعه ونكتبه عينُ كلام الله، فيجب أنْ يكون الكلمات والحروف هي بعينها كلام الله، ولمَّا تقرَّر الاتِّفاق على أنَّ كلامَ الله غيرُ مخلوقٍ، فيجِب كونُ الكلمات أَزَلِيَّةً غيرَ مخلوقةٍ) أهـ، وقد تقدَّم الجواب عنه مفصَّلًا. [المصنف].

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري بحاشية الجرجاني، ١/ ٧.

الدَّلالات والعبارات لا إلى المدلول[1]. انظر: «إشارات المرام مِن عبارات الإمام» من ص١٧٥ إلى ص١٧٨.

وَالوَجه الثَّاني: إنَّ القُرْآن مُعْجِزَةٌ لرسول الله ﷺ وآيةٌ على صِدْقه، والمُعْجِزَةُ لا تكون إلَّا فعلاً خارقًا للعادة، واقعًا على حَسْب تحدِّي النَّبيِّ ﷺ، ويستحيل أنْ يكونَ القديم مُعجِزًا، ولو جاز تقديرُ كلامٍ قديمٍ أَزَليٍّ قائمٍ بنفسه تعالى مُعْجِزًا، لجاز تقدير العلم القديم مُعْجِزًا[2]. كذا في «الإرشاد» لإمام الجرمين ص١٢٢.

وَالجوَاب عَنه إنَّ القُرْآن مُعْجِزَةٌ مِن حيثُ إنَّه تنزيل ربِّ العالمين، نزل به الرُّوح الأمين، على قلب سيِّد الأوَّلين والآخرين، بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وإنَّما تحدَّى النَّبيُّ ﷺ العَرَب العَرْبَاء بهذا النَّظْم العربيِّ الَّذِي نَظَمه الله تعالى، وأنزله علينا، ونقرؤه بألسنتنا، ونكتبه في مصاحفنا، لا يَقْدِر أحدٌ أنْ يأتيَ بمثله؛ فإنَّ المُعْجِزَةَ لا تكون مقدورةً للعبد، فالقُرْآن مُعْجِزَةٌ باعتبار هذا النَّظْم المُنزَّل المُعْجِز، لا باعتبار الصِّفة القديمة القائمة بذاته تعالى. ويُسمَّى الكلُّ قرآنًا، لكن ما قام بألسنتنا، وما كتبته أقلامُنا هو حادثٌ، وهو بهذا الاعتبار مُعْجِزَةٌ، وما قام بالحقِّ سبحانه هو قديمٌ أزليٌّ صِفَةٌ مِنْ صفاته، لا مُعْجِزَةٌ من مُعْجِزَات نبيِّه ﷺ.

وأنَّ النَّظْمَ العربيَّ الَّذي نزل به جبريل على قلب النَّبيِّ ﷺ هو مَظْهَرٌ ومِرآةٌ للمعنى القديم بذاته سبحانه، لا عينُ الصِّفة القديمة؛ فإنَّ العربيَّ والعِبْرِيَّ صِفَةٌ المنظوم، لا صِفَة كلام الله القديم بذاته تعالى. ويُطْلَق اسم الإنزال على كلام الله سبحانه بإنزال هذا المنظوم الدَّال عليه. وزعمت الحَنَابِلَة أنَّ ما نقرأه ونسمعه ونكتبه هو عين كلام الله

---

(١) إشارات المرام من عبارات الإمام، ص١٤٢ ـ ١٤٥.

(٢) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ص١٤١ ـ ١٤٢.

القديم. ويُنكِره أهل الحقِّ، ويقولون: لا يَتصَوَّر العقل أن يكون ما قام بألسنتنا الحادثة وصار صِفَةً لنا هو عينُ ما قام بالحقِّ سبحانه، وعينُ صِفَته القديمة الأَزَلِيَّة؛ لأنَّ قيام القديم بالحادث مُحَالٌ بلا شُبْهةٍ وكيفٍ، وأنَّ حلول القديم في الحادث، أو امتزاج القديم بالحادث مُحَالٌ ببداهة العقل، فظهر أنَّ ما يظهر على ألسنتنا هو مَظهرٌ ومِرآةٌ لكلامه القديم لا مَحَلًّا له ولا ظرفًا له؛ إذْ لا يمكن حلولُ القديم في الحادث، ولا يمكن امتزاجه به، فثبت أنَّ الكلمات والحروف الَّتي نقرؤها بألسنتنا إنَّما هي مَظَاهرٌ ومَرَايا للحروف القُدسيَّة الأَزَلِيَّة القائمة بذات الحقِّ سبحانه، والكلُّ يُسمَّى قرآنًا حقيقةً لا يجوز نفيُ القُرْآن عنها، لكِنْ القُرْآن مُعْجِزَةٌ باعتبار ظهورها على ألسنتنا الحادثة، لا باعتبار قيامه بذات الحقِّ سبحانه.

ألا ترى أنَّ جبريل ﷺ كان يظهر في صُورة «دِحْيةٍ» فيجوز أنْ يقال: «هذا جبريل حقيقةً، وإنِّي رأيت جبريل حقًّا وحقيقةً» فكذلك إذا ظهر كلام الله في كِسْوة النَّظْم العربيِّ يجوز أنْ يقال: «قرأتُ كلام الله حقيقةً، وسمعت كلام الله حقيقةً بلا مجازٍ» فالحدوث راجعٌ إلى كِسْوَة الكلام القديم ولِبَاسِه، لا إلى اللابس؛ فإنَّ النَّظْم العربيَّ كِسْوةٌ للكلام القديم ولباسٌ له لا عينُه، فالمعجزة إنَّما هي اللِّباس والكِسْوة لا اللابس، فافهم ذلك واستقم.

وَالثَّالث: إنَّ كلامه تعالى يشتمل على أمرٍ ونهيٍ وإخبارٍ واستخبارٍ ونداءٍ وغير ذلك، فلو كان الأَمْر أَزَلِيًّا لَزِم الأَمْر بلا مأمورٍ، والنَّهيُّ بلا منهيٍّ، والإخبار بلا سامعٍ، والنِّداء والاستخبار بلا مُخَاطَبٍ، وكلُّ ذلك سَفَهٌ وعَبَثٌ، كيف يُتَصَوَّرُ ثبوتُه لله ﷻ؟

والجواب: إنَّ السَّفَه أو العبث إنَّما يلزم إذا خُوطِب المعدومُ وأُمِر في حال عَدَمِه، وأمَّا على تقدير وجوده بأن يكون طالبًا للفعل ممَّن سيكون فلا، كما في طلب الرَّجل تعلُّم ولدِه الَّذِي أَخبره صادقٌ بأنَّه سَيُولَد، وكما في خطاب النَّبيِّ ﷺ بأوامره ونواهيه

كلَّ مُكَلَّفٍ يُولَد إلى يوم القيامة، وأيضًا الكلام وإنْ كان قديمًا، لكِنْ تعلَّقُه بالمُكلَّف حادثٌ يحدث بحدوثه، وينقطع بِعَدَمِه.

وَالرَابع: إنَّ الأَمْر لو كان أزليًّا لكان التَّكليف باقيًا أبدًا، حتَّى في دار الجزاء؛ لأنَّ ما ثبت قِدَمُه امتنع عَدَمُه.

والخامس: إنَّه لو كان الكلام أزليًّا، لما اخْتُصَّ مكالمةُ «موسى» ﷺ بالطُّورِ، بل استَمَرَّ أزلًا وأبدًا واللازم باطلٌ إجماعًا، فالملزوم مثله.

والجوَاب عن هذين الوجهين: إنَّ الكلام وإنْ كان أزليًّا، لكِنَّ تعلُّقاتِه بالأشخاص والأفعال حادثةٌ بإرادةٍ من الله تعالى واختيارٍ مِنْه، فيتعلَّق الأَمْر بصلاة زيدٍ مثلًا بعد بلوغه، وينقطع عند موته، ويتعلَّق الكلام بـ«موسى» ﷺ في الطُّور، فالمختصُّ بالطُّور سماعُ الكلام وظهورُه[1]. كذا في «شرح المقاصد» ص١٠٥ ج٢.

والسَّادس وهو قريبٌ مِن الخامس: إنَّ كلامه تعالى لو كان قديمًا لاستوى نِسْبَتُه إلى جميع المُتعلَّقات؛ لأنَّه يكون جاريًا مَجْرى علمه في تعلُّقه بمتعلَّقاته لذاته، فكما أنَّ علمَه يتعلَّق بجميع ما يَصْلُح أنْ يُعْلَم، فكذلك كلام الله يتعلَّق بكلِّ ما يَصِحُّ تعلُّقه به.

وَالجوَاب أنَّه لا يلزم مِنْ كون الصِّفة قديمةٌ عمومُ تعلُّقها، كالإرادة القديمة فإنَّها تتعلَّق ببعضٍ دُونَ بعضٍ[2]. كذا في «نهاية العقول» «للإمام الرَّازي»، و«شرح

---

(١) شرح المقاصد في علم الكلام، لسعد الملة والدين مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني، ٢/ ١٠٥ ـ ١٠٦، دار المعارف النعمانية ـ باكستان، ط١، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

(٢) نهاية العقول في دراية الأصول، للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي، ٢/ ٣٢٥، تحقيق: سعيد عبد اللطيف فودة، دار الذخائر بيروت ـ لبنان، ط١ ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م. شرح المواقف، ٢/ ٩٥ ـ ٩٦.

المواقف» ص٩٦ ج٨.

وَأمَّا الوجوه السَّمعيَّة فخمسَةٌ أيضًا:

الأوَّل: إنَّ القُرْآن ذِكْرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠]. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] ونحو ذلك. والذِّكْر حادثٌ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥]. فإنَّما يَدُلَّان على أنَّ الذِّكْرَ مُحْدَثٌ، فيكون القُرْآنُ مُحْدَثًا.

وَالجوَاب[1]: إنَّ الإنزالَ حادثٌ والمُنزَّل قديمٌ، والذِّكر حادثٌ والمذكور قديمٌ، فحُدوثه باعتبار تنزيله إلينا لا باعتبار نفسه. كما أخرج «البُخَارِيُّ» عن «ابن عبَّاس» ﷺ، قال: (يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وعندكم كتاب الله؟ أقرب الكتب عهدًا بالله، تقرؤنه محضًا لم يُشَب). وفي روايةٍ عنه: (وكتابُكم أَحدَثُ الأخبار بالله محضًا لم يُشَب). والمراد حديثُ العهد بالنُّزول من الله ﷻ. وأخرج «ابنُ أبي حاتمٍ» ـ بِسَنَدٍ حَسَنٍ ـ عن «كعب الأحبار»[2]: (عليكم بالقُرْآن، فإنَّه أحدث الكتب عهدًا بالرَّحمن)[3]. كما في «فتح الباري»، ص٤١٧ ج١٣.

جَواب آخر: وقال «الإمام الأَشْعَرِيُّ» ما حاصله: (إنَّ المراد بالذِّكر وعظُ الرَّسول ﷺ وتذكيرُه وتحذيرُه من المعاصي، وهو الَّذِي كان يَحْدُث ويتجدَّد لهم، وليس المُراد به القُرْآن؛ حتَّى يُوجِب كونُه محدثًا)[4]. كذا في كتاب «الإبانة»

---

(١) راجع «الإنصاف» ص٧٤. [المصنف]. وهو في فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٩٧.

(٢) هو أبو إسحاق كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، توفي سنة ٣٢هـ.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٩٩.

(٤) الإبانة عن أصول الديانة، ص١٠٢، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٩٧.

ص٤٢، وليراجع «فتح الباري»، ص٤١٤ ج١٣، باب قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وَالثَّاني: إنَّه تعالى أخبر كثيرًا بلفظ الماضي، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نوح: ١]. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النساء: ١٦٣]. و﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾ [يونس: ١٣]. فلو كان كلامُه أَزَليًّا لَزِم الكَذِب في أخباره؛ لأنَّ صِدْقَه يقتضي سَبْقَ وُقُوع النِّسْبة، ولا يُتَصَوَّر السَّبْق على الأَزَل.

وَالجواب: إنَّ كلامَه تعالى في الأَزَل لا يَتَّصِفُ بالماضي والحال والاستقبال، وإنَّما يَتَّصِفُ بذلك فيما لا يزال بِحَسَب التَّعلُّقات، وحُدوث الأزمنة والأوقات[1]. كذا في «شرح المقاصد» ص١٠٥ ج٢، و«شرح التجريد» ص٣٥٥. وقال الإمام قَدَّسَ اللهُ سِرَّه: (كما أنَّ عِلْمَ الله تعالى بأنَّ الشَّيءَ سيُوجَد يكون عِلْمًا بعد دخوله في الوجود من غير وقوعِ تغيُّرٍ في العِلْم، كذلك خَبَرُ الله المُتعلِّق بأنَّه سيُرسل نوحًا، هو بعينه يكون خبرًا بعد ذلك على أنَّه أرسله مِنْ غير تَغَيُّر)[2]. كذا في «نهاية العقول».

وَالثالث: إنَّ كلامَ الله تعالى يَصِحُّ عليه النَّسْخ باتِّفاق المسلمين، والنَّسْخ عبارةٌ عن الرَّفع والانتهاء، وهما على القديم مُحَالٌ؛ لاستحالة العزم على القديم؛ فإذن كلامُ الله ليس بقديمٍ. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ [النحل: ١٠١] وما

---

(١) شرح المقاصد في علم الكلام، ٢/ ١٠٥. وقد نظرت في شرح الطوسي وشرح الأصفهاني على «التجريد» وحاشية الجرجاني على شرح الأصفهاني، فلم أقف فيهم على النص المذكور. ولعله يقصد حاشية السعد التفتازاني على التجريد، وهذه الحاشية لم أقف عليها مطبوعة ولا مخطوطة.

(٢) نهاية العقول في دراية الأصول، ٢/ ٣٢٤ـ٣٢٥.

يُغَيَّر ويُبَدَّل فهو مخلوقٌ لا محالة.

وَالجوَاب إنَّه ليس معنى النَّسْخ: رَفْعُ الكلام القديم. بل هو عبارةٌ عن انقطاع تعلُّق كلام الله تعالى بالمُكَلَّف القادر العاقل، كما أنَّ قادرِيَّة الله تعالى كانت مُتَعلِّقةً مِن الأَزَل إلى الأَبَد بإيجاد الحادث المُعيَّن، ثُمَّ إنَّه بعد إيجاده إيَّاه يَنْقطِع تعلُّق قادِرِيَّته، فكذا القول في الكلام[1]. كذا في «نهاية العقول».

وحاصله: إنَّ معنى نَسْخ القُرْآن رفعُ حُكمه، وانقطاعُ تَعُلُّقه بالمُكلَّف، لا رفع ذاته، فلا يَلزم حدوثُ ذاته، أَلَا ترى أنَّ خطاب الله إنَّما يَتعلَّق بالقادر العاقل، فإذا طَرَء العَجْزُ أو الجنون زال التَّعلُّق، فإذا عاد العقلُ والقدرةُ عاد التَّعلُّق. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾: إذا بدَّلْنا حُكْمَ آيةٍ أو تلاوةَ آيةٍ دُونَ المَتْلُوِّ القديم فإنَّ كلامَه القديمَ لا يُغيَّر ولا يُبدَّل، وإنَّما يُتَصوَّر التَّبديل في أحكام كلامِه أو تلاوة كلامه، دُونَ كلامه القديم الَّذِي هو صِفَةٌ مِنْ صفات ذاته.

وَالرَّابع: إنَّ القُرْآن شيءٌ، والأشياء كلُّها مخلوقةٌ بنصِّ التَّنزيل العزيز الحكيم.

وَالجوَاب: إنَّه إنْ أُريدَ به أنَّ القُرْآن شيءٌ، بمعنى موجودٍ؛ إثباتًا للوجود، ونفيًا للعدم، فنَعَم هو شيءٌ. وإنْ أُريدَ أنَّ الشَّيءَ اسمٌ له، وأنَّه كالأشياء فَلَا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] فَدَلَّ على نفسِه أنَّه تعالى شيءٌ لا كالأشياء؛ فإنَّه تعالى عدَّد أسماءه في كتابه، ولم يَتَسَمَّ بالشَّيءِ، ولَم يَجْعلْ الشَّيءَ اسمًا مِنْ أسماءه، فكذلك القُرْآنُ شيءٌ، لكنَّه ليس كالأشياء.

وكون القُرْآن شيئًا موجودًا ثابتًا لا يَدُلُّ على أنَّه مخلوقٌ مُحْدَثٌ، فإنَّه تعالى

---

(١) نهاية العقول في دراية الأصول، ٢/ ٣٢٥.

موجودٌ ثابتٌ، دائمُ الوجود، ليس بمخلوقٍ. والدَّليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. فدَلَّ على أنَّ كلامَه ليس كالأشياء، وأنَّه غير الأشياء، وأنَّه خارجٌ عن الأشياء، وأنه يُكَوِّن الأشياء.

وأيضًا يَدُلُّ قولُه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] على أنَّ كلامَه غيرُ الأشياء المخلوقة، وخارجٌ عنها. وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]. يعني مِن قَبْلِ الخَلْقِ ومِنْ بعدِ الخَلْق. ثمَّ جَمَع الأشياءَ المخلوقة في آياتٍ كثيرةٍ فأخْبَرَ عن خَلْقِها، وأنَّه خَلَقَها بقوله وكلامه، وأنَّ كلامَه وقولَه غيرُها وخارجٌ عنها؛ فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [لأنعام: ٧٣][1]. كذا في كتاب «الحَيْدَة» ص٢٨.

جوَاب آخر: وهو أنَّ لله تعالى عِلْمًا، فنسأله: هل هو داخلٌ في الأشياء المخلوقة، أم لا؟ فإنْ قال: «عِلْمُ الله داخلٌ في الأشياء المخلوقة» فقد شَبَّه الله بخَلْقِه الَّذين أخرجهم مِنْ بطون أمَّهاتهم لا يعلمون شيئًا، وأيضًا يلزم أنْ يَدْخُل عليه الجهل قبل حدوث علمه، وهذه صِفَة المخلوقين، والله أعظمُ وأجلُّ مِنْ أنْ يوصف بذلك.

وإنْ قال: «عِلْمُ الله خارجٌ عن جملة الأشياء المخلوقة، وغيرُ داخلٍ فيها» فنقول: إنَّ كلامَه أيضًا خارجٌ عن جملة الأشياء المخلوقة، غيرُ داخلٍ فيها، كما أخبر تعالى في كتابه أنَّ له نفسًا، حيث قال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١] ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] و﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] لكنَّها غيرُ داخلةٍ في النُّفوس الَّتي تذوق الموتَ، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]

---

(١) الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن، ص٣٧ ـ ٣٨.

فيقول أحدٌ: «إنَّ نفسَ ربِّ العالمين داخلةٌ في هذه النُّفوس الَّتي تذوق الموت»[1]. كذا في كتاب «الحَيْدَة» ص٥٧ وص٧٢.

والحاصل: إنَّ المراد بقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢] الخصوص دُونَ العموم، ومثل هذا في القُرْآن كثيرٌ، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾ [النمل: ١٦] ولم يؤتيا أرضًا ولا سماءً ولا شمسًا ولا قَمَرًا، ونحو ذلك، وإنَّما المراد: أوتينا مِنْ كلِّ شيءٍ يليق بمثلنا. وكذلك قوله تعالى في قِصَّة بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ﴾ [النمل: ٢٣]. ومعلومٌ أنَّها لَمْ تؤتَ النُّبوَّة، ولا تسخيرَ طيرٍ، إلى غير ذلك، إنَّما أراد به الخصوص دُونَ العموم[2]. كذا في «الإنصاف» للإمام البَاقِلاَّني ص٧٣.

جَوابٌ آخَرَ: قال العَلَّامَة القاري: (وأمَّا استدلالهم بقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢] والقُرْآنُ شيءٌ فيكون داخلًا في عموم كلِّ شيءٍ، فيكون مخلوقًا، فَمِنْ أعجب العَجَب؛ وذلك لأنَّ أفعال العباد كلَّها عندهم غيرُ مخلوقةٍ لله تعالى، وإنَّما يخلقها العباد جميعها، ولا يخلقها الله تعالى، فأخرجوها مِنْ عموم ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ وأدْخلوا كلامَ الله في عمومه، مع أنَّه صِفَةٌ مِنْ صفات الله، بِهِ تكون الأشياء المخلوقة؛ إذ بأمره تكون كلُّ المخلوقات.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]. ففرَّق بين الخَلْق والأَمْر، وطَرَد باطلهم أنْ تكونَ جميعُ صفاتِه تعالى مخلوقةٌ؛ كالعِلْم والقُدْرة وغيرهما، فذلك صريحُ الكُفْر؛ فإنَّ عِلْمَه شيءٌ، وقُدْرَته شيءٌ، وحياتَه شيءٌ، فيدخل ذلك في عموم ﴿كُلِّ﴾، فيكون مخلوقًا بعد أنْ لم

---

(١) الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن، ص٥٣ ـ ٥٤.

(٢) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص٦٩ ـ ٧٠.

يكُنْ ـ تعالى الله عمَّا يقولون علُوًّا كبيرًا)[1]. كذا في «شرح الفقه الأكبر» ص٣٢.

والخامس: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، ومعنى ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾: خَلَقْنَاه، لا فَرْق بينهما، وهما سواءٌ وواحدٌ.

وَالجَواب: إنَّ مَنْ جَعَل: «خلق» و«جعل» سواءً وواحدًا فقد أَبْعَدَ وَأَمْحَلَ، وتَقَوَّلَ على لُغَة العرب، وتَأَوَّلَ كتابَ الله على غير ما أَنْزَل. قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]. فهل يرضى هذا القائل أنْ يكون المعنى: «خلقتم الله عليكم كفيلًا، ولا تخافوا الله عُرْضةً»؟.

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [الرعد: ١٦] فعلى قول هذا القائل، يكون المعنى: «يخلقون لله البنات، وخلقوا له شركاء» وهو معنىً باطلٌ. والوجه: إنَّ «جعل» في كتاب الله يَحْتَمِل عند العرب معنيين: معنى «خَلَق»، ومعنى «صيَّر» يُراد به ما يُناسب المَقام[2]. كذا في كتاب «الحَيْدَة».

والحاصلُ: إنَّ الجَعْل في لغة العرب جاء لمعاني متعدِّدةٍ:

الأوَّل: صار.

والثَّاني: أوجد؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

والثَّالث: أخرجَ الشَّيء مِنْ شيءٍ، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ﴾ [النحل: ٧٢].

---

(١) منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر، ص١١٢ ـ ١١٣.

(٢) الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن، ص٦٩.

والرَّابع: تصيير الشَّيء على حالةٍ مخصوصةٍ، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

والخامس: الحكم بالشَّيء على الشَّيء؛ فمثال ما كان مِنْه حقًّا قولُه تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. ومثالُ ما كان باطلًا قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦][1]. كذا في «فتح الباري» ص٤١٢ ج١٣، وانظر ص٧٥ من كتاب «الإنصاف» «للباقلاني».

وهذا آخِرُ الكلام في مسألة الكلام، وأسأل الله سبحانه أنْ يجعلَه سببًا للفوز والفلاح، والسُّرور والنَّجاة، واستحقاق الدَّرجات برحمته؛ فإنَّه أرحمُ الرَّاحمين، وأكرمُ الأكرمين، وأجودُ الأَجْوَدِين، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله تعالى على خَير خلقه سيِّدنا ومولانا مُحمَّد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلينا معهم، يا خيرَ المسؤلين، ويا خيرَ المُعْطِين.

قال العبد الضَّعيف: وكان الفراغ مِنْه يومَ الأربعاء التَّاسع مِنْ شهر ربيع الثَّاني، مِن السَّنة التَّاسعة والثَّمانين بعد الألف وثلاثمائة مِن الهجرة النَّبويَّة، على صاحبها ألفُ ألفِ سلام، وألفُ ألفِ تحيَّةٍ، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

❁ ❁ ❁

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣/ ٤٩٤. الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص٧٢ ـ ٧٣.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

خَاتمةٌ في ذِكْر مُلَخَّص هذه الفتنة

كيف كان بَدْء فتنة القول بخَلْق القُرْآن، وقيام الإمام أحمد بن حَنْبَل في ذلك مَقَامَ الصِّدِّيقين رحمة الله عليه

كان أوَّل ظهور القول بخَلْقِ القُرْآن في أيَّام «الرَّشيد»[1]، إلاَّ أنَّ «الرَّشيد» لَمْ يَقُل بذلك، وكان النَّاس بين أَخْذٍ وتَرْكٍ، فلمَّا وُلِّيَ «المَأْمُون»[2] حَمَلَ النَّاسَ على ذلك، ودَعَا علماءَ الزَّمان إلى القول بخَلْقِ القُرْآن؛ لأنَّه كان قَدْ اسْتَحْوَذ عليه جماعةٌ من المُعْتَزِلَة، فأزاغوه عن طريق الحقِّ إلى الباطل، وزيَّنوا له القولَ بخَلْقِ القُرْآن ونفيِ صفاتٍ عن الله ﷻ، فوافقهم على القول بخَلْقِ القُرْآن، وأعلن برأيه؛ لأنه كان في بعض المسائل الخلافيَّة ميَّالًا إلى الاعتزال، وكان ممَّا وافقهم عليه القولُ بخَلْقِ القُرْآن، فأَعْلَن بِرَأْيِه في ذلك سنة ٢١٢هـ، على زَعْم أنَّه إذا أَعْلَن رأيَه للعلماء فإنَّهم يستجيبون لرأيه، ولكنْ جاء الأَمْرُ على عكس ما ظَنَّ وزَعَم، ورماه العلماء والفقهاء بالابتداع.

---

(١) هو أبو جعفر هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي، خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق، ولد سنة ١٤٩هـ، ولي الخلافة سنة ١٧٠هـ، توفي سنة ١٩٣هـ.

(٢) هو أبو العباس عبدالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، سابع خلفاء الدولة العباسية في العراق، ولد سنة ١٧٠هـ، ولي الخلافة سنة ١٩٨هـ، توفي سنة ٢١٨هـ.

واشتدَّ النِّزاع بين أهل الحقِّ وأهل الباطل، وجَرَت المباحثات والمناظرات، ولم يستطع أهل الاعتزال أنْ يغلِبوا على أهل السُّنَّة بالبرهان والحُجَّة. ورأى «المَأْمُونُ» أنَّ سعيَه قد أخفق، أراد أنْ يُرْغِمَ العلماءَ بقُوَّته وشوكته.

وكان القاضي أحمد بن أبي دُؤاد معتزليًا ممَّنْ نشأ في العلم، وتضلَّع بعلم الكلام، وكان رجلًا فصيحًا، وكان مُعَظَّمًا عند «المَأْمُون» أميرِ المؤمنين؛ يَقبل شفاعاته، ويُصغي إلى كلامه، فدَسَّ ابن أبي دؤاد له القولَ بخَلْقِ القُرْآن، وحَسَّنَه عنده، وصَيَّره يعتقده حقًّا بيِّنًا، إلى أنْ أَجْمَع رَأْيَه في سنة ثمان وعشر ومائتين سنة ٢١٨ على الدُّعاء إليه، فكتب إلى نائبه بـ «بغدادَ» «إسحاق بن إبراهيم بن مصعب»[١] يأمرُه أنْ يَمْتَحِنَ القضاةَ والمُحَدِّثينَ بالقول بخَلْقِ القُرْآن، وأنْ يُرْسِلَ إليه جماعةٌ منهم، وكتب إليه كتابًا طويلًا مضمونه الاحتجاج على أنَّ القُرْآنَ مُحْدَثٌ، كما قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وكلُّ مُحْدَثٍ مخلوقٌ.

ولمَّا وَرَدَ كتابُ «المَأْمُون» «بغدادَ» قُرِئَ على النَّاس، وقد عَيَّن «المَأْمُونُ» جماعةً مِن المُحَدِّثين ليُحْضِرَهم إليه؛ وهم: «مُحمَّد بن سعد»[٢] كاتب «الواقديِّ»[٣]، و«أبو مُسْلِمٍ المُسْتَمْلِيِّ»[٤]، و«يزيد بن هارون»[٥]،.....

---

(١) هو أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب المصعبي الخزاعي، توفي سنة ٢٣٥هـ.

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الزهري، مولاهم، ولد سنة ١٦٨هـ، توفي سنة ٢٣٠هـ.

(٣) هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن واقد السهمي الواقدي، ولد سنة ١٣٠هـ، توفي سنة ٢٠٧هـ.

(٤) هو أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس الرقي المستملي، توفي سنة ٢٢٤هـ.

(٥) هو أبو خالد يزيد بن هارون بن زاذان السلمي الواسطي، ولد سنة ١١٨هـ، توفي سنة ٢٠٦هـ.
تنبيه: الفتنة حدثت سنة ٢١٨هـ، ولهذا يستبعد أن يكون يزيد بن هارون من ضمن الحاضرين.
وفي الطبري وابن الاثير وردت العبارة: «وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون» وهي أصح.

و«يحيى بن مَعين»[1]، و«أبو خيثمة زُهَير بن حَرْب»[2]، و«إسماعيل بن مسعود»[3]، و«أحمد بن الدَّورقي»[4]. فبعث بهم إلى «المَأْمُون» إلى «الرَّقَّة»[5]، فامتحنهم بخَلْقِ القُرْآن، فأجابوه إلى ذلك، وأظهروا موافقتَه وهم كارهون، فرَدَّهم إلى «بغداد»، وأمرهم بإشهار أمرهم بين الفقهاء، ففعل ذلك «إسحاق»، وأحضر خلقًا مِنْ مشايخ الحديث والفقهاء وأئمَّة المساجد وغيرهم، فدعاهم إلى ذلك عَن أَمْر «المَأْمُون»، وذكر لهم موافقةَ أولئك المُحَدِّثين له على ذلك، فأجابوا بمِثْل جواب أولئك موافقةً لهم، ووقعت بين النَّاس فتنةٌ عظيمةٌ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

❁ ❁ ❁

(١) هو أبو زكريا يحيى بن معين بن عون بن زياد المرى البغدادي، ولد سنة ١٥٨، توفي سنة ٢٣٣هـ.

(٢) هو أبو خيثمة زهير بن حرب بن شداد النَّسائي البغدادي، ولد سنة ١٦٠هـ، توفي سنة ٢٣٤هـ.

(٣) هو أبو مسعود إسماعيل بن مسعود الجحدري البصري، توفي سنة ٢٤٨هـ.

(٤) هو أبو عبدالله أحمد بن إبراهيم بن كثير البغدادي الدورقي، ولد سنة ١٦٨هـ، توفي سنة ٢٤٦هـ.

(٥) مدينة مشهورة على نهر الفرات، وأصله كل أرض إلى جنب واد ينبسط عليها الماء، وجمعها رقاق، وقال غيره: الرقاق الأرض اللينة التراب، وقال الأصمعي: الرقاق الأرض اللينة من غير رمل. معجم البلدان لياقوت الحموي، ٣/ ٥٨ ـ ٥٩. وهي اليوم مدينة في شمال سوريا، تقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات، على بعد حوالي ١٦٠ كم شرق مدينة حلب.

كتابٌ آخَرَ مِن «المَأْمُون» إلى «إسْحَاق»

ثمَّ كتب «المَأْمُون» إلى «إسحاق» أيضًا بكتابٍ ثانٍ يستدِلُّ به على القول بخَلْقِ القُرْآن بشُبَهٍ مَن الدَّلائل لا تحقيقَ تحتها ولا حاصل لها، وأورد عليه القُرْآنَ، آياتٌ هي حُجَّةٌ عليه ـ أورد «ابن جريرٍ»[1] ذلك كلَّه ـ وأَمَرَ نائبَه أنْ يَقْرَأَ ذاك على النَّاس، وأنْ يدعوهم إليه وإلى القول بخَلْقِ القُرْآن، وأَمَرَ نائبَه أنْ يَمْتَحِنَهم. ثمَّ وردت مِن «المَأْمُون» عِدَّةُ كُتُبٍ إلى عَامِلِه يأْمُرُه فيها بامتحان أهل الحديث في مسألة خَلْقِ القُرْآن، وفي بعضها يقول له: «فمَنْ لم يُجِب أنَّه مخلوقٌ فامنعه مِن الفتوى والرِّواية». وفي بعضها يأمُر عامِلَه بقتل مَنْ لم يقل بخَلْقِ القُرْآن، وفي بعضها يقول: «فمَنْ أجاب مِنْهم شَهِّرْ أَمْرَه في النَّاس، ومَنْ لم يُجِب منهم فابعثه إلى عسكر أمير المؤمنين مقيَّدًا متحفَّظًا به، حتَّى يصل إلى أمير المؤمنين، فيَرَى فيه رأيه، ومِن رأيه أنْ يُضْرَبَ عُنُقُ مَنْ لم يقل بقوله.

فعند ذلك عَقَد النَّائب بـ «بغدادَ» مجلسًا آخرَ، وَأُحْضِرَ أولئك، وفيهم «إبراهيم بن المهدي»[2]، وكان صاحبًا لـ «بشر بن الوليد الكِنْدِيِّ»[3]، وقد نَصَّ «المَأْمُون» على قتلهما إنْ لم يُجِيبا على الفور، فلمَّا امتحنهم «إسحاق» أجابوا كلُّهم مُكْرَهين مُتأوِّلينَ قولَه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾... الآية [النحل:١٠٦]. إلَّا

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، ولد سنة ٢٢٤هـ، توفي سنة ٣١٠هـ.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المهدي، أخو هارون الرشيد، ولد سنة ١٦٢ توفي سنة ٢٢٤هـ.

(٣) هو أبو الوليد بشر بن الوليد الكندي، توفي سنة ٢٣٨هـ.

أربعة؛ وهم: «أحمد بن حَنْبَل»، و«مُحمَّد بن نُوح»[1]، و«الحسن بن حمَّاد سَجَّادة»[2]، و«عبيدالله بن عمر القواريري»[3]. فقيَّدهم وأرصدهم يبعث بهم إلى «المَأْمُون». ثمَّ استدعى بهم في اليوم الثَّاني فامتحنهم، فأجاب «سجَّادة» إلى القول بذلك. ثمَّ امتحنهم في اليوم الثَّالث فأجاب «القواريريُّ» إلى ذلك فأطلق قيده. وأخَّر «أحمدَ بن حَنْبَل» و«مُحمَّد بن نوح الجُنْدَيْسَابُوري»[4]؛ لأنهما أَصَرَّا على الامتناع مِن القول بذلك، فأكَّد قيودَهما، وجمعهما في الحديد، وبعث بهما إلى الخليفة وهو بـ «طَرْسُوس»[5]، وكَتب كتابًا بإرسالهما إليه، فسارا مقيَّدَين في مَحَارَةٍ[6] على جَمَلٍ مُتعادِلَين ﷺ، وجعل «الإمام

---

(١) هو أبو الحسن محمد بن نوح بن ميمون الجنديسابوري، توفي سنة ٢١٨هـ.

(٢) هو أبو علي الحسن بن حماد بن كسيب الحضرمي البغدادي المعروف بسجادة، توفي سنة ٢٤١.

(٣) هو أبو سعيد عبيدالله بن عمر بن ميسرة الجشمي القواريري البصري، توفي سنة ٢٣٥هـ.

(٤) نسبة إلى بلدة «جنديسابور»، وهي مدينة بالأهواز كانت في عهد الساسانيين عاصمة الأهواز (خوزستان). ضعفت المدينة في القرن الرابع للهجرة ثم انقرضت في القرن السابع. ومحافظة خوزستان هي إحدى محافظات إيران الأحدى والثلاثين ومركزها مدينة الأهواز. وكانت تسمى قديما حتى سنة ١٩٢٥م عربستان؛ لأن أغلبية سكانها قديما وحتى الآن من العرب.

(٥) ثغر من أهم الثغور الإسلامية في منطقة (كليكيا) بين نهري سيحان وجيحان، ويشقها نهر (البردان) وقد ظلت من أكبر الثغور حتى استولى عليها الروم سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م) وظلت بيدهم حتى سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م). فيها دفن الخليفة المأمون حين وفاته. وطرسوس اليوم من مدن الجمهورية التركية. وهي مدينة تركية تقع جنوب البلاد على ساحل البحر الأبيض المتوسط، تابعة لمحافظة مرسين، وتبعد حوالي ١٥ كم عن مدينة مرسين و ٤٠ كم عن مدينة أضنة.

(٦) محارة بالتخفيف، والعامة يشددون، ويجمع بالألف والتاء «محارات» ولكن العامة يجمعونها «محاير»، وهو محمل يوضع فوق الإبل يشبه الهودج. بعضه مستفاد من: «تاج العروس» ١١/ ١٠٦.

أحمد» يدعو الله ﷻ أنْ لا يجمع بينهما وبين «المَأْمُون»، وأنْ لا يرياه وأنْ لا يراهما.

ثمَّ جاء كتاب «المَأْمُون» إلى نائبه، أنَّه قد بلغني أنَّ القوم إنَّما أجابوا مُكْرَهين مُتأوِّلينَ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾... الآية [النحل: ١٠٦]، وقد أخطأوا في تأويلهم، فأَرْسِلْهم كُلَّهم إلى أمير المؤمنين، فاستدعاهم «إسحاق»، وألزمهم بالسَّير إلى «طَرْسُوس»، فساروا إليها، فلما كانوا ببعض الطَّريق بلغهم موتُ «المَأْمُون»، فرُدُّوا إلى «الرَّقَّة»، ثمَّ أُذن لهم بالرجوع إلى «بغداد». وكان «أحمدُ بن حَنْبَل» و«مُحمَّد بن نوح» قد سبقا النَّاس، ولكن لم يجتمعا به، بل أهلكه الله قبل وصولهما إليه، واستجاب سبحانه دعاءَ عبدِه ووليِّه الإمامِ «أحمدَ بن حَنْبَل»، فلم يريا «المَأْمُون» ولا رآهما، بل رُدُّوا إلى «بغداد»[1]. كذا في «البداية والنهاية» من ص٢٧٢ ج١٠ إلى ص٢٧٤ ج١٠.

قال الإمام البَيْهَقِيُّ: لم يكن في الخلفاء قبل «المَأْمُون» مِنْ بني أُمَيَّة وبني العبَّاس خليفةٌ إلَّا على مَذْهَب السَّلَف ومنهاجهم، فلمَّا وَلِيَ هو الخلافة اجتمع به جماعةٌ من المُعْتَزِلَة، فحملوه على القول بخَلْقِ القُرْآن، وزَيَّنوا له. واتَّفق خروجه إلى «طَرْسُوس» لِغَزْو الرُّوم، فكتب إلى نائبه ببغداد «إسحاق بن إبراهيم بن مصعب» يأمُرُه أنْ يدعُوَ النَّاس إلى القول بخَلْقِ القُرْآن، واتَّفق له ذلك آخر عمره قبل موته بشهورٍ من سنة ثماني عشرة ومائتين، فلمَّا وصل الكتابُ كما ذكرنا، استدعى جماعةً مِن أئمَّة الحديث، فدعاهم إلى ذلك فامتنعوا، فتهدَّدهم بالضَّرب وقطع الأرزاق، فأجاب أكثرُهم مُكْرَهين، واستمرَّ على الامتناع من ذلك الإمام «أحمد بن حَنْبَل» و«مُحمَّد بن نوح

---

(١) البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ١٠/ ٢٧٢ ـ ٢٧٤، دار الفكر، سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

الجُنْدَيْسَابُوري» فحُمِلا على بَعيرٍ، وسُيِّرًا إلى الخليفة عن أمره بذلك، وهما مُقَيَّدان متعادلان في مَحْمَلٍ واحدٍ على بعيرٍ واحدٍ.

فلما كانا ببلاد «الرُّحْبَة»[1] جاءهما رجلٌ مِن الأعراب مِنْ عُبَّادهم؛ يقال له: «جابر بن عامر»[2] فسلَّم على «الإمام أحمد»، وقال له: (يا هذا، أنت وَافِد النَّاس، فلا تكُن شُؤمًا عليهم، وإنَّك رأس النَّاس اليوم، فإيَّاك أنْ تجيبَهم إلى ما يدعونك إليه فيُجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإنْ كنتَ تُحِبُّ اللهَ تعالى فاصبِر على ما أنت فيه، فإنَّه ما بينك وبين الجنَّة إلَّا أنْ تُقْتَل، وإنَّك إنْ لم تُقْتَل تَمُت، وإنْ عِشْتَ عِشْتَ جيِّدًا) فجعل «أَحْمَد» يبكي، ويقول: ما شاء الله، ما شاء الله. ثمَّ قال لي: (يا أبا جعفر، أعِد عليَّ ما قُلتَ)، فأعدتُ عليه، وهو يقول: ما شاء الله، ما شاء الله[3].

«تاريخ ابن عساكر» ص٤١ ج٢.

قال «أَحْمَدُ»: (وكان كلامُه ممَّا قَوَّى عزمي على ما أنا فيه، من الامتناع من ذلك الَّذِي يدعونني إليه). فلمَّا اقتربا مِن جيش الخليفة، ونزلوا دُونه بمَرْحلةٍ، جاء خادمٌ وهو يمسح دموعه بطَرْف ثوبه، ويقول: (يَعِزُّ عليَّ يا «أبا عبدالله» أنَّ «المَأْمُون» قد

---

(١) تقع مدينة الرحبة القديمة على الضفة اليمنى للفرات ما بين دير الزور في الشمال والصالحية في الجنوب، ويطلق على مدينة الرحبة رحبة الشام أو رحبة مالك بن طوق حيث تقع قلعة الرحبة. وهي الآن تعرف باسم الميادين، والميادين مدينة سورية تابعة لمحافظة دير الزور، وتقع على نهر الفرات على بعد ٤٥ كيلومترًا من مدينة دير الزور في الجهة الجنوبية الشرقية منها.

(٢) هو أبو جعفر جابر بن عامر الأنصاري، لا نَعلم عنه غير ذلك.

(٣) تاريخ دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، ٥/ ٣١٢، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سنة: ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

سَلَّ سيفًا لم يَسُلُّه قبل ذلك، وأنَّه يُقْسِم بقرابته مِن رسول الله ﷺ لإنْ لم تُجِبْه إلى القول بخَلْقِ القُرْآن لَيَقْتُلَنَّك بذلك السَّيف). قال: فجثى الإمام «أحمد» على ركبتيه، ورمق بطرفه إلى السَّماء، وقال: (سيِّدي، غَرَّ حلمُك هذا الفاجر، تجرَّأ على أولياءك بالضَّرب والقتل، اللهم فإنْ يكُنْ القُرْآنُ كلامَك غيرَ مخلوق فاكفنا مَؤُنته). وقال: فجاءهم الصَّريخ بموت «المَأْمُون» في الثُّلث الأخير من الليل. قال «أحمد»: فَفَرِحْنَا، ثمَّ جاء الخبر أنَّ «المُعْتَصِم» قد وَلِيَ الخلافة، وقد انضمَّ إليه «أحمد بن أبي دؤاد»، وأنَّ الأَمْرَ شديدٌ، فرَدُّونا إلى «بغداد» في سفينةٍ مع بعض الأُسارى، ونالني مِنْهم أذىً كثيرٌ، وكان في رجليه القيود، ومات صاحبُه «مُحمَّد بن نوح» في الطَّريق، وصلَّى عليه «أَحْمَد»، فلمَّا رجع «أَحْمَد» إلى «بغداد» دخلها في رمضان، وأُوْدِع في السِّجن نحوًا مِن ثمانيةٍ وعشرين شهرًا، ثمَّ أُخرج إلى الضَّرب بين يدي «المُعْتَصِم» كما سيأتي ذكره.

ذكر المحنة في أيَّام «المُعْتَصِم»

ثمَّ لمَّا مات «المَأْمُون» تولَّى أخوه «المُعْتَصِم»[1] الخلافة بعده، وسار على طريقة أخيه، فإنَّ «المَأْمُون» في مرضه قبل وفاته كان أنفذ وصيَّةً إلى أخيه «المُعْتَصِم» بالسَّير على طريقته في مسألة خَلْق القُرْآن، و«المُعْتَصِم» وإنْ لم يكُنْ على جانبٍ عظيمٍ مِن العِلْم كما كان «المَأْمُون»، لكِنْ لأجل رغبته في تنفيذ وصيَّة أخيه سار على طريقته، فأحيا الفتنة، وأقام سوق المِحْنة، وكتب إلى البلاد بامتحان النَّاس في مسألة خَلْق القُرْآن، وأمر المُعَلِّمين أنْ يُعَلِّمُوا الصِّبْيان أنَّ القُرْآنَ مخلوقٌ، وقتل في ذلك خَلْقًا مِن العلماء، وأهان كثيرًا مِنْ أهل الحديث، لا سيَّما «الإمام أحمد بن حَنْبَل» الَّذِي أصر على امتناعه مِن القول بخَلْقِ القُرْآن، واستمرت المحنة إلى أن مات «المُعْتَصِم» سنة ٢٢٧هـ.

(١) هو المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي، ثامن خلفاء الدولة العباسية في العراق، ولد سنة ١٧٩هـ، ولي الخلافة سنة ٢١٨هـ، توفي سنة ٢٢٧هـ.

ذِكْرُ ضَرْبِ الإمام أَحْمَد ﷺ
بَين يَدي «المُعْتَصِم» عَليه مِنَ اللّه مَا يستحقُّه

لمَّا مات «المَأْمُون»، وجاء الخبر بأنَّ «المُعْتَصِم» قد وَلِيَ الخلافة، وقد انضمَّ إليه «أحمد بن أبي دؤاد»، رُدَّ «أحمد بن حَنْبَل» مع رفقاءه إلى «بغداد» في سفينةٍ، وكان في رجليه القيود، ومات صاحبه «مُحمَّد بن نوح»، وصلَّى عليه «أَحْمَد»، فلما رجع «أَحْمَد» إلى «بغداد» دخلها في رمضان، فأُودِع في السِّجْن نحوًا مِنْ ثمانيةٍ وعشرين شهرًا، وقيل: نَيِّف وثلاثين شهرًا، ثمَّ أُخْرج إلى الضَّرب بين يدي «المُعْتَصِم»، وقد كان «أَحْمَد» يُصَلِّي في السِّجن، والقيود في رِجْليه، ولمَّا أحضره «المُعْتَصِم» مِن السِّجن زاد في قيوده. قال «أَحْمَد»: فلَمْ أستطع أنْ أَمْشِيَ بها، فربطتها في التِّكَّة، وحَملتُهَا بيدي، ثمَّ جاؤني بدابَّةٍ فحُمِلْت عليها، فكِدتُ أنْ أَسْقُط على وجهي مِن ثِقَل القيود، وليس معي أحدٌ يُمْسِكُني، فسلَّم الله، حتَّى جئنا دارَ «المُعْتَصِم»، فأُدْخِلتُ في بيتٍ وأُغْلِق عليَّ، وليس عندي سِراجٌ، وأردتُ الوضوءَ فمدَدت يدي، فإذا إناءٌ فيه ماءٌ، فتوضَّأت مِنْه، ثمَّ قمتُ ولا أعرفُ القِبْلة، فلما أصبحت إذا أنا على القِبْلة، ولله الحمد.

ثمَّ دُعِيت فأُدْخِلْت على «المُعْتَصِم»، فلمَّا نَظَرَ إليَّ وعنده «ابن أبي دؤاد»، قال: (أليس قد زعمتم أنَّه حَدَثُ السِّنِّ، وهذا الشَّيخ مُكَهَّل). فلمَّا دنوتُ مِنْه وسَلَّمت، قال لي: «أَدْنِه» فلم يزل يدنيني حتَّى قَرُبْتُ مِنْه، ثمَّ قال: «اجْلِس» فجلستُ وقد أثقلني الحديد، فمكثت ساعةً، ثمَّ قُلتُ: (يا أمير المؤمنين إلامَ دَعَا إليه ابنُ عَمِّك رسول الله ﷺ)، قال: (إلى شهادة أنْ لا إله إلَّا الله)، قلت: (إنِّي أشهد أنْ لا إله إلَّا الله) قال: ثمَّ

ذكرت له حديثَ «ابن عبَّاسٍ» في وَفْدِ عبد القيس، ثمَّ قلتُ: (فهذا الَّذِي دعا إليه رسول الله ﷺ) قال: ثمَّ تكلَّم «ابن أبي دؤاد» بكلامٍ لم أفهمه، وذلك أنِّي لم أتفقَّه كلامَه، ثمَّ قال «المُعْتَصِم»: (لولا أنَّك كنت في يدِ مَنْ كان قبلي لم أتعرَّض إليك) ثمَّ قال: (يا «عبدَ الرَّحمن»[1] ألَمْ آمُرْك أنْ تَرْفَع المِحْنة)، قال «أَحْمَد»: فقلت: (الله أكبر، هذا فَرَجٌ للمسلمين)، ثمَّ قال ناظرُهُ: (يا «عبدَ الرَّحمن» كلِّمْه).

فقال لي «عبد الرَّحمن»: (ما تقول في القُرْآن؟) فلَمْ أُجِبْه، فقال «المُعْتَصِم»: (أَجِبْه) فقلتُ: (ما تقول في العِلْم؟) فَسَكَت، فقلتُ: (القُرْآنُ مِن عِلْم الله، ومَنْ زَعَم أنَّ عِلْم الله مخلوقٌ فقد كَفَر بالله) فَسَكَتَ، فقالوا فيما بينهم: (يا أميرَ المؤمنين كَفَّرك وكَفَّرنا) فلم يَلْتفت إلى ذلك، فقال «عبد الرَّحمن»: (كان الله، ولا قرآن) فقلت: (كان الله، ولا عِلْم؟!) فَسَكَت، فجعلوا يتكلَّمون مِن هنا وهنا، فقلتُ: (يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئًا مِنْ كتاب الله أو سُنَّة رسوله، حتى أقول به) فقال «ابن أبي دؤاد»: (وأنتَ لا تقول إلَّا بهذا وهذا؟) فقلت: (وهل يقوم الإسلام إلَّا بهما؟!).

وجَرَت مناظرةٌ طويلةٌ، واحتجوا عليه بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]. وبقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]. وأجاب بما حاصله أنَّه عامٌّ مخصوصٌ، وقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فقال «ابن أبي دؤاد»: (هو والله يا أمير المؤمنين ضالٌّ مُضِلٌّ مُبْتَدِعٌ، وهنا قضاتُك والفقهاءُ فَسَلْهُم) فقال لهم: (ما تقولون؟) فأجابوا بمثل ما قال «ابن أبي دؤاد».

ثمَّ أحضروه في اليوم الثَّاني وناظروه أيضًا، ثمَّ في اليوم الثَّالث، وفي ذلك كلِّه يعلو صوتُه عليهم، وتَغْلِب حُجَّته حُجَجِهم. قال: فإذا سَكَتُوا فَتَح الكلامَ عليهم «ابن

---

(١) هو عبد الرحمن بن إسحاق الشافعي، لا أعلم عنه غير ذلك.

أبي دؤاد»، وكان مِن أجهلهم بالعلم والكلام، وقد تنوَّعت بهم المسائل في المجادلة، ولا عِلم لهم بالنَّقْل، فجعلوا ينكرون الآثار، ويَرُدُّون الاحتجاج بها، وسمعتُ منهم مقالاتٍ لَم أكُن أظنُّ أنَّ أحدًا يقولها، وقد تكلَّم معي «ابن غوث»[1] بكلامٍ طويل ذَكَر فيه الجِسْمَ وغيرَه بما لا فائدة فيه، فقلتُ: (إنِّي لا أدْري ما تقول، إلَّا أنِّي أعلم أنَّ الله أَحَدٌ صَمَدٌ، ليس كمثله شيءٌ) فَسَكَتَ عنِّي، وقد أوردتُ لهم حديثَ الرُّؤية في الدَّار الآخرة، فحاولوا أنْ يُضَعِّفُوا إسناده، ويُلَفِّقُوا عنْ بعض المُحَدِّثينَ كلامًا يتسلَّقون به إلى الطَّعن فيه، وهيهات، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢].

وفي غُبُون ذلك كلِّه يتلَطَّف به الخليفة، ويقول: (يا «أحمد»، أجبني إلى هذا، حتَّى أجعلَك مِن خاصَّتي، وممَّن يطأ بساطي)، فأقول: (يا أمير المؤمنين، يأتوني بآيةٍ مِنْ كتاب الله، أو سُنَّةٍ مِنْ رسول الله ﷺ، حتَّى أُجِيبُهم إليها). واحتَجَّ «أَحْمَد» عليهم حين أنكروا الآثار، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]. وبقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. وبقوله: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤]. وبقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. ونحو ذلك من الآيات.

فلمَّا لَم يَقُمْ لهم معه حُجَّةٌ عَدَلُوا إلى استعمال جاه الخليفة، فقالوا: (يا أمير المؤمنين، هذا كافِرٌ ضالٌّ مُضِلٌّ)، وقال له «إسحاق بن إبراهيم» نائب «بغداد»:

---

(١) في هامش الأصل، لعله: ابن غياث، وهو المريسي. [المصنف]. وليعلم أن بشرا المريسي المذكور توفي سنة ٢١٨هـ، وهي نفس السنة التي بدأت فيها فتنة خلق القرآن. ثم وقفت في كتاب: «المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد» لمجير الدين العليمي الحنبلي ١/ ١٣٠ ما يفيد أن بشرا المريسي حضر المناظرة.

(يا أمير المؤمنين، ليس من تدبير الخلافة أنْ تُخَلِّيَ سبيلَه، ويَغْلِب خليفتين)، فعند ذلك حَمِيَ واشْتَدَّ غضبُه، وكان ألينُهم عريكةً، وهو يظنُّ أنَّهم على شيءٍ، قال «أَحْمَد»: فعند ذلك، قال لي: (لعنك الله، طَمِعْتُ فيك أنْ تُجِيبَني فَلَمْ تُجِبْني)، ثمَّ قال: (خُذُوه، واخلعوه، واسحبوه).

قال «أَحْمَد»: فأُخِذْتُ وسُحِبْت وخُلِّعْتُ، وجيء بالعُقَابَين[1] والسِّياط وأنا أنظر، وكان معي شَعَرَاتٌ مِنْ شَعْر النَّبيِّ ﷺ مصرورةٌ في ثوبي، فجرَّدُوني مِنْه، وصِرْتُ بين العُقَابَين، فقلت: (يا أميرَ المؤمنين، اللهَ اللهَ، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يَحِلُّ دمَ امرئٍ مُسْلِمٍ يشهد أنْ لا إله إلَّا الله إلَّا بإحدى ثلاث»، «أمِرْتُ أنْ أقاتل النَّاس حتَّى يقولوا: لا إله إلَّا الله، فإذا قالوها عَصَموا مِنِّي دمائهم وأموالهم» فَبِمَ تَسْتَحِلُّ دَمَي ولَم آتِ شيئًا مِنْ هذا يا أمير المؤمنين؟ اذْكُر وقوفَك بين يدي الله كوُقُوفي بين يديك)، فكأنَّه أمْسَك، ثمَّ لم يزالوا يقولون له: (يا أميرَ المؤمنين، إنَّه ضالٌّ مُضِلٌّ كافرٌ) فأَمَر بي.

فقمتُ بين العُقَابَين، وجِيءَ بكُرسيٍّ فأُقِمْتُ عليه، وأمرني بعضهم أنْ آخُذَ بيدي بأيِّ الخَشَبَتَين، فلم أفهم فتخلَّعت يداي، وجِيءَ بالضَّرَّابين ومعهم السِّياط، فجعل أحدهم يضربني سوطين، ويقول له ـ يعني «المُعْتَصِم» ـ: (شُدَّ، قَطَع الله يديك) ويجيء الآخر، فيضربني سوطين، ثمَّ الآخر كذلك، فضربوني أسواطًا فأُغمي عليَّ، وذهب عقلي مِرارًا، فإذا سكن الضَّرْب يعود عليَّ عقلي. وقام «المُعْتَصِم» إليَّ يدعوني إلى قولهم، فلم أجبه، وجعلوا يقولون: (ويحك، الخليفة على رأسك)، فلَم أقبل، وأعادوا الضَّرْب، ثمَّ عاد إليَّ فلم أُجِبْه، فأعادوا الضَّرْب، ثمَّ جاء إليَّ الثالثة، فدعاني فلم أَعْقِل

---

(١) العقابان عودان ينصبان مغروزين في الأرض يمد بينهما المضروب أو المصلوب. المغرب في ترتيب المعرب، ص٢٤٣.

ما قال مِنْ شِدَّة الضَّرْب، ثمَّ أعادوا الضَّرْب، فذهب عقلي ولم أُحِسْ بالضَّرْب، وأزعَبَه ذلك مِنْ أمري، وأمر بي فأُطلقت، ولم أشعر إلَّا وأنا في حُجْرةٍ من بيتٍ، وقد أطلقت الأقياد من رجلي، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين مِنْ رمضان مِنْ سنة إحدى وعشرين ومائتين، ثمَّ أَمَر الخليفة بإطلاقه إلى أهله، وكان جملة ما ضُرِبَ نيفًا وثلاثين سوطًا، وقيل ثمانين سوطًا، لكن كان ضربًا مُبرِّحًا شديدًا جدًّا.

وقد كان الإمام «أَحْمَد» رجلا طُوالًا، رقيقًا، أسمرَ اللون، كثيرَ التَّواضُع رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولما حُمِل مِنْ دار الخلافة إلى دار «إسحاق بن إبراهيم» وهو صائم، أُتوه بِسَوِيقٍ ليُفْطر مِن الضَّعف، فامتنع مِنْ ذلك وأتَمَّ صومَه، وحين حَضَرت صلاة الظُّهر صلَّى معهم، فقال له «ابن سَمَاعة» القاضي[1]: (صلَّيتَ في دَمِك؟) فقال له «أَحْمَد»: (قد صلَّى عُمَرُ وجُرحُه يَثْعُب دمًا) فَسَكَت.

ويُرْوى أنَّه لمَّا أُقيم يُضْرَب انقطعت تِكَّة سراويله، فخَشي أنْ يَسقُط سراويله، فتُكشَف عورته، فحرَّك شفتيه، فدعا الله، فعاد سراويله كما كان. ويُرْوى أنَّه قال: (يا غِياث المستغيثين، يا إله العالمين، إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنِّي قائمٌ لك بحقٍّ، فلا تهتك لي عورتي)[2]. كذا في «البداية والنِّهاية» ص٣٣٣ وص٣٣٥ ج١٠.

ورُوي أنَّه لمَّا ضُرِبَ سوطًا، قال: (بسم الله)، فلمَّا ضُرِب الثَّاني، قال: (لا حول ولا قوة إلَّا بالله) فلمَّا ضُرِبَ الثَّالث، قال: (القُرْآن كلام الله غير مخلوقٍ) فلمَّا ضُرِبَ الرَّابع، قال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١] فضَرَبه تسعةً وعشرين سوطًا، وكان تِكَّة «أَحْمَد» حاشيةَ ثوبٍ، فانقطعت، فَنَزَل السَّراويل إلى عانَته، فرَمَى

---

(١) هو أبو عبدالله محمد بن سماعة بن عبدالله بن هلال التميمي، ولد سنة ١٣٠، توفي سنة ٢٣٣هـ.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، ١٠/ ٣٣٠ ـ ٣٣٥.

بطرفه إلى السَّماء، وحرَّك شفتيه، فما كان بأسرعَ مِن ثبوت السَّراويل على حاله لم تتزحزح. قال الرَّاوي: فدخلتُ على «أَحْمَد» بعد سبعة أيَّام، فقلتُ: (يا «أبا عبدالله»، رأيتُك وقد انحلَّ سراويلك، فرفعتَ طرفَك نحو السَّماء فثَبت، ما الَّذِي قلتَ؟) قال: (قلت: اللهم إنِّي أسألك باسمك الَّذِي ملأتَ به العرش، إنْ كنت تعلم أنِّي على الصَّواب، فلا تهتك لي سِتْرًا). وفي روايةٍ: لمَّا أقبل الدَّم مِنْ أكتافه، انقطع خيط السَّراويل ونزل، فَرَفَع طَرْفَه إلى السَّماء، فعاد مِن لحظته فسُئِل «أَحْمَد»، فقال: (قُلْت: إلهي وسيِّدي، وقَفْتَني هذا الموقِف، فلا تهتِكْنِي على رؤوس الخلائق). ورُوِي أنَّه كان كلَّما ضُرِب سوطٌ أبرأ ذِمَّة «المُعْتَصِم»، فسُئِل: فقال: (كَرِهْتُ أنْ آتيَ يوم القيامة، فيقال: هذا غريم ابن عم النَّبيِّ ﷺ، أو رجلٍ مِن أهل بيت النَّبيِّ ﷺ)[1]. كذا في «الطبقات» «طبقات الشَّافعيَّة الكُبْرَى» ص٢١٣.

ولمَّا رجع إلى منزله جاءه الجرائحي[2]، فقَطَع لحمًا ميْتًا مِنْ جَسَده، وجَعَل يداويه، والنَّائب في كلِّ وقتٍ يسأل عنه، وذلك أنَّ «المُعْتَصِم» نَدَم على ما كان مِنْه إلى «أَحْمَد» ندمًا كثيرًا، وجعل يسأل النَّائبَ عنه، والنَّائبُ يَسْتَعْلِم خبرَه، فلمَّا عُوفي فَرِح «المُعْتَصِم» والمسلمون بذلك، ولمَّا شفاه الله بالعافية بَقِيَ مُدَّةً وإبهاماه يوذيهما البَرْد، وجَعَلَ كلَّ مَنْ آذاه في حِلٍّ إلَّا أهل البدعة، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾.... الآية [النور: ٢٢]. ويقول: (ماذا ينفعك أنْ يُعذَّب أخوك المُسْلِم بسببك؟ وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. وينادي المنادي يوم القيامة: ليقم مَنْ أجره على الله فلا يقوم إلَّا مَن عفا).

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي، ٢/ ٥١.

(٢) نسبة إلى الطبيب المشتغل بالجرائح أي الجراحة.

وكان الَّذِين ثبتوا على الفتنة فلم يجيبوا بالكُلِّيَّة هم خمسة: «أحمد بن حَنْبَل» ـ وهو رئيسهم، و«مُحمَّد بن نوح بن ميمون الجُنْدَيْسَابُوري» ـ ومات في الطريق، و«نُعَيم بن حمَّاد الخزاعي»[1] ـ وقد مات في السِّجْن، و«أبو يعقوب البُوَيطي»[2] ـ وقد مات في سجن «الوَاثِق» على القول بخَلْقِ القُرْآن، وكان مثقلا بالحديد، و«أحمد بن نصر الخُزَاعي»[3] ـ وقد ذكرنا كيفية مقتله[4]. كذا في «البداية والنِّهاية» ص٣٣٥ ج١٠.

وكان الإمام «أَحْمَد» عالمًا بما ورد عليه مِنْ الابتلاء، فقد روى «البَيْهَقِيُّ»، عن «الرَّبيع»[5]، قال: بعثني «الشَّافعيُّ» بكتابٍ مِنْ مِصْر إلى «أحمد بن حَنْبَل»، فأتيته وقد انفتل مِنْ صلاة الفجر، فدفعت إليه الكتاب، فقال: (أقرأته؟)، فقلتُ: (لا). فأخذه فقرأه، فدمعت عيناه، فقلتُ: (يا «أبا عبدالله»، ما فيه؟)، فقال: (يذكر أنَّه رأى رسول الله ﷺ في المنام، فقال: اكتب إلى «أبي عبدالله أحمد بن حَنْبَل»، واقرأ عليه مِنِّي السَّلام، وقل له: إنَّك ستمتحن، وتدعى إلى القول بخَلْقِ القُرْآن، فلا تُجِبْهم، يرفع الله لك عَلَمًا إلى يوم القيامة). قال «ربيع»: فقلتُ: (حلاوةَ البِشارة)، فخلع قميصه الَّذِي يلي جلده وأعطانيه، فلما رجعتُ إلى «الشَّافعيِّ» أخبرته، فقال: (إنِّي لست أفجعك فيه، ولكن بُلَّه بالماء، وأعطنيه حتَّى أتبرَّك به).

❁ ❁ ❁

(١) هو أبو عبدالله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي، توفي سنة ٢٢٨هـ.

(٢) هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى القرشي البويطي، صاحب الإمام الشافعي، توفي سنة ٢٣١هـ.

(٣) هو أبو عبدالله أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي البغدادي، قتل سنة ٢٣١هـ.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير، ١٠/ ٣٣٥.

(٥) هو أبو محمد الربيع بن سليمان المرادي المصري، ولد سنة ١٧٤هـ، توفي سنة ٢٧٠هـ.

ذكر المحنة في أيام «الوَاثِق»

لمَّا مات «المُعْتَصِم» سنة ٢٢٧هـ، تولَّى بعده ابنه «مُحمَّد الواثق»[١] الخلافة، فأحيا الفتنة، وأقام سوق المِحْنة، وفي سنة ٢٣١هـ أصدر أمرَه إلى أمير البصرة بامتحان العلماء بخَلْقِ القُرْآن، وأظهر الغِلْظَة لِمَنْ قال بخلاف رأيه، وشدَّد المِحْنة، حتَّى قتل في ذلك بعضَ أهل العلم.

❁ ❁ ❁

(١) هو الواثق بالله أبو جعفر هارون الثاني بن المُعْتَصِم بالله محمد بن هارون الرشيد العباسي، تاسع خلفاء الدولة العباسية في العراق، ولد سنة ٢٠٠هـ، ولي الخلافة سنة ٢٢٧هـ، توفي سنة ٢٣٢هـ.

رجوع «الوَاثِق» عن المحنة والشدة

لما تولَّى «الوَاثِق» الخلافة، سار على طريقة أبيه «المُعْتَصِم» في الشِّدَّة والغِلْظة على علماء الزَّمان في مسألة خَلْقِ القُرْآن، وساعده على ذلك وزيره «أحمد بن أبي دؤاد»، وكان مِنْ رؤوس الاعتزال، حتَّى أن «أَحْمَد» هذا يقول: (مَنْ قال مِن الأُسارى: «القُرْآن مخلوقٌ» خلِّصوه وأعطوه دِينَارَين، ومَن امتنع دعوه في الأسر).

قال الخطيب[1]: كان «أحمد بن أبي دؤاد» قد استولى على «الوَاثِق»، وحمله على التَّشدُّد في المِحْنَة، ودعا النَّاس إلى القول بخَلْقِ القُرْآن، واستمَرَّ ذلك حتَّى مَلَّ «الوَاثِق» المِحْنَة، وسئمتها نفسه، فرجع عنها في آخر عمره[2].

هذا «أبو عبد الرحمن بن مُحمَّد الأَذْرَمِيُّ»[3] شيخ «أبي داود» و«النَّسائي»[4]،

---

(١) هو الخطيب أبو بكر أحمد بن أبي الحسن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي، ولد سنة ٣٩٢هـ، من كتبه: «الكفاية في علم الرواية»، و«الجامع، لأخلاق الراوي وآداب السامع»، و«تلخيص المتشابه في الرسم»، و«الفقيه والمتفقه»، و«اقتضاء العلم والعمل». توفي سنة ٤٦٣هـ.

(٢) تاريخ بغداد، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، ١٦/ ٢٢، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م. البداية والنهاية لابن كثير، ١٠/ ٣٠٩.

(٣) هو أبو عبد الرحمن عبدالله بن محمد بن إسحاق الجزري الأذرمي الموصلي.

(٤) هو أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النسائي، ولد سنة ٢١٥هـ، من كتبه: «السنن الكبرى»، و«المجتبى» وهو السنن الصغرى، توفي سنة ٣٠٣هـ.

يُحْمَل مكبَّلًا بالحديد مِنْ بلاده إلى «الوَاثِق»، فسأله «ابن أبي دؤاد» في مجلس «الوَاثِق» عن قوله في القُرْآن، فقال له الشَّيخ: (هذا الَّذِي تقوله يا «ابن أبي دؤاد» مِنْ خَلْقِ القُرْآن، شيءٌ عَلِمَه رسول الله ﷺ و«أبو بكر» و«عمر» و«عثمان» و«علي» ﷺ أو جهلوه؟)، فقال: (بل عَلِمُوه). قال: (فهل دَعَوُا النَّاس إليه كما دعوتَهم أنت أو سكتوا؟)، فقال: (بل سكتوا)، قال: (فَهَلَّا وَسِعَكَ ما وَسِعَهم مِن السُّكوت؟)، فبُهتوا، وضَحِك «الوَاثِق»، وقام قابضًا على فَمِه، وهو يقول: (فَهَلَّا وَسِعَكَ ما وَسِعَهم؟) ويكرِّرها، ثمَّ أَمَرَ أنْ يُعطَى الرَّجل ثلاثمائة دينار، ويُرَدُّ إلى بلده، ولم يمتحن أحدًا بعدها، وسَخَط على «ابن أبي دؤاد» مِنْ يومئذٍ.

حكاية أخرى

قال الإمام الشَّاطبيُّ[1]: حُكِيَ أنَّه أُقْدِم على «الوَاثِق» شيخٌ مِنْ أهل الفقه والحديث مِنْ (أَذَنَة)[2] مِن الثَّغْر الشَّاميّ، مقيَّدًا طُوالاً، حَسَن الشَّيبة، فسلَّم غير هائبٍ، ودعا فأوجز. وقال الرَّاوي: فرأيتُ الحياءَ مِنْه في حماليق عيني «الوَاثِق»، والرَّحمةَ عليه، فقال: (يا شيخ، أَجِب «أبا عبدالله أحمد بن أبي دؤاد» عمَّا يسألك عنه)، فقال: (يا أمير المؤمنين، «أَحْمَد» يَصْغُر ويضعف، ويَقِلُّ عند المناظرة)، فرأيت «الوَاثِق»، وقد صار مكانَ الرَّحمة غضبًا عليه، فقال: («أبو عبدالله» يصغر ويضعف، ويقِلُّ عند مناظرتك؟)، فقال: (هوِّن عليك يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في كلامه؟)، فقال له «الوَاثِق»: (قد أَذِنْتُ لك)، فأقبل الشَّيخ على «أَحْمَد»، فقال: (يا «أحمد»، إلامَ دَعَوْتَ النَّاس؟) فقال «أَحْمَد»: (إلى القول بخَلْقِ القُرْآن)، فقال له الشَّيخ: (مقالتك هذه الَّتي دَعَوْتَ النَّاس إليها مِن القول بخَلْقِ القُرْآن أَدَاخِلة في الدِّين، فلا يكون الدِّين تامًّا إلَّا بالقول بها؟)، قال: (نَعَمْ). قال الشَّيخ: (فرسول الله ﷺ دعا النَّاس إليها أم تركهم؟) قال: (لا)، قال له: (يَعْلَمُها أم

---

(١) هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي. من كتبه: «الموافقات» و«الاعتصام» في أصول الفقه، و«المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية»، توفي سنة ٧٩٠هـ.

(٢) وتسمى أيضا (أضنة)، بلدة كانت من الثغور الشامية قرب «المصيصة»، تقع على نهر (سيحان) في منطقة كليكيا. وهي اليوم من مدن الجمهورية التركية. كتاب: «تعريف بالأعلام الواردة في البداية والنهاية لابن كثير». وأضنة سادس المدن التركية الكبرى من حيث تعداد السكان، يقع مركز المدينة على نهر سيحان، على بعد ٣٠ كيلومتر من البحر الأبيض المتوسط جنوب الأناضول

لم يَعْلَمْها؟)، قال: (عَلِمَها)، قال: (فَلِمَ دَعَوْتَ النَّاس إلى ما لَمْ يَدْعُهم رسول الله ﷺ إليه، وتركهم منه؟)، فأمسك، فقال الشَّيخ: (يا أمير المؤمنين، هذه واحدةٌ).

٢. ثمَّ قال له: (أخبرني يا «أحمد»، قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.... الآية [المائدة: ٣]. فقلتَ أنت: الدِّين لا يكون تامًّا إلَّا بمقالتك بخَلْقِ القُرْآن، فالله ﷻ صدق في تمامه وكماله، أم أنت في نقصانك؟) فأمسك، فقال الشَّيخ: (يا أمير المؤمنين، وهذه ثانيةٌ).

٣. ثمَّ قال بعد ساعة: (أخبرني يا «أَحْمَد»: قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]. فمقالتك هذه الَّتي دَعَوْتَ النَّاس إليها، فيما بَلَّغه رسول الله ﷺ إلى الأُمَّة أم لا؟) فأمسك، فقال الشَّيخ: (يا أمير المؤمنين، وهذه ثالثةٌ). ثمَّ قال بعد ساعة: (أخبرني يا «أحمد»، لمَّا عَلِم رسول الله ﷺ مقالتك هذه الَّتي دعوت النَّاس إليها، اتَّسع له عن أن أمسك عنهم أم لا؟): قال «أَحْمَد»: (بل اتَّسع له ذلك)، فقال الشَّيخ: (وكذلك لـ «أبي بكرٍ»، وكذلك لِـ «عُمَرَ»، وكذلك لِـ «عُثْمَانَ»، وكذلك لِـ «عَلِيٍّ» ـ رحمة الله عليهم؟)، قال: (نَعَمْ)، فصرف وجهَه إلى «الوَاثِق»، وقال: (يا أمير المؤمنين، إذا لم يَتَّسِع لنا ما اتَّسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه، فلا وَسَّعَ الله علينا). فقال «الوَاثِق»: (نَعَمْ، لا وسَّع الله علينا إذا لم يَتَّسِع لنا ما اتَّسَع لرسول الله ﷺ ولأصحابه، فلا وسَّع الله علينا).

ثمَّ قال «الوَاثِق»: (اقطعوا قيوده)، فلما فُكَّت جاذَب عليها، فقال «الوَاثِق»: (دعوه)، ثمَّ قال: (يا شيخ لم جَاذَبت عليها؟) قال: (لأنِّي عقدتُّ في نيَّتي أنْ أُجاذب عليها، فإذا أخذتُها أوصيتُ أنْ تُجعل بين يدي وكفني، ثمَّ أقول: يا ربي، سَلْ عَبْدَك لِمَ قَيَّدني ظُلمًا، أو ارتاع بي أهلي؟) فبكى «الوَاثِق» والشَّيخ وكُلُّ مَنْ حَضَر، ثمَّ قال

له «الوَاثِق»: (اجعلني في حِلٍّ). فقال: (يا أمير المؤمنين، ما خرجتُ مِن منزلي، حتَّى جعلتك في حِلٍّ؛ إعظامًا لرسول الله ﷺ ولقرابتك منه) فتهلَّلَ وجه «الوَاثِق» وسُرَّ، ثمَّ قال له: (أقِم عندي، آنسُ بك)، فقال له: (مكاني في ذلك الثَّغر أنفع، وأنا شيخ كبير ولي حاجةٌ) قال: (سَل ما بدا لك)، قال: (يأذن أمير المؤمنين في رجوعي إلى الموضع الَّذِي أخرجني منه هذا الظالم ـ أي «ابن أبي دؤاد»)، قال: (قد أذنت لك)، وأَمَرَ له بجائزة فلم يقبلها. قال الرَّاوي: (فَرَجِعتُ مِنْ ذلك الوقت عن تلك المقالة، وأحسب أيضًا أنَّ «الوَاثِق» رجع عنها)[1]. كذا في كتاب «الاعتصام» للإمام الشَّاطبيِّ ص٢٤٢ ج١.

❁ ❁ ❁

(١) الاعتصام، للإمام إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، ١/ ٣٠٨ ـ ٣١١، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

أَمْرُ «المُتَوَكِّل» برَفع المِحْنَة

ثم لما وَلِيَ «المُتَوَكِّل على الله بن المعتصم»[1] الخِلافةَ بعد أخيه «الوَاثِق»، سنة اثنين وثلاثين ومائتين (٢٣٢)، رَفَع المِحْنَة، وقَمَعَ البِدْعَة، ومَالَ إلى السُّنَّة، وأكرم «الإمام أَحْمَد» ﷺ، وأعطاه عطايا فلم يقبلها، واستبشر النَّاس بولايته، فإنَّه كان مُحِبًّا للسُّنَّة وأهلِها، ورفع المِحْنَة عن النَّاس، وكتب إلى الآفاق: (لا يتكلَّم أحدٌ في القول بخَلْقِ القُرْآن)، واستقدم المُحَدِّثينَ إلى سامراء، وأجزل عطاياهم، وأكرمهم، وأمرهم بأنْ يُحَدِّثُوا بأحاديث الصِّفَات، فتوَفَّر دعاء الخَلْق «للمُتَوَكِّل»، وبالغوا في الثَّناء عليه، حتَّى قِيلَ: «إنَّ الخلفاء ثلاثة: «أبو بكرٍ الصِّدِّيق» في قتل أهل الرِّدَّة، و«عمر بن عبد العزيز»[2] في رَدِّ المظالم، و«المُتَوَكِّل» في إحياء السُّنَّة، وإماتة التَّجهُّم».

ثمَّ إنَّ رجلًا مِن المبتدعة، يقال له: «ابن البلخي»[3] وَشَى إلى الخليفة وَشْيًا، فقال: (إنَّ رجلًا مِن العلويين قد آوى إلى منزل «أحمد بن حَنْبَل»، وهو يبايع له النَّاس في الباطن)، فأمر الخليفة نائب بغداد أن يُكَبِّسَ منزل «أَحْمَد» مِن اللَّيل، فلم يشعروا إلَّا والمشاعل قد أحاطت بالدَّار مِنْ كُلِّ جانبٍ، حتَّى مِنْ فوق الأسطحة، فوجدوا

---

(١) هو المتوكل على الله أبو الفضل جعفر بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد، عاشر خلفاء الدولة العباسية في العراق، ولد سنة ٢٠٦هـ، ولي الخلافة سنة ٢٣٢هـ، توفي سنة ٢٤٧هـ.

(٢) هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، الخليفة الصالح، والملك العادل، ولد سنة ٦١هـ، ولي الخلافة سنة ٩٩هـ، توفي سنة ١٠١هـ.

(٣) لم أقف على ترجمته.

«الإمام أَحْمَد» جالسًا في داره مع عياله، فسألوه عمَّا ذُكِر عنه، فقال: (ليس عندي مِنْ هذا عِلْمٌ، وليس مِنْ هذا شيءٌ، ولا هذا مِنْ نيَّتي، وإنِّي لأرى طاعة أمير المؤمنين في السِّر والعلانية، وفي عُسْرِي ويُسْرِي، ومَنْشَطي ومَكْرِهي، وأَثَرَةٍ عَلَيَّ، وإنِّي لأدعو الله بالتَّسديد والتَّوفيق في الليل والنهار) في كلامٍ كثير، ففتَّشُوا منزله، حتَّى مكان الكتب وبيوت النِّساء والأسطحة وغيرها، فلم يروا شيئًا.

فلما بلغ «المُتَوَكِّل» ذلك، وعَلِم براءته ممَّا نُسِب إليه، علم أنَّهم يَكْذِبون عليه كثيرًا، فبعث إليه «يعقوب بن إبراهيم» المعروف بـ «قوصره»[1]، وهو أحد الحَجَبَة، بعشرة آلاف دِرْهمٍ مِن الخليفة، وقال: (هو يقرأ عليك السَّلام، ويقول: استنفق هذه)، فامتنع مِنْ قَبُولها، فقال: (يا «أبا عبدالله»، إنِّي أَخْشَى مِن رَدِّك إيَّاها أنْ يقع وَحْشةٌ بينك وبينه، والمصلحة لك قَبولها). فوضعها عنده، ثمَّ ذهب، فلمَّا كان مِنْ آخر اللَّيل، استدعى «أَحْمَدُ» أهلَه وبني عمِّه وعياله، وقال: (لَمْ أَنَمْ هذه اللَّيلة مِنْ هذا المال) فجلسوا وكتبوا أسماء جماعةٍ مِن المحتاجين، مِنْ أهل الحديث وغيرهم، مِنْ أهل «بغداد» و«البصرة»، ثمَّ أصبح فَفُرِّق في النَّاس ما بين الخمسين إلى المائة والمئتين، فلم يبق منها درهمًا، وأَعْطَى منها لـ «أبي أيُّوب»[2]، و«أبي سعيد الأشج»[3]، وتَصَدَّق بالكِيسِ الَّذِي كانت فيه، ولم يُعْطِ منها لأهله شيئًا، وهم في غلية الفقر والجهد، وجاء بنو ابنه، فقال: (أعطني درهمًا)، فنظر «أَحْمَدُ» إلى ابنه «صالح»[4]، فتناول «صالحٌ» قطعة، فأعطاه الصَّبيَّ، فسكت «أَحْمَد»، وبلغ الخليفة أنَّه تصدَّق بالجائزة كلِّها حتَّى

---

(١) هو يعقوب بن إبراهيم، المعروف بقوصرة، توفي سنة ٢٤١هـ.

(٢) لعله أبو أيوب يعلى بن عمران ـ من آل جرير بن عبدالله البجلي.

(٣) هو أبو سعيد عبدالله بن سعيد بن حصين الكندي الكوفي، المعروف بالأشج، توفي سنة ٢٥٧هـ.

(٤) هو أبو الفضل صالح بن أحمد بن محمد بن حنبل، ولد سنة ٢٠٣هـ، توفي سنة ٢٦٥هـ.

كيسها، فقال «عليُّ بن الجهم»[1]: (يا أمير المؤمنين، إنَّه قد قَبِلها منك، وتَصَدَّق بها عنك، وماذا يصنع «أَحْمَد» بالمال؟ إنَّما يكفيه رغيفٌ)، قال: (صدقتَ).

فلمَّا مات «إسحاق بن إبراهيم» وابنه «مُحمَّد»[2]، ولم يكن بينهما إلاَّ القُرْب، وتولَّى نيابة «بغداد» «عبدالله بن إسحاق»[3]، كتب «المُتَوَكِّل» إليه أنْ يَحْمل إليه «الإمام أحمد بن حَنْبَل»، فقال لـ «أحمدَ» في ذلك، فقال: (إني شيخ كبيرٌ وضعيفٌ)، فَرَدَّ الجواب على الخليفة بذلك، فأرسل يَعْزِم عليه لتَأتيَنِّي، وكتب إلى «أَحْمَد»: (إنِّي أُحِبُّ أنْ آنَسَ بِقُرْبِك، وبالنَّظر إليك، ويحصل لي بركةُ دعائك)، فَسَار إليه الإمام «أَحْمَد»، وهو عليلٌ، في بنيه وبعض أهله، فلمَّا قارب العَسْكَر تلقَّاه «وصيفٌ»[4] الخادمُ في مَوكِبٍ عظيمٍ، فسَلَّم «وصيفٌ» على «الإمام أَحْمَد»، فَرَدَّ السَّلام، وقال له «وصيفٌ»: (قد أمكنك الله مِن عدُوِّك ابن أبي دؤاد)، فلم يَرُدَّ عليه جوابًا، وجعل ابنه يدعو الله للخليفة، ولوصيفٍ.

فلما وصلوا إلى العَسْكَر بـ «سُرَّ مَنْ رَأَى»[5]، أُنْزِل «أَحْمَد» في دار «إيتاخ»[6]،

---

(١) هو أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر، كان شاعرا أديبا، توفي سنة ٢٤٩هـ.

(٢) هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب الخزاعي، توفي قريبا من سنة ٢٣٥هـ.

(٣) هو عبدالله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب المصعبي الخزاعي.

(٤) وصيف، مملوك تركي، من كبار الأمراء في بغداد أيام المتوكل، قتل وصيف سنة ٢٥٣هـ.

(٥) فيها لغات: [١] ضم السين والراء. [٢] فتح السين والراء. [٣] فتح السين وضم الراء. [٤] سامرا مقصورة. [٥] سامراء ممدودة. [٦] ساء من رأى. انظر: تاج العروس، ١٢/ ١٠ ـ ١١. واشتهرت اللغة الخامسة، بل يقال هو اسمها في اللغة الآرامية، وهي مدينة تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة. في محافظة صلاح الدين. تقع شمال العاصمة بغداد وتبعد عنها ١٢٥ كيلومترا، تحدها من الشمال مدينة تكريت، ومن الغرب الرمادي، ومن الشرق بعقوبة.

(٦) هو إيتاخ التركي، كان سيف النقمة للخلفاء، وكان «المتوكل» قد خافه، فدس إليه «المتوكل» من يشير عليه بالحج، فأذن له، فلما بلغ الكوفة ولى مكانه، واحتال عليه إسحاق بن إبراهيم=

فلمَّا عَلِم بذلك ارتحل منها، وأمر أنْ يُسْتكْرَى له دارٌ عندها، وكان رؤس الأمراء في كُلِّ يومٍ يحضرون عنده، ويبلِّغونه عن الخليفة السَّلام، ولا يدخلون عليه حتَّى يقلعون ما عليهم من الزِّينة والسِّلاح. وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطيئة، وغيرها من الآلات الَّتي تليق بتلك الدَّار العظيمة، وأراد مِنْه الخليفة أنْ يقيمَ هناك يُحَدِّث النَّاس عِوَضًا عمَّا فاتهم مِنْ أيَّام المِحْنَة وما بعدها مِنَ السِّنين المتطاولة، فاعتذر إليه بأنَّه عليلٌ، وأسنانه تتحرَّك وهو ضعيف.

وكان الخليفة يبعث إليه في كُلِّ يومٍ مائدةً فيها ألوان الأطعمة والفاكهة والثَّلج ممَّا يُقاوِم مائةً وعشرين درهمًا في كُلِّ يومٍ، والخليفة يَحْسِبُ أنَّه يأكل مِنْ ذلك، ولم يكنْ «أَحْمَد» أكل شيئًا مِن ذلك بالكُلِّيَّة، بل كان صائمًا يطوي، فمكث ثمانيةَ أيَّامٍ لم يستطعم بطعامٍ، ومع ذلك هو مريضٌ، ثمَّ أقسم عليه ولداه حتَّى شَرِب قليلًا مِن السَّويق بعد ثمانية أيَّامٍ، وجاء «عبيدالله بن يحيى بن خاقان»[1] بمالٍ جزيلٍ مِن الخليفة جائزةً له، فامتنع مِنْ قَبوله، فألح عليه الأمير، فلم يقبل، فأخذها الأمير ففَرَّقها على بنيه وأهله، وقال: (إنَّه لا يمكن ردَّها على الخليفة).

وكتب الخليفة لأهله وأولاده في كُلِّ شَهْرٍ بأربعة آلاف دِرْهَمٍ، فمانع «أبو عبدالله» الخليفةَ، فقال الخليفة: (لا بُدَّ مِنْ ذلك، وما هذا إلَّا لولدك)، فأمسك «أبو عبدالله» عن ممانعته، ثمَّ أخذ يَلُوم أهله وعمَّه، وقال لهم: (إنَّما بقي لنا أيَّامٌ قلائل، وكأنَّنا قد نزل

= بن مصعب متولي بغداد بأمر «المتوكل» فجاء به إلى بغداد، وفرق إسحاق بينه وبين غلمانه، وأنزله في الدار المذكورة، وقبض عليه وقيده وكبله بالحديد ثمانين رطلا، وقيل: إنه طلب الماء فلم يُسْق ومات عطشا سنة ٢٣٤هـ وقيل سنة ٢٣٥هـ. الوافي بالوفيات لخليل الصفدي، ٩/ ٢٧٠ بتصرف.

(١) هو أبو الحسن عبيدالله بن يحيى بن خاقان، ولد سنة ٢٠٩هـ، توفي سنة ٢٦٣هـ.

بنا الموت، فإمَّا إلى جَنَّةٍ، وإمَّا إلى نارٍ، فنخرج من الدُّنيا، وبطوننا قد أخذت مِنْ مال هؤلاء)، في كلامٍ طويل يعظُهم به، فاحتجُّوا عليه بالحديث الصحيح: (ما جاءك مِنْ هذا المال، وأنت غير سائلٍ ولا مُسْتشرفٍ فخذه)، وإنَّ «ابن عُمَرَ» و«ابن عبَّاسٍ» قَبِلا جوائز السُّلطان. فقال: (وما هذا وذاك سواءٌ؟ ولو أعلم أنَّ هذا المال أُخِذَ مِنْ حَقِّه، وليس بظُلْمٍ ولا جَورٍ لم أُبَالِ).

ولمَّا استمر ضعفُه جعل «المُتَوَكِّل» يبعث إليه بـ«ابن ماسويه»[1] المُتَطَبِّب، ينظر في مرضه، فرجع إليه، فقال: (يا أمير المؤمنين، إنَّ «أَحْمَد» ليس به عِلَّةٌ في بدنه، وإنَّما عِلَّتُه مِن قِلَّة الطَّعام، وكثرة الصِّيام والعبادة)، فسكت «المُتَوَكِّل».

ثمَّ سألتْ أُمُّ الخليفة مِنْه أنْ تَرَى «الإمام أَحْمَد»، فبعث «المُتَوَكِّل» إليه يسأله أنْ يجتمع بابنه «المعتز»[2]، ويدعو له، وليكُن في حُجْرة. فتَمَنَّع مِنْ ذلك، ثمَّ أجاب إليه، رجاء أنْ يُعَجِّلَ برجوعه إلى أهله بـ«بغداد»، وبعث الخليفة إليه بخِلْعَةٍ سَنِيَّةٍ، ومركوبٍ مِنْ مراكبه، فامتنع مِنْ ركوبه؛ لأنه عليه مَيْثَرة نُمُورٍ، فجيء ببغلٍ لبعض التُّجَّار، فركبه، وجاء إلى مجلس «المُعْتز»، وقد جلس الخليفة وأمُّه في ناحيةٍ في ذلك المجلس، مِنْ وراء سِتْرٍ رقيقٍ.

فلمَّا جاء «أَحْمَد» قال: (سلامٌ عليكم)، وجلس ولم يُسَلِّم عليه بالإمْرة، فقالت أمُّ الخليفة: (اللهَ اللهَ يا بُنَيَّ في هذا الرجل، تردُّه إلى أهله، فإنَّ هذا ليس ممَّن يريد ما أنتم فيه)، وحين رأى «المُتَوَكِّلُ» «أَحْمَدَ»، قال لأُمِّه: (يا أُمَّهْ، قد تَأَنَّست الدَّار)، وجاء

---

(١) هو أبو زكريا يوحنا بن ماسويه، طبيب. سرياني الأصل. عربي المنشأ، توفي سنة ٢٤٣هـ.

(٢) هو المعتز بالله محمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم، الخليفة الثاني عشر للدولة العباسية في العراق، ولد سنة ٢٣٢هـ، ولي الخلافة سنة ٢٥١هـ، توفي سنة ٢٥٥هـ.

الخادِم ومعه خِلْعَةٌ سَنِيَّةٌ مُبَطَّنَة، وثوبٌ، وقَلَنْسُوةٌ، وطيلسانٌ، فألبسها «أَحْمَدَ» بيده، و«أَحْمَدُ» لا يتحرَّك بالكُلِّيَّة.

قال «الإمام أَحْمَد»: ولمَّا جلست إلى «المعتز»، قال مُؤدِّبُه: «أصلح الله الأمير، هذا الَّذِي أَمَر الخليفة أنْ يكون مُؤَدِّبُك»، فقال: «إنْ عَلَّمَني شيئًا تعلَّمته»، قال «أَحْمَد»: فتعجَّبْتُ مِن ذكائه في صِغَرِه؛ لأنَّه كان صغيرًا جدًا، فخرج «أَحْمَد» عنهم، وهو يستغفر الله، ويستعيذ بالله مِنْ مَقْتِه وغضبه، ثمَّ بعد أيَّامٍ أَذِن له الخليفة بالانصراف، وهيَّأ له حَرَّاقَةً[1]، فلم يقبل أنْ يَنْحَدِرَ فيها، بل رَكِب في زَوْرَقٍ، فدخل «بغداد» مختفيًا، وأمر أنْ تُباع تلك الخِلْعَة، وأنْ يُتصدَّق بثمنها على الفقراء والمساكين، وجعل أيَّامًا يتألَّم مِن اجتماعه بهم، ويقول: (سَلِمْتُ منهم طول عمري، ثمَّ ابتليتُ بهم في آخره).

وكان قد جاع عندهم جوعًا عظيمًا كثيرًا، حتَّى كاد أنْ يقتله الجوع، وقد قال بعض الأمراء للمُتَوَكِّل: (إنَّ «أَحْمَد» لا يأكلُ لك طعامًا، ولا يشرب لك شرابًا، ولا يجلس على فُرُشك، ويُحرِّم ما تشربه). فقال: (والله لو نُشِر «المُعْتَصِم»، وكلَّمني في «أَحْمَد» ما قَبِلتُ منه). وجَعَلَت رُسُل الخليفة تَفِد إليه في كُلِّ يومٍ تستعلمُ أخباره وكيف حاله، وجعل يستفتيه في أموال «ابن أبي دؤاد» فلا يجيب بشيءٍ. ثمَّ إنَّ «المُتَوَكِّل» أَخْرج «ابن أبي دؤاد» مِن «سُرَّ مَنْ رَأَى» إلى «بغداد» بعد أنْ أَشْهد عليه نَفْسَه ببيع ضياعه وأملاكه وأخذ أمواله كلِّها.

قال عبدالله بن أحمد: وحين رجع أبي مِنْ «سامرَّاء» وجدنا عينيه قد دخلتا في مُوقَيه، وما رَجِعَت إليه نفسُه إلَّا بعد ستَّة أشهر، وامتنع أنْ يَدخل بيت قرابته أو يَدخل

---

(١) الظاهر أنها نوع من السفن الحربية التي تستخدم لحمل الأسلحة النارية، وبها مرام تلقى منها النيران على العدوِّ في البحر. تاج العروس، ٢٥/ ١٥٤.

بيتًا هم فيه، أو ينتفع بشيءٍ ممَّا هم فيه؛ لأجل قَبولهم أموال السُّلطان.

وكان مسير «أَحْمَد» إلى «المُتَوَكِّل» في سنة سبع وثلاثين ومائتين، ثمَّ مكث إلى سنة وفاته، وكُل يومٍ إلَّا ويَسْأَل عنه «المُتَوَكِّل»، ويُوفد إليه في أمور يشاوره فيها، ويستشيره في أشياء تقع له، ولمَّا قَدِم «المُتَوَكِّل» «بغداد» بعث إليه «ابن خاقان»، ومعه ألف دينار ليفرقها على مَنْ يرى، فامتنع مِن قَبولها وتفريقها، وقال: (إنَّ أمير المؤمنين قد أعفاني ممَّا أكره) فَرَدَّها.

وكتب رجلٌ رُقعةً إلى «المُتَوَكِّل»: (يا أمير المؤمنين، إنَّ «أَحْمَد» يشتم آباءك، ويرميهم بالزَّندقة). فكتب فيه «المُتَوَكِّل»: (أمَّا «المَأْمُون» فإنَّه خَلَطَ فَسَلَّط النَّاس على نفسه، وأما أبي «المُعْتَصِم» فإنَّه كان رجلَ حربٍ، ولم يكن له بَصَرٌ بالكلام، وأما أخي «الوَاثِق» فإنَّه استَحقَّ ما قيل فيه). ثمَّ أمر أنْ يُضْرب الرَّجل الَّذِي رفع إليه الرُّقعة مائتي سوطٍ، فأخذه «عبدالله بن إسحق بن إبراهيم» فضربه خمسمائة سوط، فقال له الخليفة: (لِمَ ضربتُه خَمسمائة سَوطٍ؟)، فقال: (مائتين لطاعتك، ومائتين لطاعة الله، ومائةً لكونه قَذَفَ هذا الشَّيخ الرَّجل الصَّالح «أحمد بن حَنْبَل»).

وقد كتب الخليفة إلى «أَحْمَد» يسأله عَن القول في القُرْآن سؤالَ استرشادٍ واستفادة، لا سؤالَ تعنُّتَ، ولا امتحان ولا عناد، فكتب إليه «أَحْمَد» رَحِمَهُ اللَّهُ رسالةً حَسَنةً فيها آثار عن الصَّحابة وغيرهم وأحاديث مرفوعة، وقد أوردها ابنه صالح في المِحْنَة التي ساقها، وهي مرويةٌ عنه، وقد نقلها غيرُ واحدٍ مِنْ الحُفَّاظ[1]. كذا في «البداية والنِّهاية» ص٣٣٧ ج١٠ ص٣٤٠ ج١٠.

❁ ❁ ❁

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ١٠/ ٣٣٧ـ ٣٤٠.

وفاة الإمام أحمد بن حَنْبَل

وبالجملة هذه الاستقامة في مثل هذه الفتنة العظيمة من كرامات الإمام، وكان وُلِد في شهر ربيع الأوَّل سنة أربع وستين ومائة، ومرض تسعةَ أيَّام، وتوفِّي رحمة الله عليه سنة إحدى وأربعين ومائتين، على الصَّحيح ليلة الجمعة، وصُلِّي عليه بعد العصر ثاني شهر ربيع الآخر، أو لثلاثَ عشرة بقين منه، وقيل: غير ذلك. وقبره زاهرٌ بـ«بغداد» يُزَار ويُتَبَرك به. قال أبو زُرْعَة: (بلغني أنَّ «المُتَوَكِّل» أَمَر أنْ يُمْسَح الموضع الَّذِي وقف النَّاس فيه للصَّلاة على الإمام «أَحْمَد»، فبلغ مَقام ألف ألف وخمسمائة ألف، وأسلم يوم وفاته عشرون ألفًا، وكُشِف قُبره بعد موته بمائتين وثلاثين سنةٍ؛ لموت بعض الأشراف ودَفْنِه بجانبه، فوُجد كفنُه صحيحٌ سالمٌ، وجُثَّته لم يتغيَّر)[1]. كذا في «شرح الأذكار» لـ «ابن عِلاَّن المَكِّيِّ»[2]، ص١٣٥ ج١.

رحمة الله عليه على مَرِّ الليالي والأيَّام. ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾

---

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية، للشيخ محمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي، ١/ ١٦٥ ـ ١٦٦، جمعية النشر والتأليف الأزهرية.

(٢) هو محمد علي بن محمد علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي، ولد سنة ٩٩٦هـ. من كتبه: «ضياء السبيل» في التفسير، وثلاثة تواريخ في بناء الكعبة، و«دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين»، و«المواهب الفتحية على الطريقة المحمدية»، و«الفتوحات الربانية على الأذكار النووية»، و«مثير شوق الأنام إلى حج بيت الله الحرام»، و«إتحاف الفاضل بالفعل المبني لغير الفاعل»، توفي سنة ٢٣٥هـ.

وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]. ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

آمين يا رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فهرس المضامين الواردة في كتاب

الكلام الموثوق
في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق

تقديم الأستاذ الدكتور جمال فاروق جبريل محمود ٥

مُقدِّمة المُحقِّق ٩

المصادر التي رجع إليها المؤلِّف..... ١٠

وصف الكتاب ١٤

عملي في الكتاب ١٤

ترجمة المُصنِّف..... ١٧

تلخيص الكلام في صفة الكلام ٣٣

مقدمة المصنف..... ٤١

إطلاقات القرآن عند الفقهاء والمتكلمين..... ٦٤

بيان معنى ثالث للكلام..... ٦٥

ذكر قول الإمام أبي حنيفة النُّعمان في مسألة القُرْآن..... ٧٢

حقيقة الكلام وحدُّه ومعناه..... ٧٦

معنى إنزال كلام الله ﷻ ٨٣

معنى سماع كلام الله تعالى ٨٧

تفصيل المذاهب في مسألة الكلام..... ٩٠

تحرير مَذْهَب المُتَكَلِّمِين..... ٩٠

بيان أنَّ كلام الله القديم لا يتَّصف بالحروف والأصوات وإقامة الدَّليل على ذلك..... ٩٣

كلمة للإمام البَيْهَقِيِّ في حَقيقة الكلام..... ٩٨

مَذْهَب الحَنَابِلَة والحَشْوِيَّة..... ١٠٠

مَسألة الحُروف..... ١١٤

ذكر ما احتجَّ به الحَنَابِلَة لإثبات الحرف والصَّوت في الكلام القديم مع الجواب عنه..... ١٢٢

الرَّدُّ على مَنْ قال إذا كان الكلام القديم غيرَ حالٍّ في المُصْحَف فما معنى تعظيمه..... ١٣٢

فتاوى العلماء الأعلام في مَسألة الكَلام..... ١٣٣

بيان الفرق بين القراءة والمقروء والتِّلاوة والمتلوِّ..... ١٣٧

مسألة لفظي بالقُرْآن مخلوقٌ..... ١٣٩

خاتمة الكلام وفذلكة المَرَام..... ١٤٣

ذِكْرُ أدلَّة أهل السُّنَّة والجماعة على أنَّ القُرْآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوق..... ١٥٠

ما جاء عن الصَّحابة والتَّابعين وَأئمَّة المسلمين ﷺ في أنَّ القُرْآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ..... ١٦٣

حكاية إجماع الصَحَابة وَالتَابِعِين..... ١٦٦

ذِكْر أقوال الأئمَّة في القُرْآن..... ١٦٨

الرد على الجَهْمِيَّة والمُعْتَزِلَة..... ١٧٨

أدلة المُعْتَزِلَة والجواب عنها..... ١٨١

خَاتمةٌ في ذِكْر مُلَخَّص هذه الفتنة..... ١٩٤

كيف كان بَدْء فتنة القول بخَلْق القُرْآن، وقيام الإمام أحمد بن حَنْبَل في ذلك مَقَامَ الصِّدِّيقين رحمة الله عليه..... ١٩٤

كتابٌ آخَرَ مِن «المَأْمُون» إلى «إسْحَاق»..... ١٩٧

ذكر المحنة في أيَّام «المُعْتَصِم»..... ٢٠٢

ذِكْرُ ضَرْب الإمام أَحْمَد ﷺ بَين يَدي «المُعْتَصِم» عَليه مِنَ الله مَا يستحقُّه..... ٢٠٣

ذكر المحنة في أيام «الوَاثِق»..... ٢١٠

رجوع «الوَاثِق» عن المحنة والشدة..... ٢١١

حكاية أخرى..... ٢١٣

أَمْرُ «المُتَوَكِّل» برَفع المِحْنَة..... ٢١٦

وفاة الإمام أحمد بن حَنْبَل..... ٢٢٣

الفهرس..... ٢٢٥